دواوين غرناطية (2)

مظهر النور

جمع

أبي الحسين ابن فركون

إعداد

محمد ابن شريفة

1991-1411

مظهر النور

بسم الله الرحمن الرحيم

طبعة 1412-1991

تقديم

يسعدنا أن نُقَدّم إلى معشر القرّاء هذا الأثر الغرناطي، وهو عبارة عن جزء من المدائح التي قيلت في السلطان النّصْري أبي الحجاج يوسف الثالث، ويمثّل هذا الجزءُ السفرَ الثاني من مجموع عنوانه : «مظْهر النّور الباصر، في أمداح مولانا أبي الحجاج الملك النّاصر» ولا نعرف الآن عدد الأسفار التي كان يتألف منها هذا المجموع، وإذا عرفنا أن هذا السفر يشتمل على الأمداح التي قيلت عام 811هـ وأن الممدوح ظل في الملك عشرة أعوام وذلك من عام 810 إلى 820 هـ فلربما أمكننا القول بأن المجموع كان يتألف من عشرة أسفار، لكلِّ عامٍ سفرٌ خاص به، وهي تجزئة ممكنة ومعقولة.

إنّ النسخة الأصلية من هذا المجموع ـــ وإليها ينتمي السفر الثاني الذي وصل إلينا ـــ كُتبت بخطّ جامعها أبي الحُسَين ابن فُرْكون شاعر يوسف الثّالث وكاتب سرّه، وقد جمعها وكتبها بأمر من مولاه، فهي إذن نسخة مُلوكية أَوْ خزائنية كما يقال، ويبدو هذا من جمال خطها وعناوينها المذهبة وكتابة اسم الملك أو لقبه أو كنيته كلما وردت في المدائح بحروف غليظة مع عبارة من عبارات الدعاء بحروف رقيقة فوقها.

ويبدو أن هذه النسخة ظلت في خزائن بني نصر في غرناطة إلى خروج آخر ملوكهم أبي عبد الله إلى فاس، وربّما كانت من الآثار التي حملها هو أو غيره إلى المغرب، وقد دخلت بعد ذلك إلى خزائن السعديين كما تدل على ذلك التملّكات الموجودة في أول وآخر السّفر الثاني، ومن قراءة هذه التملّكات نعرف أن هذا السّفر كان في ملك «الوزير الأعظم» أبي عبد الله محمد بن عبد القادر بن محمد الشيخ السعدي ثم في ملك عمه السلطان أبي محمد عبد الله الغالب بالله ثم في ملك أخيه أحمد الملقب بالمنصور الذهبي فأما الأمير محمد بن عبد القادر السعدي فقد كان وزيرا لعمه السلطان الغالب بالله

وكان أديبا يقرض الشعر، وله أخبار ونوادر كثيرة وأدبيات مذكورة، ولعله بسبب ذلك أدركته حُرفة الأدب فتوفي مخنوقا بأمر مخدومه الغالب بالله سنة 975هـ ويبدو أن اهتمامه بالآداب الأندلسية كان من طريق صاحبه أبي العباس المنجور الذي كان «يُثني على الأندلسيين وعَلى بلادِهم الْجزيرة ويسْتَحْسِنها ويتشَوَّق إليها» وقد سجن مدة بعد وفاة صاحبه الأمير المذكور، ونثبت نص تملكه الموجود آخر الورقة الأخيرة فيما يلي :

«الحمدُ لله وحدَه، وصلّى الله على مَنْ لا نبي بعْدَه.

صارَ هذا التَّأليفُ ملْكاً بالهِبَة منْ رَبّه لكاتِبه المُقِرّ بالإنابة إلى مولاه، الْغَنِي بهِ عمّن سواه، عبيدُ ربه المفتقر إلى رحمة سيّده محمّد بن عبد الْقادِر بن مُحَمد بن.......».

وثمَةَ صيغةٌ ثانية لتملّكه توجدُ أسفلَ ظهر الْورقة الأولى وهذا نصها :

«صارَ هذا السّفْرُ من ملْكِ الوزير الأعظم مولانا محمد بن عبد القادر وصل الله عزته... ورفعته» ثم إن السفر أهدي إلى الغالب بالله وهذا أعطاه إلى أخيه أحمد المنصور الذي سجل تملكه في ظهر الورقة الأولى هكذا :

«الحمد لله وحده...............

صار لي هذا السفر بالهبة من يد سيدنا عبد الله أيده الله ونصر ألويته العلية وكتب بخط يده عبد ربه السّلطان أحمد بن محمد الشيخ الشريف الحسني عامله الله بلطفه وحلمه».

وقد قرأ المنصور هذا السفر ووقّف على بعض أبياته أي علم عليها بكلمة «قف» وحدها أو مع عبارة : «انظره وتأمله» أو «رحم الله قائله» أو «قف وتأمل» وقد علق مرة على أبيات فيها غلو في المدح بقوله : «لا ينبغي لعاقلٍ أن يُخَلّد بمثل هذا القول السّفْساف».

ولا نعرف بعد هذا عدد الأسفار التي كانت بيد هؤلاء السعديين من هذا المجموع الغرناطي، كما أننا لا نعرف ماذا صنع الله به وبغيره بعد الفتن الناشبة في أواخر العهد السعدي، وكل ما نعرفه أن كتباً من الخزائن السعدية تسرّبت إلى جنوب المغرب حيث حفظ بعضها في خزائن بسوس ودرعة وغيرهما وقد ظهر عدد منها الآن، ويبدو أن

هذا السفر الذي تبقّى لنا من «مظهر النور الباصر» كان في إحدى هذه الخزائن قبل أن يصبح من جملة خِزانة الباشا الجلاوي التي توجد اليوم في الخزانة العامة بالرباط.

هذه باختصار هي قصة هذا السفر الباقي من أسفار أخرى ــ لَعَلَّها تسعة ــ عَدَتْ عليها عوادي الزمن.

وأنتقل الآن إلى الكلام على مؤلف المجموع وعلى السلطان مخدومه ثم على مضمون هذا السفر وشعرائه.

فأما مؤلف المجموع فهو أبو الحسين بن أحمد بن سليمان بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن هشام المعروف بابن فركون. وأبو الحسين اسمه لا كنيته، وابن فركون شهرته وشهرة أبيه أحمد وعمِّه أبي الطاهر وجدِّه سليمان وجدّ أبيه أحمد قاضي الجماعة، وبنو فُركون هؤلاء أصلهم من المرية، وكان انتقالُ جدِّ الأسرة أحمد بن محمد إلى غرناطة وولايتُه قضاءَ الجماعة فيها بدايةً لشهرة هذه الأسرة ومشاركة عدد من أعلامها في الحياة السياسية والعلمية والأدبية بمملكة بني نصر، فقد كان أحمد ابن فركون والد جامع «مظهر النور» قاضياً فقيهاً وأديبا شاعرا، وكان عمُّه أبو الطاهر فقيها قاضياً، وأدرك هو مكانة كبيرة في عهد يوسف الثالث إذ كان كاتب سره وشاعر دولته ومؤرّخ أيامه، ولد أبو الحسين حوالي 781هـ بغرناطة ونشأ في حِجْر والده القاضي الأديب ودرسَ على أعلام العلم بالحَضْرة النّصرية يومئذ ومن طبقته الشّريف أبو المعالي والشريف أبو العباس ولدا الشريف أبي القاسم السبتي الغرناطي وأبو القاسم ابن قُطْبة وأبو الفضل ابن أبي جماعة والفقيه الشرّان وأبو يحيى ابن عاصم وغيرهم، وبعد أن أكمل دراساته واستكمل أدواته دخل ديوان الإنشاء النصري في عهد محمد السابع «وارتسم في كتاب المقام العلي في اليوم الرابع والعشرين لصفر من عام ثمانية وثماني مائة» وتَرَقّى في عهد يوسف الثالث فكلّفه أوّلَ الأمر في عام 811هـ بتنفيذ النفقات المخَصَّصَة للغُزاة والمجاهدين المتطوعين «بحضرته العلية وسائر البلاد النصرية» ثم اختارَهُ لتولّي كتابة سره عام 814هـ وظل في هذا المنصب إلى وفاة يوسف الثالث عام 820هـ وبعد هذا التاريخ لا نعرف عنه شيئا، وأغلب الظن أنه أصيب في غمرة الفتن التي حصلت بعد وفاة يوسف الثالث.

أما آثار أبي الحسين ابن فركون فتتمثّل أولا في ديوانه الذي وصل إلينا السفر الثاني منه، وقد نشرناه منذ سنوات، وتتمثل ثانياً في المجموع الشعري الكبير المسمى «مظهر النور الباصر، في أمداح الملك الناصر» وهو المجموع الذي لم يصل إلينا منه مع الأسف إلا هذا السفر، ونحن نقدّر أن أبا الحسين بصفته كاتب سر السلطان كان يحرر رسائل ديوانية في مختلف الأغراض السلطانية ولكنها ضاعت فيما ضاع من آثار الحقبة الغرناطية الأخيرة، وإن فيما بلغنا من ديوانه ومجموعه لفائدة أي فائدة، وقد بيّنا في المُقدمة التي وضعناها بين يدي الديوان قيمته التاريخية مع إشارات خفيفة إلى قيمته الأدبية.

وأما الملك الناصر الممدوح فهو أبو الحجّاج يوسف بن أبي الحجاج يوسف بن أبي عبد الله محمد الغني بالله. ولد عام 778هـ (1376م) ونشأ في البلاط النصري بغرناطة على عهد جده السلطان الغني بالله ووالده السلطان المستغني بالله. وقد تعلم كتاب الله وسنة رسوله على أبي عبد الله الشّريشي ودرس العلوم والآداب على أبي عبد الله محمد ابن جزي وأبي عبد الله محمد ابن علاّق وأبي مهدي ابن الزّيّات وغيرهم، وولع بقراءة الشعر وحفظه وكان معجبا بابن زمرك شاعر الحمراء في وقته وهو الذي جمع شعر ابن زمرك في ديوان أسماه : «البقية والمدرَك، من شعْر ابن زَمْرك». ولثقافته وكفاءته اختاره السلطان والده لولاية عهده غير أن هذا أغضب أخاه الأمير محمّد فثار في حياة والده وأُخمِدت ثورته في الحين ولكنه استطاع بعد موت السلطان عام 794هـ (1392م) أن يستولي على الملك ويسجن كبيره الوريث الشرعي في قلعة شلوبانية، وقد ظلّ يوسف في السجن إلى أن مات أخوه عام 810هـ (1408م) وكان أمَرَ ــ وهو يُحْتَضَر ــ بقتل أخيه يوسف ولكن هذا نجا من الموت بأعجوبة تشبه أن تكون أسطورة، وخلاصتها فيما تذكر المصادر المسيحية أن الأمير السجين كان يلعب الشّطرنج مع قائد القلعة عندما وصل الأمر بإعدامه فرغِبَ إلى القائد أن يُرجِيء التّنفيذ إلى أن يتم الدّور المبدوء فوافقه على ذلك ولعلّ الدور طال فأتاح الوقت الكافي لوصول أنصار الأمير يوسف الذين أنقذوه وكان على رأس هؤلاء ــ حسب المصادر المسيحية ــ القائد العِلْج أبو السُّرور مُفَرِّج قائد رُنْدة، وقد كافأه يوسف الثالث بعد أن اعتلى العرش بأن أنعم عليه وتزوّج ابنته وغدا من أقرب المقرّبين إليه ولما استُشْهِد في قلعة مُنْتِفْريد عام 813هـ (1410م) رثاه بشعر يوجد في ديوانه.

لقد ظلّ يوسف الثالث في الملك عشْرَ سنوات من سنة 810هـ إلى 820هـ وقد فصّلنا الكلام على عهده في مقدّمة ديوان ابن فركون ولا نريد أن نكرّر ما قلناه هناك، ولهذا فإننا سنقتصر هنا على إشارات إلى مناسبات القصائد التي يتضمّنها هذا السفر وأولُها وأبرزُها ولادةُ أول مولود للسلطان ووفاةُ والدته إثْرَ الولادة مباشرة وكان هذا «في آخر محرّم عام اثني عشر وثمانمائة» وهذه الفقيدة هي «بنت القائد المعظّم المرحوم أبي يزيد خالد مولى نعمتهم الكريمة» وقد أورد أبو الحسين في البداية خمس قصائد قالها الملك الشاعر في رثاء سكنه، وهو رثاء يجمع بين التفجّع على الفقيدة والقلَق على حال الوليد مع التجلّد أمام الخَطْب الأليم، ومثال ذلك قوله في إحدى القصائد المذكورة :

لَئِنْ أَوْدعوها في الثّرى فمحلُّها ... من القَلْبِ مَحْمِيّ بطولِ حياتِه
وهيهاتَ يمحو الدّهر ثابتَ وُدِّهَا ... وما رَسَمتْ أَيدي الهَوَى في حَصاتِه

وقوله :

وفي المَهْدِ مَبْغوم النّداء كأنّه ... يقولُ وأَيْنَ الفَهْمُ مِنْ كلماتِه
يُشيرُ فنَدْري ما يريدُ توهّماً ... ونفْهَم شَرْحَ الحالِ مِنْ لَحظاتِه

وفي هذه القصيدة نجد الفخر إلى جانب الرثاء ولكنه فخر ينتهي بالاستسلام أمام الموت فبعد أحد عشر بيتا :

ولكنّني لَمْ أُلْفِ للموتِ مدْفعا ... يُرَدّ الذي قَدْ خِيفَ مِنْ سَطَواتِه

وإذا كانت قصائدُ السلطان تفيضُ حزنا وتقْطُر أَلَما على فقدان إلْفِه وسَكَنِه فإن الشّعراء الذين قالوا في هذه المُناسبة وقفوا عند حدّ التهنئة بالمولود والتعبير عن الفرحة بمقْدَمِه، وهؤلاء هم أبو بكر بن عاصم وولده أبو يحيى وأبو العبّاس ولد الشريف السبتي وأبو عبد الله الشرّان وأبو الحسين بن فُرْكون وأبو القاسم بن سالِم، وهذا الأخير هو الوحيد الذي شفعَ التّهْنية بالتعزية وما نظنّ أنه كان موفّقا عندما قال :

فقُلْ جَذَلاً بِهِ أَهْلاً وسَهْلا ... ولا تأْسَفْ عَلَى إلْفٍ فَقيدِ

وفي يوم الأربعاء 5 صفر كانت العقيقة وكان يومها في غَرْناطة يوماً مشْهودا وموسما مقصودا أُجْرِيَت فيه عوائدُ الكرم ووُزِّعت خلالَه جوائزُ الجود وأنشد شعراءُ الحضرة يومئذٍ مطوّلاتٍ خلّدت هذه المناسبة إذ أنّ العقيقة كانتْ لمولود موعود لولاية العَهْد،

وأصحابُ هذه المطولات هم : أبو بكر بن عاصم وولدُه أبو يحيى والشّريف أبو العباس وأحمد بنُ فُرْكون وأبو محمد بن مَلِيح وأبو الحسن علي بن هُذَيْل وأبو عبد الله محمد الشرّان وأبو الحسين بن فُرْكون، وقد ذهبوا بعيدا في التنبّؤ بمستقبل الوليدِ وتعددت سينُ الاستقبال وكثُرتْ في عباراتهم «سيكون» و«سوف يكون» و«كأني به يكون» ولكن ما يشاء الله هو الذي يكون، يقول أبو الحسين بن فركون «كان من مشيئة الله عز وجل على إثْر وفاة الوالدة، ومصيرِها إلى أَلْطاف الله ورحَماتِه المعاهِدة، أن استأثَرَ الله بهذا المولى الأمير وضمّه لحدُه، وجاء مولانا والدُه من أجل مصابه بما لا يُحْصيه القولُ من الإبداع ولا يحُدّه» وقد وقعت وفاة الأمير الوليد «ثاني يوم من عقيقته» أي يوم الخميس 6 صفر عام 812هـ وفيه يقول يوسف الثالث :

بُعْداً لِيَوْم الخَميس مِنْ صَفَرٍ لَمّا جرى فيهِ سابقُ الْقَدرِ

ويقول أيضا :

إنّ للهـــمّ خَميـــس ثَـار فِـي يـومِ الْخمِيـس

وقد جرى ابن فُركون على الترتيب المرسوم له في «مَظْهر النّور الباصِر» فصدّر بمرثيتين للسّلطان في ولده ثم أورد مرثيتهُ هو في الموضوع.

ومن المناسبات التي خُلّدت بالشّعر في هذا السّفْر عيد الفطر لعام 811هـ وفيه قصيدة لأبي الحسين وعيد الأضحى للعام نفسه وفيه قصيدتان إحداهما لأبي الحسين والثانية لأبي بكر محمد بن عاصم الذي كان رئيس الكتاب يومئذ.

وثمّة قصيدة قالها الفقيه الخطيب أبو القاسم بن سالم المالقي بمناسبة زيارة السّلطان مالقة عام 811هـ، وقصيدة رفعها الفقيه أبو القاسم العَرّادي إلى السّلطان أيضا يشير فيها إلى وِفادة سفير المغرب عليه، وقصيدة قيلَتْ بمناسبة احتفال السلطان بإمْلاك أحد إخْوته وهي من مرفوعات الفقيه القاضي أبي القاسم بن حاتم قاضي جبل طارق.

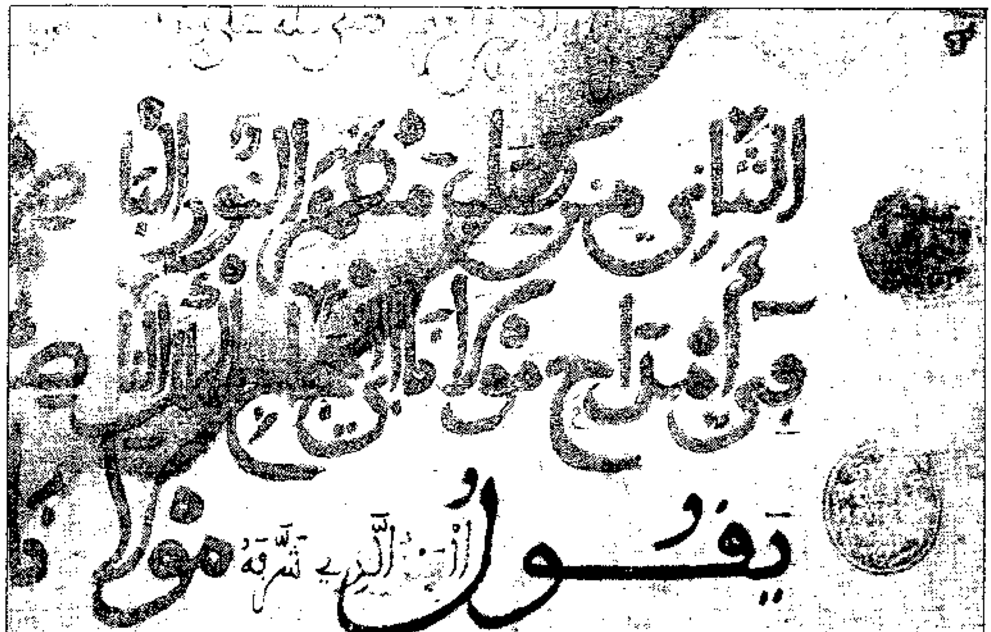
تلكمْ هي القصائدُ التي استطعنا معرفة مناسباتِها وتحديدَ تواريخِها وثمّةَ قصائدُ ومقطعاتٌ أخرى ليس فيها ما يدلّ على مناسبة أو يشير إلى تاريخ وإن كنا نقدر أنها مما قيل خلال عامي 811هـ ــ 812هـ.

ومما ذكرناه نعرف أن هذا السّفر يعتبر مكمّلاً لديوان ابن فركون وديوان يوسف الثالث، وذلك أن أشعار هذين الديوانين تكاد تغطي أهم المناسبات في السنوات العشر التي ملك فيها يوسف الثالث،أما أشعار هذا السفر التي يبلغ عددها 76 بين قصيدة وقطعة وموشحة، فإنّها تتعلّق كما عرفنا بسنة أو سنتين من هذه السّنوات العشر، ومع ذلك فإن قيمته التاريخية واضحة،إذ عرفنا بواسطته أعلاما لم نكن نعرف عنهم شيئا وزادنا معرفة بأعلام آخرين. ونثبت فيما يلي أسماء هؤلاء الأعلام وأمام كل شاعر عدد قصائده :

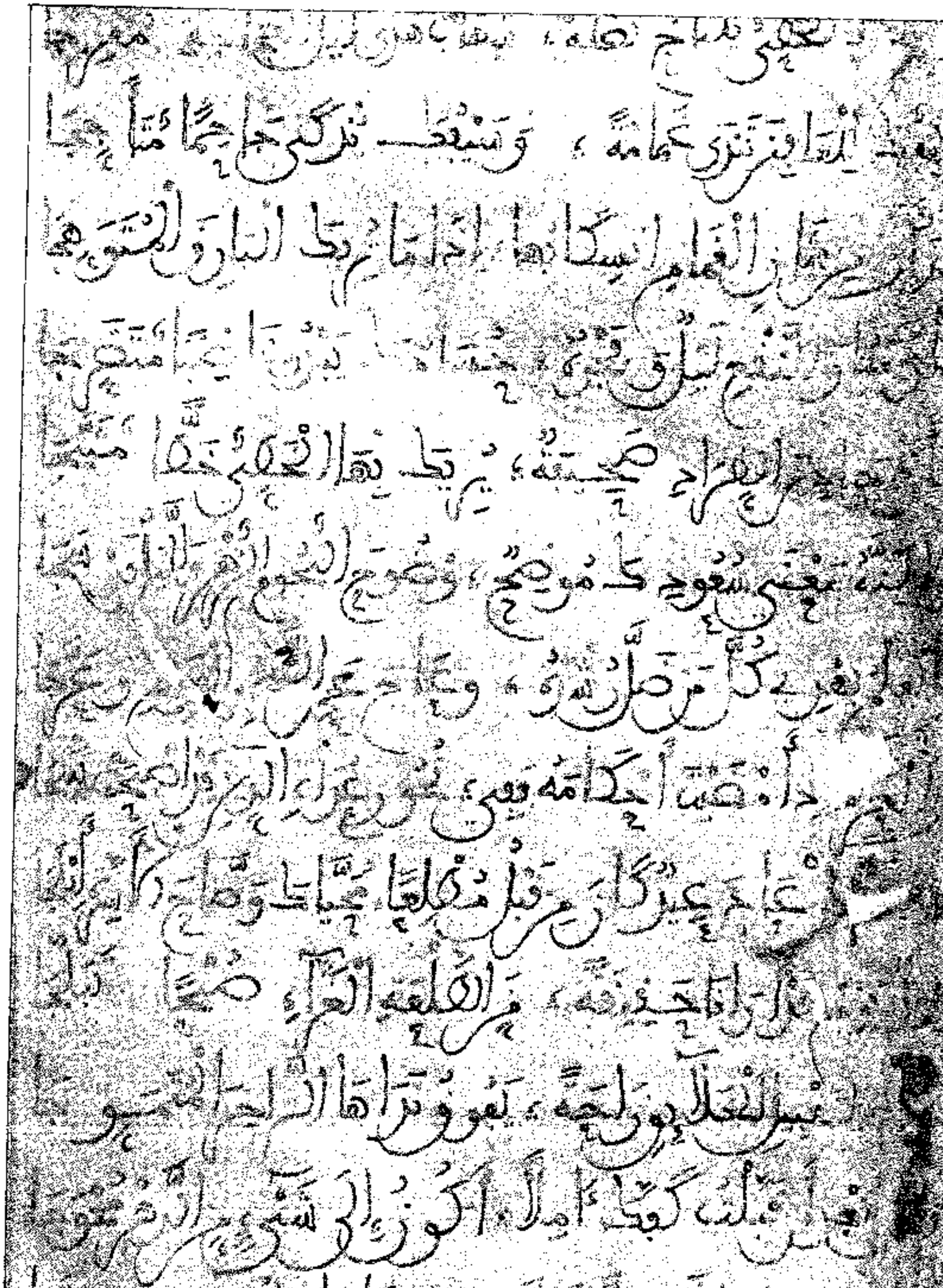
ـــ يوسف الثالث	12
ـــ أبو الحسين بن فُركون	13
ـــ أبو جعفر بن فُركون	12
ـــ أبو بكر بن عاصم	3
ـــ أبو يحيى بن عاصم	4
ـــ أبو عبد الله الشّرّان	4
ـــ أبو القاسم بن حاتم	2
ـــ أبو زكرياء يحيى بن السّرّاج	3
ـــ أبو الحسن علي بن هذيل	2
ـــ أبو القاسم بن سالم	2
ـــ أبو القاسم العرّادي	2
ـــ أبو محمد بن مَليح	2
ـــ أبو عثمان الإلْبيري	2
ـــ أبو عامر المكّي	3
ـــ أبو الحسن الغافِقي	1
ـــ أبو جعفر العُرَيْبي	1

وقد عرفنا بكل واحد منهم في حواشي هذا الديوان وأحلنا على المصادر القليلة التي ورد فيها ذكرُهم، وتجدر الإشارة إلى أنها شحيحة جدا كما أن بعض هؤلاء الأعلام لم

يذكروا فيها أصلا ولهذا فإن قصائدَهم التي اشتمل عليها هذا الدّيوان هِي كلّ ما يعرف عنهم. وقد ضبطنا الأشعار وشكَلْناها بالشّكل التام وشرحنا بعض المفردات الغرِيبَة واقتصرنا في التعليقات على ما لابد منه كالإشارة إلى بعض التّضمينات والاقتِباسات والمُعارضات، وسوف نقومُ إن شاء الله بعدَ الانتهاء من نشْرِ الموجود من شِعْر هذه الحِقْبة الغرناطية بدراستِهِ دراسةً فنّية تكشف عن قيمته الأدبية، وسنَرَى أنّ شعْر هذه الحِقْبة المُضْطَرِبة لا ينزل مستواه عن مستوى ما قبلَه وأنّ طبقةَ أبي يحيى بن عاصِم وأبي الحسين بن فُركون وأبي عبد الله الشَّرّان ليستْ دون طبقة ابن الجَيَّاب أو طبقة ابن الخَطيب أو طبقة ابن زمْرك.



الصفحة الأولى من المخطوط



الصفحة الأخيرة من المخطوط

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى ٱللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ

يَقُولُ ٱلْعَبْدُ ٱلَّذِي شَرَّفَهُ مَوْلاَنَا ٱلنَّاصِرُ لِدِينِ ٱللَّهِ ــ أَيَّدَ ٱللَّهُ مَقَامَه، وَنَصَرَ أَعْلاَمَهُ ــ بِجَمْعِ أَمْدَاحِهِ عَلَى اخْتِلاَفِ فُنُونِهَا، وَأَنْ[1] يَكُونَ هَذَا الدِّيوانُ سَافِراً عَنْ مُحْتَجِبِهَا وَمَصُونِهَا، وَإِنَّهُ حَفِظَ ٱللَّهُ وُجُودَه، وَأَعْلَى فِي مَعَالِمِ ٱلْجِهَادِ أَعْلاَمَهُ وَبُنُودَه، أَوْجَبَ أَنْ تُسْتَفْتَحَ الْمَقَاصِدُ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ نَظْماً وَنَثْراً، وأَنْ تَسْتَقْبِلَ ٱلأَبْصَارُ مَدَائِحَه اسْتِقْبَالَهَا لِلرَّوْضِ ٱلرَّائِقِ نَضَارَةً وَنَوْراً، وأَنْ يَكُونَ كُلُّ سِفْرٍ مِنَ ٱلْمَجْمُوعِ الزَّاهِي بِاسْمِهِ وَذِكْرِه، مُفْتَتَحاً بِالْمُعْجِبِ مِنْ خَطِّه وَشِعْرِه، وَبِمَا يُشَرِّفُ بِهِ عَبِيدَهُ مِنْ مُنْتَظِمِ دُرِّه، فَلِيَدِهِ الْكَرِيمَةِ السُّلْطَانِيَّةِ حُسْنُ خَطٍّ لاَ يُجَارَى مَدَاه، وَلِفِكْرِه عَجَائِبُ تَنُصُّهَا فِي مَجَالِي الطُّرُوسِ يَدَاه.

فَمِنْ ذَلِكَ [قَوله] خَلَّدَ ٱللَّهُ مُلْكَه، وَجَعَلَ كُلَّ مَلِكٍ مِلْكَه[2]،

وَمِمَّا يُهِيجُ[3] الشَّوْقَ مِنِّيَ والْبُكَا ... وَمِيضٌ بِأَعْلَى الرَّقْمَتَيْنِ يَلُوحُ
تَعَرَّضَ[4] مِنْ دُونِ الْمُصَلَّى وَدُونَه ... مَجَالٌ لأَيْدِي النَّاعِجَاتِ فَسِيحُ
بِلَيْلٍ كَأَنَّ الشُّهْبَ فِيهِ فَوَارِسٌ ... يُسَلُّ عليها لِلْبُرُوقِ صَفِيحُ
فَمَا بَيْنَ ثَاوٍ قَدْ تَكَدَّرَ أَوْ خَفَى[5] ... وَآخَرُ خَفَّاقُ الْفُؤَادِ جَرِيحُ

---

(1) جاء في طرّة المخطوط بخط مغاير حديث ما يلي : «قوله : وأن يكون الخ لم يظهر ما هو المعطوف عليه لأنه لم تُسبق أن قبل هذه حتى تعطف هذه عليها. فتأمل وأنصف، والكمالُ لِلَّه».

(2) هذه القصيدة موجودة في ديوان ملك غرناطة : 21 ــ 22 الطبعة الثانية.

(3) في الدّيوان : وَمِمَّا أهاج.

(4) في الأصل : تفرّض.

(5) في الديوان : فمن بين هاوٍ قد تكدّر واختفى.

فَإن يَكُ لَيْلُ ٱلْهَجْرِ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ فَلِلْوَصْلِ وَجهٌ بالصَّبَاحِ صَبِيحُ[6]
يُرِيكَ التَّبَاشِيرَ الَّتِي قَدْ تَأَلَّقَتْ فَرَاقَ مِن الفَجْرِ الأَغَرِّ وُضُوحُ
فَيَحْسِبُهَا مَنْ يَهْتَدِي بِسَنَائِهَا عَزَائِمَ تَغْدُو فِي ٱلْعِدَى وَتَرُوحُ
وَأَنَّ إِفَنْتَ الرُّومِ[7] يَنْقَادُ خَاضِعاً كَمَا انْقَادَ مِن بَعْدِ الإبَاءِ جَمُوحُ
سَيَرْضَى بِحُكمِ السَّيْفِ مِنْهُ مُسَوِّفٌ وَيَسْمَحُ بالمَالِ الْعَرِيضِ شَحِيحُ
وَذَلِكَ سَهْلٌ فِي مَشِيئَةِ قَادِرٍ يُنِيلُ مَرَاماً مُرتجًى وَيُتِيحُ
أَمَا نَحْنُ وَٱللَّهُ الْعَلِيمُ بِقَصْدِنَا نُهَجِّرُ فِي نَصْرِ الهُدَى وَنُرِيحُ
بِأَفْئِدَةٍ لا يَسْتَقِرُّ قَرَارُهَا وَهَلْ بِمُثَارِ النَّقْعِ تَهْدَأُ رِيحُ
أَنَا اليُوسُفِيُّ النَّاجِحُ السَّعْيِ كُلَّمَا تُذُوكِرَ قَصْدٌ لِلْمُلُوكِ نَجِيحُ[8]
أَنَا اليُوسُفِيُّ النَّاصِرُ اللَّقَبِ الَّذِي أُبِيدُ ذَرَارِيَّ العِدى وأُبِيحُ
يُصَرِّحُ مَلْكُ الرُّومِ جَهْراً[9] بِصُلْحِهِ وَبُرْهَانُ مقصودِي لَدَيْهِ صَرِيحُ
وهلْ لِي إِلَى غَيْرِ الحُروبِ تَطَلُّعٌ وهلْ لِي إِلَى غَيْرِ الجِهَادِ طُموحُ
وَإِنَّ مَقَامِي لا مُقَامٌ يَرُوقُه فَلَيْسَ فُتُورٌ[10] أن تَقِلَّ فُتُوحُ

وَمِنْ مَقَاصِدِهِ الشَّرِيفَةِ[11]

رَضِيتُ بِمَا يَقْضِي الجَمَالُ وَيَحْكُمُ وإنْ كَانَ سَيْفِي فِي الْعِدَى يَتحكَّمُ
أَنَا النَّاصِرُ السَّامِي إلى كل مُرْتَقًى بِي الخَطْبُ يَصْحُو جَوُّهُ المُتَغَيِّمُ
وَلِي فِي المعالِي هِمَّةٌ يُوسُفِيَّةٌ تَسَامَى بِهَا فَوْقَ الكواكِبِ مَعْلَمُ

---

(6) فصيح كذا في الأصل، وفي الديوان : صبيح.

(7) افنت هي الكلمة القشتالية Infante أي الولد، وتعني ولي العهد.
راجع ما كتبناه في دوان ابن فركون : 60، 157، 345.

(8) هذا البيت غير موجود في الدّيوان.

(9) في الديوان : جهدا.

(10) في الديوان : فليس فتوراً.

(11) توجد القصيدة في الديوان : 121 وفيه : «ومن نظمنا في التضمين، وطريقة سحره المبين».

فَيَا ثَاوِيّاً حيثُ الحِمَى وعُهودُهُ ... تَرُوقُ بُدُورٌ فِي عُلاهُ وأَنْجُمُ

«أَلَيْسَ عجيباً أن نَكُونَ بِبَلْدةٍ ... كِلانَا بِهَا ثَاوٍ ولا نتكلَّمُ»[12]

إِلَى كَمْ تُنَاجِينا كواكبُ ليلِنَا ... وَنُخْفِي أَحَادِيثَ الْغَرَامِ وَنَكْتُمُ

أَلَيْسَتْ لِيَ النَّفْسُ التي مِن صِفاتِهَا ... سُهَادُ جُفُونٍ والأحِبَّةُ نُوَّمُ

تَقَسَّمَهُمْ فِكْرِي وَذِهْنِي وَخَاطِرِي ... فَوَٱللَّهِ ما أَدري مَنِ الْقَلْبُ مِنْهُمُ

وَعَهْدِيَ بِالْعُذَّالِ لاَ دَرَّ دَرُّهُمْ ... ثُغُورُهُمُ مِنْ عَبْرتِي تَتَبَسَّمُ

وأَمَّا وقدْ فَازَ القِدَاحُ فَدَهْرُنَا ... كَما يَقْتَضِيهِ السَّعْدُ[13] فَتْحٌ وَمَوْسِمُ

وَطَلْعةُ سَلْمَى فِي حِمَانَا كأنَّها ... على أُفُقِ الْعَلْيَاءِ بَدْرٌ مُتَمَّمُ

يَقُولُونَ أَقْصِرْ عَنْ هَوَاهَا فَإِنَّهَا ... إِذَا سَنَحَتْ تُصْمِي من اللَّحْظِ أَسْهُمُ

أُعِيذُ مُحَيَّاها من الجَفْوَةِ التي ... يُخَيِّلُها الظَّنُّ الكَذُوبُ الْمُرَجَّمُ

أَتُمْكِنُنِي الرُّجْعَى وَخَيْلُ ارْتِيَاحَتِي ... سوابِقُهَا في سَاحَةِ الأُنْسِ تُقْدِمُ

أنا عِنْدَها لِلْوَصْلِ كَيْفَ أُرِيدُهُ ... أُمَتَّعُ فِيمَا شِئْتُهُ وَأُحَكَّمُ

وَهَاتِيكَ سَلْمَى لاَ عدِمْتُ قَبُولَهَا ... مُنَايَ إذا مَرَّتْ وعادَتْ تُسَلِّمُ

يُثِيرُ مُحَيَّاها الجميلُ صَبَابَتِي ... فَيُغْرَى فُؤادٌ بَيْنَ جَنْبَيَّ مُغْرَمُ[14]

وتَرْتَاحُ عِطْفَاها فَأَحْسِبُ أَنَّهَا ... مِنَ الغُصْنِ الْمُرْتاحِ قَدُّ مُنَعَّمُ

أُهَنَّأُ بِٱلْيَوْمِ الأَغَرِّ وَأَجْتَلِي ... من الصُّنْعِ مِيقَاتاً بِهِ ٱللَّهُ يُنْعِمُ

وَأَسْتَقْبِلُ العيدَ السَّعِيدَ بِدَوْلَةٍ ... رسومُ مَعَالِيهَا تُخَطُّ وَتُرْسَمُ

وَمِمَّا سَمَحَتْ بِهِ فِكْرَتُهُ الكَرِيمَةُ وأَنْعُمُه العَمِيمَة[15]

كَفَى شَجَناً[16] أنْ لاَ أرى وَجْه حِيلةٍ ... لطَارِقِ طَيْفٍ أَوْ لِبَعْثِ كِتابِ

وَلاَ أَمَلٌ إلا وَظَلَّ يَرُوعُهُ ... صُدُودُ مَلاَلٍ لاَ صُدُودُ عِتَابِ

(12) هذا البيت مضمّن، وهو من شعر عمر بن أبي ربيعة وفي الديوان : أليس كثيراً.

(13) في الديوان : الشعر.

(14) هنا تنتهي القصيدة في الدّيوان.

(15) هذه الأبيات في الديوان : 6.

(16) في الديوان : كفَى حزناً.

وَمَحْجُوبةٍ بالقصْرِ لَمْ تَدْرِ مَا الهَوَى ولا سَهِرتْ يَوْماً لِذِكْـرٍ تَصَابِ
مُنَعَّمَــةٍ ريَّــا الــرَّوادِفِ أُودِعَتْ جَمَــالَ رُؤَاءٍ فِي بَهَـاءِ شَبَــابِ
أُخَادِعُ فِيهَا النَّفْسَ بالوَعْدِ والمُنَى وَقَدْ بخِلتْ حَتَّى بِردِّ جَـوَابِ
سأَمُلُ إعْسَارَ الْهَوَى أَنْ يُدِيلَـهُ بِيُسْرِ حبِيبٌ بالـوِصَالِ يُحَابِـي

وَمِمَّا شَرَّفَ بِهِ عَبِيدَه[17]

مَدَّتْ تُصَافِحُنَا[18] أَنَامِـلُ سَوْسَنٍ وَرَنَتْ تُغَازِلُنَا عُيُونُ النَّـرْجِسِ
فِي رَوْضَةٍ لَوْلاَ الْحَيَاءُ مَعَ الحَيَا لَدَعَوْا لناصِرِكُم صَرِيعَ الأَكْـؤُسِ
أَوَ مَا يُعِيدُ الأُنْسَ يَسْحَبُ عطْفَهُ والرَّوْضُ يَرْفُلُ فِي ثِيَابِ السُّنْدُسِ
أَوَ مَا يُجِيلُ قِدَاحَ لَذَّاتِ الْهَوَى وَيَلُوحُ منصوراً بِأَرْفَعِ[19] مَجْلِسِ
أما صفاتُ المَلكِ فَهْي قَدِ اقْتَضَتْ أَنْ أَلْبسَ الأَبْطَالَ أَشرفَ مَلْبَسِ
وَتُظَلِّـلُ الأَعـلاَمُ يـومَ المُلْتَقَـى وَجْهاً يُفَدِّي بالنَّهَـارِ الـمُشْمِسِ
وَقِسِيُّهُ فِي النَّقْعِ تُـنْشِدُ حِزْبَـهُ نَحْنُ الأَهِلَّةُ فِي ظَلاَمِ الحِنْـدِسِ
هَـذَا وأَمَّـا اليُوسُفِـيُّ إِذَا رَمَـى فالنَّصْرُ يَنْزَعُ عن سِهامِ مُقَرْطِسِ
وَمَقَامُ مَظْهَـرِيَ الرفيـعِ مَكَانُـه أَسْنَى مَقَامٍ فِي نَـدًى وَتَـأَنُّسِ
أَلْقَى بَنِي الآمَالِ بِالْوَجْـهِ الَّـذِي تَحْكِيهِ أوصافُ الْكَرِيمِ المُعْرِسِ[20]
وَأُفِيضُ فِي شَأْنِ الصَّبَابَةِ والصِّبَـا وَأَجُـودُ جُـودَ الْعَـارِضِ المُتَبَـجِّسِ
واللَّهِ ثُـمَّ آللَّـهِ مَالِـيَ مَطْمَـحٌ إلاَّ طِمَاحِـي لِلْجَنَـابِ الأَقْـدَسِ
وَإِذَا أُرِيـحُ النَّـفْسَ فَهْـيَ سَجِيَّـةٌ تُرْضِي إِخَائِي فِي الْعَلاءِ وَمُؤْنِسِي
والمُـلْكُ مِلْكِـي والإِلاَهُ وَفَضْلُـهُ يَأْتِـي بِظَنِّـي مُنْعِمـاً وَتَفَـرُّسِي
حَتَّى أَهُزَّ الـعَضْبَ وَهْـوَ مُشَهَّـرٌ فَـأَرَاهُ يَزْهَـى بالنَّجِيـعِ وَيَكْـتَسِي

---

(17) القصيدة موجودة في الديوان : 156 ـ 157.

(18) في الديوان : تُصفّحنا.

(19) في الديوان : بأشرف.

(20) في الديوان : المغرس.

مِثْـــلُ ذَلِـــكَ أَيَّـــدَهُ آللَّـــه[21]

يـومُنـا يَـوْمُ صبـاحٍ مُشْـرِقِ فَـأَجِيبُـوا يَـا نُجُـومَ الأُفُـقِ
يُـوسُفِيّـاً قَـدْ أَقَـامَ سُنَّـةً نُظِمَتْ أَشْرَافُهَا فِـي نَسَـقِ
فِـي رِيَـاضٍ حُسْنُهَـا مُتَّجِـدٌ شَائِـعٌ فِي مَغْـرِبٍ وَمَشْـرِقِ
وأنَـا يُوسُفُهَـا مِـن دَوْلَـةٍ أُطْلِـعُ الأَنْجُـمَ مِـلْءَ الحَـدَقِ
بَيْـنَ أَبْطَـالِ جِهَـادٍ تَمْتَطِـي لِلْوَغـى غُـرَّ آلْجِيَـادِ السُّبَّـقِ
وَوُفُـودُ آلْمُـلْـكِ قَـدْ حَفُّـوا بِـه دُرَرَ العِقْـدِ وَتَـاجَ الْمَفْـرِقِ
بَـذَلَتْ يُمْنَـايَ مَـا شَـاءَ النَّدَى وَعَلَـى آللَّـهِ جَـزَاءُ المُنْـفِـقِ
هـذِهِ ـ يَـوْمَ احتِفَـالِ المُنْتَـدَى يَـا حُمَـاةَ الدِّيـنِ ـ أَسْنَـى خُلُقِـي
وَحَقِيـقٌ أن أُرَى مُعَـوِّذاً فِـي حِمَـى المُلْـكِ بِآيِ الفَلَـقِ
وإِذَا شِئْتُـمْ ثَنَـائِـي فَـأَنَـا قَـاذِفٌ بِاللُّـؤْلُـؤِ الْمُتَّسِـقِ
لُجَّـةٌ مُلْقِيَـةٌ جَواهِـراً تُنْتَقَـى لِلْخَصْـرِ أَوْ لِلْعُنُـقِ
يُوسُفِـيٌّ مَطْمَحِـي مِلْءَ آلْعُلَـى نَاصِـرِيٌّ هَـازِمٌ لِلْفِـرَقِ
أَسْـأَلُ آللَّـهَ لِـوَاءاً خَافِقـاً سَالِكـاً لِلْقَصْدِ أَهْدَى الطُّرُقِ

وَمِمَّا يُشِيرُ إِلَيْهِ مَمْلُوكُ هَذَا آلْمَوْلَى
النَّاصِرِ أَعْلَى آللَّهُ أَمْرَهُ، وَأَعْظَمَ أَجْرَهُ

أَنَّ هِلاَلَ آفاقِهِ، والمُرتَقَبَ طُلُوعاً مُحْرِزاً الشَّرَفَ المُلْكِي بِاسْتِحْقَاقِهِ، والنَّاجِمَ من مَطْلِعِ آلْكَمَالِ السني، وَالمَقَامِ اليُوسُفِي حيثُ الْعِزُّ قَدْ مَدَّ ظِلَّ رِواقِه، والْمَشَارِقُ والْمَغَارِبُ قَدْ رَاقَهَا بَهْجَةُ زَمَانِه، فَتَسَحَّبَتْ فِي بَدَائِعِ إِشراقِه، نَجْلُه السَّيِّدُ المَوْلَى ...[22] فَتَوَجَّهتْ وُجُوهُ الآمَالِ، وانْتَظَمَتْ لِلسَّاعَةِ عُقُودٌ رَائِقَةُ آلْجَمَالِ، وَصَدَرتِ

---

(21) توجد في الديوان : 148 مع تمهيد في مناسبتها هذا نصه : «ووجّهْنا ارتجالا إلى مجلس علماء حضرتنا في وليمة شرعية اتخذنا صنيعها بالرياض من قصورنا على ما اقتضته عنايتُنا بمجلسهم وتحفّينا بالمزيد من تأنّسهم».

(22) تُرِكَ بعدها في الأصل بياضٌ، ولعلّه مخصص لاثبات اسم المولود وفي سياق الكلام نقصٌ أو اضطراب.

المَقْطُوعَاتُ كَأَنَّهَا قِطَعُ الرَّوْضِ المُتَعَاهَدِ بالبَلِيلِ من مَهَبِّ القَبول والشّمال، وحَلَّ نَصرهُ ٱللَّهُ مِن المَجْلِسِ الخاصِّ للتَّهنِئَةِ مَحَلَّ المُشْرِقِ النَّيِّرِ مِن هَالَتِه، وَتَنَاهَى إِلَى الْغَايَةِ المعهودُ من قَبولِه وعِزِّ سُلطانِه وجَلالتِه، حَسبَما نُشِيرُ إلى مَا هُنِّئَ بِه مَقَامُهُ الْكَرِيمُ أَسْماهُ ٱللَّهُ على بَدِيهٍ وارْتِجَال، وَنَنْقُلُهُ إِلَى هَذا الْمَجْمُوعِ مَعَ مَا جَرى فِي الْيَوْمِ مِن مُجْمَلِ الحَال، وما شاءَ اللَّهُ تَعَالَى مِن انْتِقَالِ المُوجِدَةِ[23] قدَّس اللَّهُ رُوحَها إِلَى الرَّحْمَةِ الْوَارِفةِ الظِّلال، والعِنَايَةِ الإِلاَهِيةِ الَّتِي أُوفدَتْها عَلَى مَا تَقَدَّمَ لأَمْثَالِهَا مِنْ صَالِحَاتِ الأَعْمَالِ، فَعَظُمَ مِنْ مَوْلاَنَا عَلَى صَبْرِه وَتَحَمُّلِه مَكانُ هذا الخَطْبِ العَظِيم، وَوَقَفَ وَٱللَّهُ يُحْسِنُ عَزَاءه، وَيُطِيلُ بِكُلِّ فَتْحٍ هناءَه، مَوْقِفَ الرِّضَى والتَّسْلِيم، وأَجْرَى فِي احْتِفَالِ المِيلاَدِ عادةً سَنَّهَا وَشَرَعَهَا النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى الكَرِيم، وَمِنْ بَعْضِ صِفَاتِهِ الَّتِي أَنَافتْ وَسَمَتْ، وَفِي رُسُومِ المَعَالِي وَالمُسْنَدَاتِ العَوَالِي صَحَّتْ وارْتَسَمَتْ، أَنَّهُ أَيَّدَهُ ٱللَّهُ أَخذَ نَفْسَه العِلْمِيَّةَ العَلِيَّةَ بِإِيضَاحِ المُجْمَلِ، وأَحْكَمَ مِنْ مَنْظومِهِ في التَّأْبِينِ عِقْداً يَرُوقُ لَحْظَ مَنْ تَأَمَّل، وَجاءَ من الإِشَارَةِ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى بِأَزَاهِرِ أَدْوَاح، وَقُوتِ أَرْوَاح، نُقَدِّمُها صَبَاحاً مُلْقِياً أَشِعَّةَ جَمَالِهِ، ثُمَّ نَعْطِفُ عَلَيْهَا بِالمُرتَجلِ عِنْدَ طُلُوعِ السيِّدِ الْمَوْلَى وَسَاعَةَ اسْتِهْلاَلِه، ثُمَّ نَأْتِي بِمَا أُنْشِدَ فِي الصَّنِيعِ السَّعِيدِ وَمِيقَاتِ احْتِفَالِه.

مقاصِدُ مولانا نصره ٱللَّهُ وإبداعُه، وما اقتضاهُ إعجَابُه واخْتِرَاعُه[24]

أَحَقّاً يعُودُ الشَّملُ بَعْدَ شَتَاتِهِ جميعاً وَيَحْيَى الأُنْسُ بَعْدَ مَمَاتِهِ
وَيَنْعَمُ بالسُّلْوَانِ قَلْبٌ مُقَلَّبٌ وَيَأْلُفُ جَفْنُ العَيْنِ بعضَ سِنَاتِهِ
هو الدَّهْرُ قَدْ يُبْدِي الجميلَ وإنَّمَا مَسَرَّتُهُ مَقْرُونَةٌ بمَسَاتِهِ[25]
فَوَأَسَفَا أَنْ أَنْجمَ الرَّوْضُ يَانِعاً وَلَمْ أَجْنِ مَا قَدْ رَاقَ مِنْ زَهَرَاتِهِ

(23) في الطرة : أي الوالدة، ولو عبّر به كان أوضح وأسلم.
(24) القصيدة في الديوان : 15 ــ 17 وفيه انها «في رثاء من عزّ علينا فقده».
(25) أي بمساءته.

لَقَدْ نَشَرَتْ أَيْدِي البِعَادِ صَبَابَتِي ... كَمَا قَدْ طَوَتْ قَلْبِي عَلَى حَسَرَاتِهِ
وَجَفْنِي كَأَنَّ الخَدَّ مَيْدَانُه وَقَدْ ... أَجَالَ الجِيادَ الحُمْرَ من عَبَرَاتِهِ
فَيَامَنْ لِقَلْبٍ لَيْسَ يَهْدَأُ بَعْدَمَا ... تَقَلَّبَ فِي المشْبوبِ مِنْ جَمَرَاتِهِ
وَيَا مَنْ لِدَمْعٍ(26) لَيْسَ يَرْقَأُ عِنْدَمَا ... سَرَى رَكْبُهَا والموتُ بعضُ حُدَاتِهِ
إِذَا جَالَتِ الذِّكْرَى بِقَلبِيَ بَعْدَهَا ... يَضِيقُ نِطَاقُ الصَّبْرِ عَنْ زَفَرَاتِهِ
لَئِن أَوْدَعُوهَا فِي الثَّرَى فَمَحَلُّهَا ... مِنَ القَلْبِ مَحْمِيٌّ بِطُولِ حَيَاتِهِ
وَهَيْهَاتَ يَمْحُو الدَّهرُ ثَابِتَ وُدِّهَا ... وَمَا رَسَمَتْ أَيْدِي الْهَوَى فِي حَصَاتِهِ
أَلاَ لَيْتَ هَلْ أَرْجُو لِمَا فَاتَ عَوْدَةً ... فَيُطلِعُ صُبْحُ الْوَصْلِ نُورَ إِيَاتِهِ
وهَلْ فَائِتٌ فِي ٱلدَّهْرِ يُرجَى مَعادُهُ ... وَهلْ طَمَعٌ بَعْدَ الرَّدَى فِي ثَبَاتِهِ
فَهَذَا أَلِيمُ الخَطْبِ والصَّبْرُ عَادَتِي ... إِذَا لَمْ يَزَلِّ الفَوْتُ بِي عَن صِفَاتِهِ
وَهَذَا عَظِيمُ الذَّنْبِ والْحِلْمُ شِيمَتِي ... إِذَا لَمْ يَكُنْ صَرْفُ الرَّدَى مِنْ جُنَاتِهِ
ولكنَّها رُجْعَى إِلَى ٱللَّهِ كُلَّمَا ... تَنَبَّهَ جَفْنُ الدَّهْرِ مِنْ غَفَلاَتِهِ
وفِي المَهْدِ مَبْغُومُ النِّدَاءِ(27) كَأَنَّهُ ... يَقُولُ وَأَيْنَ الفَهْمُ مِنْ كَلِمَاتِهِ
يُشِيرُ فَنَدْرِي مَا يُرِيدُ تَوَهُّماً ... وَنَفْهَمُ شَرْحَ الحَالِ مِنْ لَحَظَاتِهِ
نُجِيبُ نِدَاهُ رَأْفَةً وَتَعَطُّفاً ... فَكُلٌّ كَنَى عن شَوْقِهِ بِلُغَاتِهِ
خَلِيلَيَّ لَمْ يَخْشَ الرَّدَى حَدَّ مُرْهَفِي ... فَيَا عَجَباً والْمَوْتُ فِي صَفَحَاتِهِ
وَكَيْفَ يُقِيلُ الدَّهْرُ لِلْمَوْتِ عَثْرَةً ... وَنَحْنُ نُقِيلُ الدَّهْرَ مِنْ عَثَرَاتِهِ
وَإِنِّي مَنْ يُرْدِي الكُمَاةَ ثَبَاتُهُ ... وَقَدْ هَدَّ رُكْنَ الصَّبْرِ فِي وَثَبَاتِهِ
وَإِنِّي مَن يَخْشَى الْمُلُوكُ نِزَالَهُ ... وَلَمْ يَخْشَ صَرْفُ الدَّهْرِ مِنْ عَزَمَاتِهِ
وَإِنِّي مَنْ تَهْوَى الخَلاَئِقُ أَنْ تُرَى ... وَقَدْ جُعِلَتْ طُرّاً فِدَاءً لِذَاتِهِ
وَإِنِّي مَنْ تَرْجُو العُفَاةُ نَوالَهُ ... وَتَخْشَى أُسُودُ الْحَرْبِ حَدَّ شَبَاتِهِ
وَمَنْ تَرهَبُ الأَيَامُ سَطْوَةَ بَأْسِهِ ... وَيَرْتَاعُ مِنْهُ اللَّيْثُ فِي أَجَمَاتِهِ
وَمَنْ يُتَّقَى فِي بَطْشِهِ بِعُدَاتِهِ ... وَيُلْفَى الرِّضَى فِي حِلْمِه وأَنَاتِهِ

---

(26) في الديوان : ويا من لقلب.. وهو سبق قلم نبّه عليه سيدي عبد الله كنون.

(27) هذا من قول ابن درّاج القسطلّي : وفي المَهْد مَبغومُ النِّداء صغيرُ. ديوانه : 298.

وَمَن إنْ دَجَا لَيلٌ وَأَظْلَمَ حَادِثٌ ... تَطَلَّعَ نُورُ الصُّبْحِ مِنْ قَسِمَاتِـهِ
وَمَنْ رَاقَتِ الشُّهْبَانَ رِفْعَةُ قَـدْرِهِ ... وَمَـنْ زَهَتِ الدُّنْيَـا بِغُـرِّ شِيَاتِـهِ
وَمَنْ يَعْمُرُ الأَنْـدَاءَ تَرْدادُ ذِكْـرِهِ ... وَمَنْ يُعجِزُ المُدَّاحَ بَعْضُ صِفاتِـهِ
وَلَكِنَّنِي لَمْ أُلْفِ لِلْمَـوْتِ مَدْفعـاً ... يَرُدُّ الذِي قَدْ خِيفَ مِنْ سَطَوَاتِهِ
عَسَى ٱللَّهُ بِالصَّبْرِ الجَمِيلِ يُعِينُنَـا ... وَيَمْنَحُهَا الرِّضْوَانَ بَـعْضَ هِبَاتِـهِ

وَفِـي مِثْـلِ ذَلِـكَ(28)

تَشْتَاقُكُمْ نَفْسُ الـمَشُوقِ الْوَالِـهِ ... لَـوْ تُسْعِفُـونَ عَمِيدَكُـم بِسُؤَالِـهِ
مَـا ضَرَّهُ إِلاَّ التَّشَيُّـعُ(29) فِيكُـمُ ... فَسِوَاكُـمُ مَـا إِنْ يَمُـرُّ بِبَالِـهِ
بِٱلْقَلْبِ(30) شَيَّعَكُمْ غَـداةَ أَحلَّكُـمْ ... حَادِي رِكَابِ الخَيْفِ بَيْنَ حِلاَلِهِ
مُضْنَى الجَوانِحِ وَجْدُهُ لاَ يَنْقَضِي ... فِـي حَلِّـهِ أَبَـداً وَلاَ تَرْحَالِـهِ
يُخْفِي الْهَوَى وَكَأَنَّمَا جَمْرُ الأَسَى ... تُهْدَى الرَّكَائِبُ بِاشْتِعَالِ ذُبَالِـهِ
إنْ أَنْتُـمُ يَـا رَاحِلِيـنَ ظَنَنْتُـمُ ... مَهلاً بِصَوْبِ الدَّمْعِ وَاسْتِرْسَالِـهِ
لاَ تَحْسِبُوا دَمْعَ الجُفُونِ عَلَيْكُـمُ ... إِلاَّ جَـوَاداً سَابِقـاً بِمَجَالِـهِ
مَاذَا يَقُـولُ مَـنِ اغْتَـدَى مُتَفَكِّـراً ... فِيمَـا يُبَيِّنُـهُ فَصِيـحُ مَقَالِـهِ
مَـاذَا يَحـدِّثُ إِنَّمَـا يُغْنِيكُـمُ ... عَنْ شَرْحِ مَا يُخْفِيهِ(31) مُجْمَلُ حَالِهِ
يَلْقَـى هَجِيرَ فِرَاقِكُـمْ وَرِكَابُكُـمْ ... فِـي دَوْحِ نَوْمَتِـهِ وَفَيْءِ ظِلاَلِـهِ
أَفَلَتْ أَشِعَّتُكُـمْ وَكَـانَتْ مَطْلِعـاً ... يُلْقِـي لَدَيْنَا النُّورَ بَـدْرُ كَمَالِـهِ
مَالَتْ بِغُصْنِ الدَّوْحِ نَسْمَتُهُ فَهَـلْ ... طَمَعٌ لنا مِنْ بَعْدُ فِي اسْتِقْبَالِـهِ
أَفَـلاَ نَفِـي بِعُهُودِكُـمْ وَمَقَامُنَـا ... مُتَقَبَّـلُ الحَسَنَـاتِ مِـن أَعْمَالِـهِ

---

(28) الديوان : 94 ـــ 95 وفيه : «ومن منظومنا في الرثاء للسكن».

(29) في الديوان : التشوق.

(30) من هنا إلى قوله : ذباله، غير موجود في الديوان.

(31) وردت في أصل الديوان : ما يغنيه، وصوّبها المحقق كما يلي ما يضنيه.

أَنَا مَنْ عَلِمْتُمْ حَافِظٌ لِذِمَامِكُمْ   حِفْظاً أُجِلُّ المُلْكَ عَنْ إِغْفَالِهِ
والمُلْكُ مِلْكِي لَوْ يُتَاحُ فِدَاؤُكُمْ   لَمُنِحْتُمُ الْمَذْخُورَ مِنْ أَمْوَالِهِ
مَا كُنْتُ مِمَّنْ لِلْوَفَاءِ بعهدِه   يُتَعَرَّفُ الإِعْرَاضُ مِنْ إِقْبَالِهِ
مَا كُنْتُ مِمَّنْ فِي الصَّدِيقِ وحُبِّهِ   يُصْغِي بِمَسْمَعِهِ إِلَى عُذَّالِهِ
وَأَنَا الكَرِيمُ بِمَا مَلَكْتُ لأَجْلِهِ   كَرَمَ الجَوَادِ بِرُوحِهِ وَبِمَالِهِ
وَلَقَدْ وَقَفْتُ مُسَائِلاً طَلَلَ الحِمَى   أَرْجُو جَوَابَ قَبُولِهِ وَشَمَالِهِ
وَأَقُولُ يَا نَسَمَاتِ هَبَّاتِ الصَّبَا   هَلْ راحةٌ فِي الرَّبْعِ أَوْ تَسْآلِهِ
أَسَفاً عَلَى الْوَجْهِ الأَغَرِّ تَحَجَّبَتْ   عَنِّي بِحُكْمِ ٱللَّهِ غُرُّ خِلاَلِهِ
لَمَّا اسْتَهَلَّ وَلِيُّ عَهْدِي نَاجِماً   أَخْفَى مُحَيَّاكُمْ ظُهُورُ هِلاَلِهِ
فالرَّبْعُ حسْبِي أَنْ أَرَى مُتَأَنِّساً   بِطُلُوعِ بَدْرِي فِيهِ واسْتِهْلاَلِهِ
لاَزِلْتُ أَمْنَحُهُ الرِّضَى حَتَّى يَرَى   مُلْكِي بِهِ مَا شَاءَ مِنْ آمَالِهِ

وَفِي مِثْلِ ذَلِكَ[32]

جَفَا أَجْفَانَ مُقْلَتِيَ السُّهَادُ   فَهَلاَّ سَاعَدَتْ يَوْماً سُعَادُ
فَأَسْتَجْلِي الْمُحَيَّا رَاقَ حُسْناً   وَيَهْدَأُ مِنْ تَقَلُّبِهِ الفُؤَادُ
أَمَا وَرِكَابُهَا إِذْ حَثَّ سَيْراً   لقد ظَفِرَ الحُدَاةُ بِمَا أَرَادُوا
تَوَادَعْنَا فَعَزَّ بِهَا لِقَاءٌ   وَأَحْكَمَ عَقْدَ فُرْقَتِهَا[33] الْبِعَادُ
فَوَاأَسفاً عَلَى سَكَنٍ صَفِيٍّ   سَجِيَّتُهُ خُلُوصٌ واعْتِقَادُ
عَلَى سُلْطَانِيَ الأَعْلَى وَمُلْكِي   وَفَاءٌ بَعْدَ ذِكْرٍ يُسْتَعَادُ
بَذَلْتُ لَهَا الْفِدَاءَ[34] بِكُلِّ شَيْءٍ   مِنَ الدُّنْيَا يُنَالُ وَيُسْتَفَادُ
فَغُيِّبَ فِي الثَّرَى نَجمُ الثُّرَيَّا   وأَقْفَرتِ الرَّوَابِي وَالوِهَادُ

---

(32) الديوان : 55 وفيه : «ومن ذلك في غرض الرثاء عند وفاة سَكَنٍ عَزَّ علينا فقده».
(33) في الديوان : فرقتنا
(34) في الديوان : البراء.

وَأَكْبَـرُ حَـادِثٍ مَـنْ خَلَّفَتْـهُ وَمِنْ حِجْرِ[35] العَلاَءِ لَـهُ مِهَـادُ
صَغِيـرُ السِّنِّ تُكْبِـرُهُ المَعَالِـي وَطَـوْعَ مَـدَاهُ تَسْتَبِـقُ الجِيَـادُ

وفِـي مِثْـلِ ذَلِـكَ[36]

أَحَقّـاً أَنْ رَحَلْـتِ فَـلاَ إِيَـابُ وَأَنَّـا إِنْ سَـأَلْنَـا لاَ نُـجَـابُ
أَوَحْشَتَنَـا بِهَـا قَضَتِ اللَّيَالِـي أَفْرَقَتَنَـا بِهَـا سَبَـقَ الكِتَـابُ
لَنَـا فِـي الخَطْـبِ صَبْرٌ يُوسُفِـيٌّ عَلَى أَنْ لاَ يُرَى مِنكم خِطَابُ
وَلَـوْ كَـانَ الرَّحِيـلُ إِلَـى إِيَـابٍ لَكَـانَ العَـوْدُ يُـرْقَبُ والْمَئَـآبُ[37]
وَلَكِـنْ سَارَتِ الأَظْعَـانُ سَيْـراً حَثِيثـاً دُونَـهُ الخَيْـلُ العِـرَابُ
وَفِي الخِدْرِ الْمُمَنَّعِ مَنْ تَنَاهَـى بِأَرْحُلِهَـا انْتِـزَاحٌ وَاغْتِـرَابُ
أَحَلَّتْهَـا النَّـوَى مَرْمـىً بَعِيـداً وَمَثْـوىً زَادَهَـا فِيـهِ الثَّـوَابُ
وَهَـا أَنَـا يُوسُفِـيٌّ قَـدْ دَعَانِـي لِذِكْرَاهَـا الدُّعَـاءُ الْمُسْتَجَـابُ
لِفَـرْعٍ خَلَّفَتْـهُ أَمِيـرَ مُـلْكٍ رَفِيـعٍ مِـنْ مَعَالِيـهِ الجَنَـابُ
لَئِـنْ حُجِبَتْ فَـإِنَّ رِضَايَ عَنْـهُ يُفَتِّـحُ كُـلَّ يـومٍ مِنْـهُ بَـابُ[38]

وَفِـي مِثْـلِ ذَلِـكَ[39]

نَـأَتْ سَلْمَـى وَشَطَّ بِهَـا المَـزَارُ فَأَوحَشَـتِ الْمَنَـازِلُ والدِّيَـارُ
وَرَامَ الصَّبْـرَ عَنْهَـا مَـنْ شَكَاهَـا بِقَلْـبٍ لاَ يَقِـرُّ بِـهِ قَـرَارُ

---

(35) في الديوان : جحر، وهو تصحيف مطبعي.
(36) الديوان : 6 وتقديمها كما يلي : «ومن نظمنا في الرثاء عند فقد من عزّ علينا فقده».
(37) في الديوان : والإياب.
(38) جاء في الديوان بعد نهاية القصيدة ما يلي : «إشارتنا إلى السّكن الذي قضى الله بوفاته وإن استأثر الله عز وجل على الإثر بابنه، والأمر لله سبحانه من قبل ومن بعد».
(39) الديوان : 73 — 74 والتقديم فيه كما يلي : «ونظمنا في الإشارة إلى سكن قربت وفاته من وفاة ولدنا على أثره».

تَخَيَّلَهَا وَجِنْحُ اللَّيْلِ رَاجٍ فَكَادَ اللَّيْلُ يَفْضَحُهُ النَّهَارُ
وَمِنْ عَجَبٍ مُنَاجَاةُ الأَمَانِي وَأَكْثَرُهُنَّ زُورٌ وَاغْتِرَارُ
تُمَنِّي إِذْ أُحَادِثُهَا بِرَكْبٍ وَأَهْلٍ وَدَّعُوا سَحَراً وَسَارُوا
أَقَمْتُ وَلاَ مُقَامَ لِمُسْتَهَامٍ تَصَبُّرُهُ اضْطِرَارٌ لاَ اخْتِيَارُ
وَإِنِّي اليُوسُفِيُّ أَباً وَجَدّاً مُلُوكٌ لاَ يُضَامُ لَهُمْ جُوَارُ
وَأَنَّى لِي بِسُكْنَى حَيِّ لَيْلَى وَلَمْ يَسْكُنْ لِفُرْقَتِهَا أُوَارُ(40)
نَظَرْتُ إِلَى ابْنِ مَنْ سَكَنَتْ ثَرَاهَا صَغِيراً لِلْكَبِيرِ بِهِ اعْتِبَارُ
فَقُلْتُ رِضَايَ عَنْهُ وَفَضْلُ رَبِّي وَسَائِلُ لاَ يَخِيبُ بِهَا انْتِصَارُ

من المُرْتَجَلِ والمَنْظُومِ، في الهَنَاءِ
بالسَّيِّدِ الأَمِيرِ عَلَى عَجَلٍ،
فَمِنْ ذَلك مَا ارْتَجَلَهُ الْوَزِيرُ الرَّئِيسُ
أَبُو بَكْرِ بنُ عَاصِمٍ وَصَلَ اللَّهُ عِزَّتَه(41)

طَلَعَ الْيَوْمَ فِي سَمَاءِ المَعَالِي بَدْرُ هَدْيٍ لَهُ صِفَاتُ الْكَمَالِ
وَتَجَلَّى مِنْ مَطْلَعِ الْمُلْكِ تَبْدُو مِنْ سَنَا وَجْنَتَيْهِ سِيمَا الجَلاَلِ
مَرِحَتْ إِذْ بَدَا الجِيَادُ ارْتِيَاحاً وَتَثَنَّتْ زَهْواً صُدُورُ العَوَالِي
وَالْوَرَى مِنْهُ بَيْنَ بِشْرٍ وَبُشْرَى حَالُهُمْ فِي السُّرُورِ أَحْسَنُ حَالِ
فَهَنِيئاً مَوْلاَيَ مِنْهُ بِنَجْلٍ لِلْمَعَالِي يَسْمُو سُمُوَّ الْهِلاَلِ

---

(40) هذا البيت غير موجود في الديوان.

(41) هو أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن عاصم الفقيه الأديب المعروف، وهو ناظم «التحفة» المشهورة وغيرها من الأراجيز التعليمية، ومن مؤلّفاته المطبوعة كتاب الحدائق، ويشتمل هذا المجموع على جملة من قصائده ومقطّعاته، ولد ابن عاصم الوالد بعد عام 760هـ وتوفي عام 829هـ وقد ولي عدداً من الخطط منها الكتابة السلطانية والوزارة وقضاء الجماعة، ترجمته واخباره في شرح التحفة لولده (مخطوط) وفي جنة الرضى 2 : 258، 3 : 57 ـــ 58، ونيل الابتهاج : 289 ـــ 290 وتوشيح الديباج : 126 ـــ 127 وكفاية المحتاج : 229 ـــ 230.

وارْتَجَلَ الشَّرِيفُ المُعَظَّمُ أَبُو العباس الحَسَنِي وَصَلَ اللَّهُ عِزَّتَه[42]

مَوْلاَيَ قَدْ عَمَّتِ الأَرضَ البِشَارَاتُ　　بِمَنْ لَهُ فِي العُلَى مِنْكَ الإِشَارَاتُ
وَلِيُّ عَهْدٍ أَتَى والنَّصْرُ يَقْدُمُهُ　　لَهُ عَلَى ذَاكَ لاَ تَخْفَى عَلاَمَاتُ
فَأَهْنَأْ بِهِ بَدْرَ تَمٍّ فِي سَمَاءِ عُلَى　　لَهُ بِسَعْدِكَ فِي الآفَاقِ آيَاتُ
والْعُذْرُ لِلْعَبْدِ فِيهِ إِنَّهُ كَلِمٌ　　جَاءَتْ بِهِ فَرَحاً مِنِّي البُدَاهَاتُ
فَدُمْتَ فِي دَوْلَةٍ غَرَّاءَ لَيْسَ لَهَا　　فِي كُلِّ مَا تَبْتَغِي حَدٌّ وَغَايَاتُ

وارْتَجَلَ الْفَقِيهُ الْوَزِيرُ أَبو محمد بن مَلِيح[43]

بُشْرَى أَتَتْ ضَاءَتْ بِهَا الأَقْطَارُ　　تَهْتَزُّ عِنْدَ سَمَاعِهَا الأَمْصَارُ
فَبِكُلِّ نَادٍ فِي الْبَسِيطَةِ بَهْجَةٌ　　وَلِكُلِّ وَجْهٍ فِي الدُّنَا اسْتِبْشَارُ
بِطُلُوعِ بَدْرٍ فِي سَمَاءِ خِلاَفَةٍ　　قَدْ أَثَّلَتْ عَلْيَاءَهَا الأَنْصَارُ

---

(42) هو أبو العباس أحمد ولد أبي القاسم الشريف السبتي الغرناطي المشهور، وترجمة أبي العباس هذا وأخباره في الكتيبة الكامنة : 301، ونيل الابتهاج : 76 ونفح الطيب : 5 : 198 ــ 199 وجنة الرضى : 1 : 173 ــ 174، 2 : 280 والمعيار : 3 : 32 ــ 35 وديوان ابن فركون : 250 ــ 251، 290.

(43) ورد ذكر أبي محمد بن مليح في شرح التحفة لأبي يحيى بن عاصم، وذلك عند قول الناظم :

وفي الأداء عِنْد قاضٍ حل في　　غير محلّ حُكْمه الخُلْفُ اقْتُفي

قال الشارح ولد الناظم : «وعلى ما ذهب إليه فقهاء طنيطلة العمل عند قضاة الجماعة بالحضرة إلا الشيخ أبا محمد بن مليح رحمه الله فإنّه لمّا ولي قضاء الجماعة في عام اثنين وثلاثين وثمانمائة تحرّج من ذلك ومنع القضاة من تعريفه بما يرد عليهم من مستخلفيهم» وثمة القاضي أبو عبد الله ابن مالك الألبيري شهر بابن مليح، وقد ورد ذكره أيضا في المصدر المذكور وفي نيل الابتهاج : 291 ويبدو من اسمه أنه غير من قبله، ومن هذه الأسرة فيما يبدو أبو القاسم المليح الذي كان له دور في تسليم غرناطة ويرد اسمه كثيراً في المصادر القشتالية، ومن هذه الأسرة أيضاً أبو الحسين محمد بن القاضي أبي الحسين بن مليح الذي خرج من غرناطة بعد استيلاء النصارى عليها وكان مرافقا لأحمد البلوى الوادى آشي في الهجرة، انظر الثبت ص 382.

وَلَكَ البِشَارَةُ يَا مُخَبِّرُ فَاحْتَكِمْ   فِيهَا بِمَا تَهْوَى وَمَا تَخْتَارُ
هُنئتَ يَا مولاَيَ أسْعَدَ قَادِمٍ   ستَقَرُّ ما شاءَتْ بِهِ الأَبْصَارُ
فَكأَنْ بِهِ قَدْ حَازَ كُلَّ فضيلةٍ   تَحْدُو بِطِيبِ حَدِيثِهَا السيَّارُ
وَتَرَاهُ بَيْنَ يَدَيْكَ مَعْ أعمَامِهِ   صَدْرَ الجُيُوشِ تَهَابُهُ الكُفَّارُ
لاَزِلتَ دَهْرَك بِالسُّعُودِ مُهَنَّئاً   مَا امْتَدَّتِ الآصَالُ والأَسْحَارُ

وَلِلْفَقِيهِ الْخَطِيبِ
أَبِي الْقَاسِمِ بنِ سَالِم(44) فِي ذَلِكَ

أَضَاءَ القُطْرُ بِالقَمَرِ السَّعِيدِ   بِنَجْلٍ فِي الْعُلَى مُبْدٍ مُعِيدِ
فَصُبْحُ الحُسْنِ وَضَّاحُ الْمُحَيَّا   وَدُرُّ الْيُمْنِ مُنْتَظِمُ العُقُودِ
لَقَدْ وَافَاكُمُ فِي خَيْرِ شَهْرٍ   وَأَطْلَعَهُ الزَّمَانُ بِلاَ نَدِيدِ
وَمَنْ يَكُ لِلإِمَامِ الفَذِّ نَجْلاً   سَيَعْلُو هِمَّةً بَدْرَ السُّعُودِ
وَيُحْرِزُ كُلَّ مَكْرُمَةٍ وَفَضْلٍ   وَيُدْرِكُ كُلَّ مَأْمُولٍ بَعِيدِ
أَلَيْسَ أَبُوه أَفْضَلَ مَنْ تَرَدَّى   رِدَاءَ الفَضْلِ والْفَخْرِ العتِيدِ
فَقَدْ مُلِئَتْ بِهِ الدُّنْيَا أَمَاناً   وَقَدْ سُرَّتْ بِهِ كُلُّ الوُجُودِ
وَأَصْبَحَ فِي الدُّنْيَا فَذّاً فَرِيداً   بَسِيطَ الفَخْرِ بِالجُودِ المَدِيدِ
صِفَاتٌ مَا حَوَاهَا الدَّهْرَ مَلْكٌ   فَمِنْ عَدْلٍ وَمِنْ شَرَفٍ عَدِيدِ
وَمِنْ فَضْلٍ وَمِنْ عَمَلٍ وَعِلْمٍ   وَمِنْ كَرَمٍ وَرَعْيٍ لِلْعُهُودِ
فَقُلْ جَذَلاً بِهِ أَهْلاً وَسَهْلاً   وَلاَ تَأْسَفْ عَلَى إِلْفٍ فَقِيدِ
فَحُكْمُ اللَّهِ لَيْسَ لَهُ مَرَدٌّ   وَلاَ دَفْعٌ بِبَأْسٍ أَوْ بِجُودِ
وَذَلِكَ مَوْرِدٌ فَرْضٌ وَحَتْمٌ   عَلَى كُلِّ الْخَلاَئِقِ بِالْوُرُودِ

---

(44) هل هو أبو القاسم محمد بن محمد بن محمد بن سماك بن عبد المنعم بن سالم ؟ لا نستطيع تأكيد ذلك، لأن أبا القاسم المذكور يعرف بابن سماك، وان كان اسم سالم موجوداً في أجداده الأعلين كما رأينا. وأبو القاسم هذا هو مؤلف كتاب «الحلل الموشية» وكتاب «الزهرات المنثورة» وله ترجمة في الكتيبة الكامنة : 299 — 301. راجع في مقدمة الزهرات لمحققها الدكتور محمود علي مكي.

هُو الْمَوْتُ الَّذِي لاَبُدَّ مِنْهُ   لأَحْرَارِ الخَلاَئِقِ وَالْعَبِيدِ
وَمِثْلُكَ مَنْ حَوَى دِيناً وَعِلْماً   يُسَلِّي النَّفْسَ بِالصَّبْرِ الحَمِيدِ
بَقِيتَ مُبَلَّغاً فِي النَّفْسِ أَسْنَى   مُرَادٍ ثُمَّ فِي النَّجْلِ السَّعِيدِ
وَأُجْزِلْتَ الثَّوَابَ عَلَى فَقِيدٍ   وَعُوِّضَ دَارُهَا دَارَ الخُلُودِ
أَمَوْلاَنَا إِلَيْكَ نَفِيسَ حُبِّي   وَصِدْقُ الحُبِّ تَكْمِلَةُ الْقَصِيدِ

وَفِي ذَلِكَ لِلْقَائِدِ المُرَفَّع
أَبِي يَحْيَى ابْنِ الْوَزِيرِ الرَّئِيسِ
أَبِي بَكْرِ بْنِ عَاصِم[45]

اللَّهُ أَكْبَرُ وَجْهُ النَّصْرِ قَدْ سَفَرَا   وَنُورُهُ لِضِيَاءِ العَقْلِ قَدْ بَهَرَا
فَلْيَهْنِ دِينَ الهُدَى نَجْلٌ لِنَاصِرِهِ   فِي طَالِعِ الْيُمْنِ والإسْعَادِ قَدْ ظَهَرَا
وَلْتَهْنِنَا مَعْشَرَ الإِسْلاَمِ طَلْعَتُهُ   فَإِنَّ مِنْ بِشْرِهَا نَسْتَوْهِبُ الدُّرَرَا
بُشْرَى تَعُمُّ جَمِيعَ الخَلْقِ نِعمَتُهَا   يَتْلُو الزَّمَانُ عَلَيْهَا آيَهَا سُوَرَا
تَهْتَزُّ بِيضُ سُيُوفِ الْهِنْدِ مِنْ فَرَحٍ   لِكَفِّ مَنْ جُودُهُ قَد أَخْجَلَ الْمَطَرَا
وَتَمْرَحُ الْخَيْلُ شَوقاً فِي مَرَاتِعِهَا   لِمَنْ أَبُوه حِمَى الإِسْلاَمِ قَدْ نَصَرَا
كَأَنْ بِنَجْلِكَ يَا مَوْلاَيَ قَدْ بَلَغتْ   بِهِ صِفَاتُ المَعَالِي الأَنْجُمَ الزُّهُرَا
كَأَنْ بِكَفَّيْهِ بِالإِنْعَامِ قَدْ وَكَفَتْ   فَعَمَّ صَوْبُ نَدَاهَا البَدْوَ والْحَضَرَا
كَأَنْ بِهِ وَجُيُوشُ الرُّعْبِ تَقْدُمُهُ   يُزِيلُ مِنْ ظُلَمِ الإِشْرَاكِ مَا غَمَرَا
كَأَنْ بِهِ يَقْتَفِي آثَارَ أُسْرَتِهِ   بِالْحَقِّ مُقْتَدِياً لِلَّهِ مُؤْتَمِرَا
كَأَنْ بِهِ وَمُلُوكُ الأَرْضِ قَاطِبَةً   تَرْجُوهُ مُصْطَنِعاً تَخْشَاهُ مُقْتَدِرَا

(45) هو ولد القاضي ابن عاصم ناظم التحفة المذكور آنفاً، وله ترجمة في مصادر متعددة، وقد طبع كتابه «جنّة الرضا» أخيراً في الأردن، وله شرح مخطوط على تحفة والده، وتأليف «مفقود» هو «الروض الأريض»، وينبغي أن يكون ابن عاصم قال هذه القصيدة وهو صغير السن لأننا نجده عندما سجن والده عام 814هـ يقول : «وكنت إذذاك في زمن الحداثة وعدم استحكام العقل» جنة الرضا 2 : 204 راجع في ابن عاصم هذا مقالة عن بني عاصم للأستاذ لويس سيكودي لوثينا ومقدمة محقق جنة الرضا الدكتور صلاح جرار.

كَأَنْ بِهِ فِي جَمِيعِ الْمَكْرُمَاتِ وَقَدْ ... جَلَّ آعْتِلاَءً عَنِ الأَشْبَاهِ وَالنُّظَرَا
مَولاَيَ هُنِّئْتَ هذا النَّجْلَ إِنَّ بِهِ ... تَجْنِي من الفَتْحِ غَضّاً يَانِعاً ثَمَرَا
هِلاَلُ سَعْدٍ يُتِمُّ آللَّهُ بَهْجَتَهُ ... حَتى تَرَاهُ بِحَوْلِ آللَّهِ مُقْتَدِرَا
فَأَنْتَ شَمسُ الهُدَى والمُلْكُ مَطْلِعُكُمْ ... لاَ غَرْوَ أَنْ أَنْتجَتْ أَنوارُكَ الْقَمَرَا
أَنْسَى سَمَاحُكَ مَأْمُوناً وَمُعْتَصِماً ... وَبَأْسُ سَيْفِكَ مَنْصُوراً وَمُنْتَصِرَا
كَآلْغَيْثِ إِنْ طَلَعتْ بِالسَّعْدِ أَنْجُمُهُ ... هَمَى عَلَى الخَلْقِ مِنْهُ الجُودُ وانْهَمَرَا
كَآللَّيْثِ يَزْدَادُ بالأَشْبَالِ وَهْيَ بِهِ ... بَأْساً وَإِنْ لَمْ يَزَلْ بِآلْبَأْسِ مُشْتَهِرَا
لاَزِلْتَ وَالْفَتْحُ قَد قَسَّمْتَ أَزْمُنَهُ ... فَمَاضِياً ثُمَّ حالاً ثُمَّ مُنْتَظَرَا
فَهَذِهِ نِعْمَةٌ قَدْ جَلَّ موقِعُهَا ... وَمِنَّةٌ عَظُمَتْ مَرْأًى وَمُخْتَبَرَا
فاشْكُرْ إِلاَهَكَ حَقَّ الشُّكْرِ مجتهدا ... فَآللَّهُ يُؤتِي المَزِيدَ الْعَبدَ إِنْ شَكَرَا

وارْتَجَلَ الكَاتِبُ الأَبْرَعُ أَبُو عَبْدِ آللَّهِ الشران[46]

هِلاَلٌ بِأُفْقِ الْمُلْكِ لاَحَتْ سُعُودُهُ ... سَتُنْجِزُ مِنْ أَمْنِ اللَّيَالِي وُعُودُهُ
تَطَلَّعَ فَرْعاً فِي الخِلاَفَةِ يَانِعاً ... تُغَذِّيهُ أَخْلاَقُ الرِّضَى وَتَجُودُهُ
وأَقْبَلَ والإِقْبَالُ يَقْدُمُ ذَاتَهُ ... وَيُورِدُ مَأْمُولَ الْفُتُوحِ وُرُودُهُ
وَهَلْ هُوَ إِلاَّ نَجْلُ سَعْدٍ بِنَجْمِهِ ... يُجَدِّلُ مِنْ حِزْبِ الضَّلاَلِ مَرِيدُهُ
وَهَلْ هُوَ إِلاَّ شِبْلُ بَأْسٍ قَدِ انْتَمَى ... لِمُلْكٍ وَقَتْ صَرْفَ الزَّمانِ أُسُودُهُ
عَجِبْتُ إِذَا يُهْدَى إِلَى الْمَهْدِ بَدْرُهُ ... وَمَا غَيْرُ آفَاقِ السُّرُوجِ مُهُودُهُ
أَمَوْلاَيَ أَمَّا دَهْرُنَا بِوُجُودِكُمْ ... فَعِيدٌ سَعِيدٌ لَيْسَ يَبْلَى جَدِيدُهُ
مواسِمُ عن ثَغْرِ السُّرُورِ بَوَاسِمٌ ... وَجُودٌ إِلَى حيثُ اتَّجَهْنَا وُجُودُهُ
فَبُشْرَاكَ بالنَّجْلِ الكَرِيمِ الَّذِي غَدَا ... بِهِ الدَّهْرُ يُبْدِي بِشْرَهُ وَيُعِيدُهُ

(46) هو محمد بن إبراهيم الشرّان الفقيه الكاتب الشاعر الغرناطي. كان حيًا سنة 837هـ له أرجوزة في الفرائض شرحها القلصادي قديماً وشرحها سيدي محمد العلمي حديثاً. توجد ترجمته وأخباره في نيل الابتهاج : 311 وأزهار الرياض 1 : 116، 133، 145 ورحلة القلصادي : 43 وجنّة الرضى 3 : 70 وشجرة النور الزكية : 248 وروضة الاعلام : 172 مخطوط الخزانة الحسنية.

هَمَتْ دِيمَةُ النُّعْمَى بِهِ فَوْقَ روضِنَا فَـرَاقَتْ مَجَالِيــهِ وَأُوْرَقَ عُـــودُهُ
فَبُلِّغْتَ فِيـهِ قُـرَّةَ الْعَيْـنِ مِثْلَمَــا تُرِيـدُ فَكُـلُّ الخيـرِ فِيمَــا تُرِيــدُهُ
وَصَفْحَكَ يَا مَوْلاَيَ عَن عَبْدِكَ الَّذِي لِصَفْحِكَ عَنْهُ فِي القُصُورِ قُصُودُهُ
أَتَيْتُ بِهَـا مِنِّـي بَـدِيهاً وَقَلَّمَــا أَرَى لِقُصُورِي فِي النِّظَامِ أُجِيـدُهُ

وارْتَجَلَ مَمْلُوكُ مَوْلاَنَا نَصَرَهُ آللَّه
أَبُو الْحُسَيْن بنُ فُرْكُون كَاتِبُ هَذَا(47)

هَنِيئاً بِهِ مِنْ عَالَمِ الكَوْنِ وَافِداً فَقَدْ بَلَغَ الإِسْلاَمُ فِيـهِ المَقَـاصِدَا
فَلاَزَالَ رَبُّ الْعَرْشِ جَـلَّ جَلاَلُـه يُرِيكَ مِن الصُّنْعِ الجَمِيلِ عَوَائِدا
لَقَدْ سُلَّ فِي الأَعْدَاءِ مِنْهُ مُشَهَّرٌ تَرَاهُ بِسيـفِ آللَّـهِ فِيهِـمْ مُجَاهِـدَا
يُجَـدِّلُ عُبَّـادَ الصَّلِـيبِ مُؤَيَّــداً ويعْمُـرُ للدِّيـنِ الْحَنِيـفِ مَسَاجِــدَا
وَيُرْسِلُهَـا فِـي القَاصِدِيـنَ مَوَاهِبــاً فَتَعْمُــرُ مِنْهُــنَّ العُهُــودَ المَعَاهِــدَا
ونحنُ العبيــدُ الكَاتِبــونَ جَمِيعُنَــا يُنَظِّـمُ فِيــهِ مِــنْ حُــلاَهُ فَرَائِــدَا
وَنَبْلُـغُ مِـنْ أَوْصَافِـه كُـلَّ غَايَــةٍ يَنَالُ بِهَا الْمَدْحُ الْمَدَى الْمُتَبَاعِـدَا
أَمَـا لِوَلِـيِّ العَهْـدِ مِـنْكَ شمائِــلٌ لَهَا صِلَـةٌ بِالْجُـودِ تُعْقِـبُ عَائِـدَا
أَمَـا لِوَلِـيِّ العَهْــدِ غُــرٌّ مَخَائِــلٍ تُؤَمِّــنُ مُرْتَاعــاً وَتُسْعِــفُ رَائِــدَا
بَشَائِرُ ظِلِّ العِزِّ تُضْفِيهِ سَجْسَجاً(48) وَتُصْفِـي لِـقُصَّادِ النَّـوَالِ مَــوَارِدَا
بَقِـيتَ لأَمْــلاَكِ الزَّمَــانِ مُؤَمَّـــلاً وَمُتِّعْتَمَـا بِالمُــلْكِ نَجْــلاً وَوَالِــدَا

(47) راجع ما كتبناه عن أبي الحسين بن فركون في مقدمة ديوانه الذي حققناه ونشرته أكاديمية المملكة المغربية.
(48) في الحديث : ظلّ الجنّة سجسج أي لا ظلمة فيه ولا شمس.

وَفِي يَوْمِ الْمَـوْسِمِ الْمَشْهُـودِ
وَإِجْـرَاءِ عَوَائِـدِ الْكَـرَمِ وَالْجُـودِ
وَعَـقِـيـقَــةِ هَــذَا الْمَـوْلُـــودِ
أَنْشَدَ الْوَزِيرُ الرَّئِيسُ أَبُو بَكْرِ بنِ عَاصِمٍ
وَصَلَ ٱللَّهُ عِزَّتَه وَوَالَى مَبَرَّته وَرِفْعَتَه(49)

هَنَاءٌ كَمَا رَاقَ العُيُونَ سَنَى الفَجرِ وَإلاَّ كَمَا افتَرَّ الكِمَامُ عَنِ الزَّهْرِ
وَبُشْرَى يَسُرُّ العالمِيـنَ سَمَاعُهَـا وَتُضْحِي بِهَا الأَيَّامُ وَاضِحَةَ البِشْرِ
بِفَرعٍ سَمَا فِي دَوْحَةِ الْمَجْدِ وَالعُلاَ وَبَدْرٍ بَدَا مِنْ مَطْلَعِ الشَّرَفِ النَّصْرِي
بِبُغْيَةِ نَفْسِ الدِّينِ والعلمِ والتُّقَـى وَقُرَّةِ عَيْنِ المُلْكِ وَالمَجْدِ والدَّهْرِ
تَهَلَّـلَتِ الدُّنْيَـا سُرُورا بِكَوْنِـهِ وأصبحَ منه الدِّيـنُ مُبتَسِمَ الثَّغْـرِ
وإنَّ زَمَانـاً سَرَّنَـا بِوُجُـودِهِ لَمُسْتَأْهِلُ الإِكْرام مُسْتَوجِبُ الشُّكْرِ
أَتَانَا بِهَا نُعْمَى تَعَاظَمَ قَدرُهَـا كَمَا عظُمَتْ فِي جِنْسِهَا ليلةُ الْقَدْرِ
أَلَذُّ من الْمَاءِ الزُّلاَلِ عَلَى ظَمـا وَأَعْذَبُ مِن وَصْلٍ مُتَاحٍ عَلَى هَجْرِ
فَلِلدِّيـنِ والدُّنيـا ارتيـاحٌ وبهجـةٌ بِطَلْعَتِـه الغَـرَّا ومَقْدَمِـهِ البَـرِّ
وما هُوَ إلاَّ البَـدْرُ بَـدْرُ هِدَايـةٍ تَجلَّى إلى الأَبصَارِ فِي أُفقِ النَّصْرِ
تَقَـرُّ بِـه عيـنُ الخليفـةِ يـوسُفٍ أَعـزِّ سلاطيـنِ البَسيطَـةِ والـعَصْرِ
كَما قَرَّ عَينُ الدِّينِ مِنْهُ بِنـاصِرٍ بِهِ أَمِنَ الإِسْلاَمُ من صَوْلَةِ الكُفْرِ
مَلِيكٌ تَسَامَى قَـدْرُهُ عـن مُشَابِـهٍ وَأَوْصَافُهُ جَلَّتْ عن العَدِّ والحَصْرِ
بِهِ عَادَ شِنِّيلٌ عَلَى النِّيـلِ مُرْبِيـاً وَغَرْناطَةُ الغَرَّاءُ تُزْهَى عَلَى مِصْرِ(50)
أَقَامَ مَقَامَ المُلْكِ بِالبَأْسِ والنَّـدَى وَشَادَ عِمَادَ المُلْكِ بِالبِيضِ والسُّمْرِ
وَأَظْهَرَ حُكْمَ العدْلِ عَنْ صِدْقِ نِيَّةٍ قَد أَخْلَصَهَا لِلَّهِ فِي السِّرِّ والجَهْرِ

---

(49) تقدّم ذكره.

(50) شنيل Genil نهر متفرع من الوادي الكبير تسقى به الجنات الواقعة خارج غرناطة، وقد تغنّى به الشعراء وذهبوا إلى تفضيله على النيل مستغلين حرف ش التي تساوي ألفاً من العدد، فكأنّ شنيل ألف نيل. انظر مقدمة الإحاطة.

وَحَازَ صفاتِ الحِلمِ والعلمِ والتُّقى ... وأَوْضَحَ سُبْلَ الحَقِّ والرُّشْدِ والبِرِّ
لَهُ شِيَمٌ كالرَّوْضِ بَاكَرَهُ الْحَيَا ... وَذِكْرٌ جَمِيلٌ دُونَهُ نَفْحَةُ الزَّهْرِ
وأَفْعَالُ بِرٍّ خَالِصَاتٌ لِرَبِّهِ ... تُخلِّدُ فِي الدُّنيا لَهُ أَجملَ الذِّكْرِ
مَناقِبُهُ الغُرُّ النُّجُومُ لِمُهْتَدٍ ... وَفِيهِنَّ أَحياناً رُجُومٌ لِمُغْتَرِّ
يُرِيكَ ابتسَامَ الزُّهْرِ فِي غَسَقِ الدُّجَى ... وَيُنْسِيكَ عَرْفَ الزَّهْرِ فِي أَثَرِ الْقَطْرِ
وَكَمْ مِن غَرِيبٍ قد تَأَهَّلَ عِندَهُ ... وَمِن مُعْسِرٍ مِنْ جُودِهِ عَادَ ذَا يُسْرِ
فَآمَنَ مِنْ خَوْفٍ وَأَنْجَى مِنَ الرَّدَى ... وَأَطْعَمَ مِن جوعٍ وَأَغْنَى مِنَ الفَقْرِ
وكَمْ مِن قِبابٍ لِلسَّمَاحِ أَعَدَّهَا ... تُسَامِي عُلُوّاً مَطْلِعَ الأَنْجُمِ الزُّهْرِ
تَلُوحُ بِهَا نَارُ الهِدَايَةِ والْقِرَى ... لإِرْشَادِ مُسْتَهْدٍ وإِطْعَامِ مُسْتَقْرِ
وَيَقْصِدُهَا مَنْ يَبْتَغِي العِزَّ والنَّدَى ... فَيَحْظَى بِمَا يَبْغِي مِن الجَاهِ والْوَفْرِ
وَهَلْ هُوَ إِلاَّ رَحمةُ اللَّهِ لِلْوَرَى ... أَماناً لِمَذْعُورٍ وَغَوْثاً لِمُضْطَرِّ
وَمَأْوىً لِمَطْرُودٍ وَمَنْجىً لِخَائِفٍ ... وَلَيْثاً لِمُعْتَرٍّ وَغَيْثاً لِمُعْتَرِّ
نَمَتْهُ لِنَصْرٍ نِسْبَةٌ خَزْرَجِيَّةٌ ... فَأُورِثَ نَصْرَ الحَقِّ والْخَلْقِ مِنْ نَصْرِ[51]
عَلَيْهِ مِن الأَنْصارِ سِيمَا جَلالَةٍ ... يَلوحُ بهَا نُورُ الطَّلاَقَةِ والبِشْرِ
وَما شِئْتَ مِنْ حِلْمٍ وَمَا شِئْتَ مِن تُقىً ... وَمِن هِمَّةٍ عَلْيَا وَمِنْ شِيَمٍ غُرِّ
وَهَيْبَةِ مُلْكٍ فِي سَمَاحَةِ رَأْفَةٍ ... كَإِيمَاضِ بَرْقٍ عِنْدَ مُنْهَمِلِ القَطْرِ
هَنِيئاً لِمولانَا طُلُوعُ ابْنِه الرِّضَا ... هِلالاً لِمُسْتَجْلٍ وَنَجْماً لِمَن يَسْرِي
تَثَنَّتْ لَهُ سُمْرُ القَنَا فرحاً بِهِ ... كَمَا يَتَثَنَّى مَعْطِفُ الْغُصُنِ النَّضْرِ
وَأَبْدَتْ إِلَيْهِ الصَّافِنَاتُ[52] ارْتِيَاحَهَا ... كَذِي طَرَبٍ مالَتْ بِه نَشْوَةُ الخَمْرِ
فَقَدْ عَلِمَتْ أَنْ سَوْفَ يَرْقَى سُرُوجَها ... فَتَمْتَازُ بالعِزِّ المُؤَمَّلِ والفَخْرِ

---

(51) هو الجد الأعلى للنصريين وهو نصر بن قيس الخزرجي الأنصاري من ولد أمير الأنصار سعد بن عبادة. قال ابن الخطيب في اللمحة البدرية والإحاطة : «وقد صنّف الناس لهم في اتصال بيتهم بقيس ابن سعد بن عبادة رضي الله عنه غير ما تصنيف».

(52) الصّافنات جمع صافن، وهو الفرس الذي يقوم على ثلاث قوائم، وفيه يقول الشاعر :

أَلِفَ الصُّفُونَ فلايزالُ كأنّهُ ... ممّا يقومُ على الثلاثِ كَسِيرا

وَقَدْ أَيْقَنَتْ أَنْ سَوفَ يُدْنِي مَحلَّهَا لِيَوْمِ طِرَادٍ أَوْ جِهَادِ أُوْلِي الكُفْرِ
كَأَنِّي بِهِ تُعْنَى المُلُوكُ بِقَصْدِهِ تَخافُ وَتَرجُو حَالَي النَّفعِ والضُّرِ
كَأَنِّي بِهِ يَغْزُو بِلاَدَ عُدَاتِهِ وَيَشْمَلُ مَنْ فِيهِنَّ بِالقَتْلِ والأَسْرِ
كَأَنِّي بِهِ تَأْتِي الرِّكَابُ لِبَابِهِ لِتَقْبِيلِ كَفِّ الجُودِ واليُمْنِ واليُسْرِ
كَأَنِّي بِهِ تَغْشَى الوُفُودُ مَحَلَّهُ وَتَصْدُرُ عَنْهُ في ثَنَاءٍ وَفِي شُكْرِ
يَميناً بِمَا قَد حَازَ مِن باهِرِ السَّنَا وَمِنْ شِيَمِ الرُّحْمَى وَمِنْ رِفْعَةِ القَدْرِ
لَقَد شَرَّفَ ٱللَّهُ الوَرَى بِوجُودِهِ وَعَمَّ بِهِ التَّأْمِينُ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ
وَلَمَّا حَبَاكَ ٱللَّهُ من عِلْمِ غَيْبِه بِمَا شَاءَ مِنْ مَنْحٍ خَطِيرٍ وَمِن ذُخْرِ
قَرَرْتَ بِهِ عَيْناً كَما شَاءَتِ الْعُلَى وَقَابَلْتَ نُعْمَى ٱللَّهِ بالحمدِ والشُّكْرِ
وَوَفَّيتَ من صُنعِ العَقِيقَةِ سُنَّةً وَقَصْدُكَ إِحْرَازُ المثوبَةِ والأَجْرِ
وَأَوْلَيْتَ كُلَّ النَّاسِ فِيهَا مَوَاهِباً هِيَ القَطْرُ لاَ تُحْصَى بِعَدٍّ وَلاَ حَصْرِ
أَمَوْلاَيَ قَدْ حُزْتَ الكمالَ فما يَفِي بِمَدحِ حُلاَكَ الغُرِّ نَظْمِي وَلاَ نَثْرِي
أَنَا عَبْدُ نُعْمَاكَ ٱلَّتِي أَنْطَقَتْ فَمِي وَلَكِنَّهَا مَعْ ذَاكَ قَدْ أَعْجَزَتْ شُكْرِي
فَإِنْ أَنَا وَفَّيْتُ امْتِدَاحَكَ حَقَّهُ فَآثَارُ نُعْمَى أَنْطَقَتْنِيَ بِالشِّعْرِ
وإِنْ لَمْ يُوفِّ النَّظْمُ مَا تَسْتَحِقُّهُ فَإِنَّ الَّذِي قَرَّرْتُهُ مُوضِحٌ عُذْرِي
فَدُمْ فِي أَمَانٍ واتِّصالِ مَسَرَّةٍ وَمُلْكٍ عَزِيزٍ نَافِذِ النَّهْيِ وَالأَمْرِ
وَسَيْفُكَ سَيفُ ٱللَّهِ في مُلْتَقَى الْوَغَى كَفِيلٌ لِدِينِ ٱللَّهِ بِالعِزِّ والنَّصْرِ

وَأَنشدَ الشَّرِيفُ الْمُعظَّمُ أَبُو العَبَّاسِ الحَسَنِي وصلَ ٱللَّهُ سعادَتَه، وَحَفِظَ مَجادتَه[53]

أَمَانٌ وَيُمْنٌ فِي البَسِيطَةِ قَدْ بَدا وَهَدْيٌ بِهِ دِينُ الهُدَى قَدْ تَمَهَّدَا
وَمَا الْهَدْيُ إِلاَّ هَدْيُ يُوسُفَ إِنَّهُ إِمَامٌ إِلَى سُبْلِ السَّعَادَةِ أَرْشَدَا
أَنَاصِرَ دِينِ ٱللَّهِ والْمَلِكَ الَّذِي له العَزَمَاتُ المَاضِيَاتُ عَلَى العِدَى

---

(53) تقدّم ذكره.

لَكَ اللَّهُ مِنْ مَوْلًى أَنَافَ عَلَى السُّهَا ... بِأَعْظَمَ مِمَّا قَدْ عَلِمْنَا وَأَزْيَدَا
أَعَزَّ بِهِ اللَّهُ البِلاَدَ وأَهلَهَا ... وَأَعْلَى بِهِ الدِّينَ الحَنِيفَ وَأَيَّدَا
وَبُشْرَى لأَوْطَانِ الجِهَادِ فَإِنَّهَا ... تَسَامَتْ بِهِ قَدْراً وَطَالَتْ بِهِ يَدَا
فَلِلْكُفْرِ قَلبٌ خَافِقٌ مِنْ حُسَامِهِ ... يُقَلَّبُ ذُعْراً كُلَّمَا رَاحَ واغْتَدَى
يُجَاهِدُ فِي ذَاتِ الإِلاَهِ بِنَفْسِهِ ... فَيَصْدُرُ منصورَ اللِّوَاءِ مُؤَيَّدَا
وَيُعْطِي العَطَاءَ الْجَزْلَ في كُلِّ وِجْهَةٍ ... فَكَفَّاهُ لِلْعَافِينَ بَحْرَانِ لِلنَّدَى
يَمِيناً بِمَنْ حَطَّ الرِّكَابَ بِطَيْبَةٍ ... لِيَحْظَى بِأَنْ زَارَ النَّبِيَّ مُحَمَّدَا
لَقَدْ صَارَ فِي آلأَمْلاَكِ[54] وآللَّهُ شَاهِدٌ ... بِمَا نَالَ مِنْ شَتَّى الْمَكَارِمِ أَوْحَدَا
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ إِلاَّ العُلُومُ فَإِنَّهَا ... لَوَقْفٌ عَلَى مَا حَازَ مِنْهَا مِنَ الْمَدَى
أَفَادَ وَلَمْ يَمْنُنْ جَوَاهِرَ حِكْمَةٍ ... عَلَى كُلِّنَا تَنْثَالُ مَثْنَى وَمَوْحَدَا
إِلَيْهِ انْتَهَى صِيتُ الْمُلُوكِ وَعِزُّهَا ... وَعَنْهُ حَدِيثُ الْفَخْرِ رَوَوْهُ مُسْنَدَا
وَمَنْ كَأَبِي الحَجَّاجِ فِيهِمْ خَلِيفَةٌ ... يَرُوحُ وَيَغْدُو نَاصِراً مِلَّةَ الْهُدَى
وَمَنْ كَأَبِي الحَجَّاجِ بَدرُ خِلاَفَةٍ ... بِهِ فِي الدَّيَاجِي المُدْلَهِمَّاتِ يُهْتَدَى
وَمَنْ كَأَبِي الحَجَّاجِ لِلْقُطْرِ رَحْمَةٌ ... أَقَالَ بِهَا آللَّهُ العِثَارَ مِنَ الرَّدَى
وَمَنْ كَأَبِي الحَجَّاجِ لِلْخَلْقِ حافِظٌ ... يَسُوسُهُمُ بِالْعِلْمِ والدِّينِ سَرْمَدَا
ومن كَأَبِي الحَجَّاجِ مَظْهَرُ سُؤْدَدٍ ... إِذَا مَا بَدَا لَمْ يُبْقِ لِلْغَيْرِ سُؤْدَدَا
لِيَقْفُوَ نَهْجَ الغُرِّ مِنْ آلِ خَزرجٍ ... وَحَسْبُكَ مِنْ سَعْدٍ[55] إِمَاماً وَسَيِّدَا
هُمُ الْقَوْمُ أَنْصَارُ النَّبِيِّ وَنَصْرُهُم ... أَبَى آللَّهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مُؤَيَّدَا
كِرامُ المَسَاعِي خَزْرَجِيُّونَ طَالَمَا ... سَمَا لِلْمَعَالِي طِفْلُهُمْ مُذْ تَوَلَّدَا
وَلاَ مِثْلَ مَنْ أَنْجَبْتَ نَجْمَ هِدَايَةٍ ... مُنِيراً بِآفَاقِ الخِلاَفَةِ قَدْ بَدَا
فَيَهْنِيكَ مَوْلُوداً إِلَيْكَ أَتَتْ بِهِ ... مِنَ المَلإِ الأَعْلَى سُعُودُكَ وُفَّدَا
عَلَى آلطَّائِرِ الْمَيْمُونِ وَافَاكَ مُقْبِلاً ... بِطَالِعِ سَعْدٍ مُتْبَعاً بَعْدُ أَسْعُدَا[56]

---

(54) الاملاك : الملوك.

(55) يقصد سعد بن عبادة سيد الخزرج.

(56) أسعد جمع سعد والمقصود بالأسعد الكواكب العشرة التي يقال لكل واحد منها سعد كسعد السعود مثلا.

فَبُــورِكَ مَوْلُـوداً وَبُــورِكَ مَوْلِــدَا لأَمْثَالِهِ مَوْلاَيَ قَدْ جَاءَ رَائِـداً
فَيَمْـلِكُ أَحْـرَاراً وَيُعْتِــقُ أَعْبُــدَا تَلُوحُ عَلَيْهِ مِنْ عُـلاَكَ مَشَابِــهٌ
أَلَـمْ تَـرَهُ لِلعِزِّ والشَّرَفِ ارْتَـدَى تَعَاظَمَتِ الـبُشْرَى بِأَكْــرَمِ وَارِدٍ
وَيَجْرِي إِلَى الغَايَاتِ بِالسَّبْقِ مُفْرَدَا تَقَـرُّ بِهِ عَيْـنُ الخِلاَفَـةِ والعُلَــى
لِمَا رَامَهُ مِنْهُ رِضاً مِنْكَ مُنْجِدَا وَيَنْهَضُ فِي شَأْنِ الجِهَادِ مُقَدَّمـاً
مُعَفَّرَةً فِي أَبْطَحِ الأَرْضِ سُجَّدَا يُغَادِرُ هَامَاتِ العِدَى غَرْبُ سَيْفِهِ
تَرَفَّعَ قَـدْراً حِيـنَ عَـزَّ مُقَلَّـدَا وَدُونَكَهَـا مَـوْلاَيَ دُرّاً مُنَظَّمــاً
لَتَطْلُبُ صَفْحاً لَـمْ يَـزَلْ مُتَعَـوَّدَا قَضَيْتُ بِهَا حَـقَّ الهَنَـاءِ وَإِنَّهَــا
لأَنْــدَلُسٍ دَارِ الجِهَــادِ مُمَهِّــدَا بَقِيتَ كَما تَهْوَى الْمَعَالِي وَتَرْتَضِي
وَدَامَ لَكَ الْمُـلْكُ الرَّفِيـعُ مُخَلَّـدا وَدَامَ لَكَ الـنَّصْرُ العَزِيـزُ مُـؤَازِراً

وَأَنْشَدَ عَبْـدُ مَقَامِـهِ الْكَرِيــمِ
الشَّيْخُ أَحْمَدُ بْنُ فُرِكُونِ القُرَشِي(57)

إِلاَّ الْكَفِيـلُ لَهَـا بِعِـزةِ شَانِهَــا مَـنْ لِلْخِلاَفَـةِ واقْتِبَــالِ زَمَانِهَــا
بِمُجِيلِ خَيْلِ آللَّهِ فِـي مَيْدَانِهَــا الـنَّاصِرُ الْمَـلِكُ الْمُهَنَّــأُ مُلْكُــهُ
فِعْلَ الرِّيَاحِ الهُوجِ فِي كُثْبَانِهَـا حَيْثُ الصَّبَا تَهْفُو فَتَفْعَلُ بالعِـدَى
أَبْطَالُهَــا تَرْتَــاحُ مِــلْءَ عِنَانِهَــا بِكَ أَيُّهَا المَوْلَى وبِالنَّجْلِ الـرِّضَا
بِآلْمُحْكَـمِ المَتْلُـوِّ مِـنْ فُرْقَانِهَـا فَرْعُ الإِمَامَةِ فِي الهِدَايَـةِ يَقْتَـدِي
بِأَدِلَّــةٍ تُغْنِـيكَ عَــنْ بُرْهَانِهَــا فَكَأَنْ بِهِ يُعْطِي الإِمَـارَةَ حَقَّهَـا
تُلْقِي لَدَيْهِ الجُهْـدَ مِنْ إِمْكَانِهَـا وَيَـرَى مُجَاهِـدَةَ الفَـوَارِسِ نُزَّعــاً
أَثْنَــاءَ مُرْهَفِهَــا وَحَــدِّ سِنَانِهَــا لاَ تَنْثَنِي عَنْ أَنْ تُجَاوِزَ حَدَّهَـا

(57) هو والد أبي الحسين جامع هذه الأمداح وصاحب الديوان الذي قمنا بنشره، وأحمد بن فركون هذا هو حفيد قاضي الجماعة أحمد بن فركون، اشتغل بالكتابة في البلاط النصري منذ عهد الغني بالله، وولي القضاء في الأقاليم، ترجمته في الإحاطة 1 : 220 والكتيبة الكامنة : 305 ونفح الطيب : 7 : 287.

والصَّافِنَاتُ الغُرُّ يَكْفِي عَدْوُهَا ... فِئَةَ الغُرُورِ وَمُقْتَضَى عُدْوَانِهَا
لَكَ أَيُّهَا المَوْلَى المُؤَيَّدُ يَنْتَمِي ... فِي نِسْبَةِ الصُّرَحَاءِ مِنْ قَحْطَانِهَا
وَضَحَتْ لَهُمْ فِي ٱلْخَافِقَيْنِ مَآثِرٌ ... آثَارُهَا قَامَتْ مَقَامَ عِيَانِهَا
وَمُبَلِّغُ النَّبَإِ الْيَقِينِ مُصَدِّقٌ ... أَنَّ الْعُلَى بِكَ فِي أَعَزِّ مَكَانِهَا
مُتَوَقِّلاً[58] دَرَجَاتِ آفَاقِ الْهُدَى ... مُسْتَصْحِباً مَا رَاقَ مِنْ شُهْبَانِهَا
حَتَّى الْمُلُوكُ بِمَغْرِبٍ وَبِمَشْرِقٍ ... أَنْتَ الْمُجَلِّي يَوْمَ خَصْلِ رِهَانِهَا
لاَ يَسْكُنُ الرَّوْعُ الْمُلِمُّ بِأَرْضِهِمْ ... حَتَّى تَرَى الإِسْلاَمَ مِنْ سُكَّانِهَا
والخَاسِرَاتُ عَنِ الْوُجُوهِ تَلَهُّباً ... قَدْ جَفَّ مَاءُ الدَّمْعِ فِي أَجْفَانِهَا
وَجَرَى نَجِيعُ الْمُلْحِدِينَ مَوَارِداً ... تَتَوَارَدُ الظَّمْأَى عَلَى جَرَيَانِهَا
والنَّاصِرِيَّةُ دَوْلَةٌ قَدْ جَدَّلَتْ ... أَعْدَاءَهَا بِضِرَابِهَا وَطِعَانِهَا
وَعَلِيُّهَا السَّامِي ٱلْعَلاءِ وَأَحْمَدٌ[59] ... يَسْتَقْبِلاَنِ العِزَّ مِنْ سُلْطَانِهَا
وَعَقَائِلاً صَدَقَتْ لَهُنَّ فِرَاسَةٌ ... بِتَعَرُّفِ الإِرْدَافِ مِنْ فُرْسَانِهَا
وَلِيُوسُفٍ مَلِكِ الجِهَادِ مَلاَمِحٌ ... تُلْقِي البُدُورُ لَهَا يَدَيْ إِذْعَانِهَا
وَمَعَاقِلُ الكُفَّارِ قَدْ كَلِفَتْ بِهِ ... كَلَفَ القُلُوبِ تَحِيدُ عَنْ سُلْوَانِهَا
مُنْقَادَةً مِنْ حِينِهَا لِلسَّيْفِ مِنْ ... فَتَّاحِهَا والْحُسْنِ مِنْ فَتَّانِهَا
يَا يُوسُفِيّاً نَاصِرِيّاً مَدْحُهُ ... دُرَرٌ تَغَالَى الدَّهْرُ فِي أَثْمَانِهَا
يُزْهَى بِهَا زَهْوَ النُّجُومِ بِبَدْرِهَا ... وَالزَّهْرِ بِالنَّفَحَاتِ مِنْ بُسْتَانِهَا
مَنْ حَادَ عَنْ فَهْمِ الْحَقَائِقِ فِكْرُهُ ... فَلْيَسْأَلِ السُّكَّانَ عَنْ أَوْطَانِهَا
مَاءُ السَّمَاءِ أَفَادَ جَدَّكَ دَوْحَةً ... أَلْقَتْ أَزَاهِرَهَا عَلَى أَفْنَانِهَا
أَوَ لَيْسَتِ الأَنْصَارُ خَيْرَ قَبِيلَةٍ ... ضَمِنَتْ فَجَاءَ النَّصْرُ وِفْقَ ضَمَانِهَا
بِهِمُ تَيَمَّنَتِ النُّبُوَّةُ وَانْتَهَى ... فَضْلُ الْمَدَى الأَقْصَى إِلَى إِيمَانِهَا
أَنْصَارُ دِينِ المُصطفَى فِي مَكَّةٍ ... أَعْظِمْ بِهِمْ مِنْ نَاسِخِي أَدْيَانِهَا

(58) متوقّلا : صاعدا، وشهبان جمع شهاب.

(59) يشير الشاعر إلى أخوي الممدوح الملك الناصر يوسف الثالث وهما : علي أبو الحسن الملقب بعز الدولة وأبو العباس أحمد. انظر فيهما : ديوان ابن فركون : 33 ـ 34 (المقدمة) 180، 195، 358، 361 (الديوان).

أَمْسَتْ رِيَاحُهُمْ بِهَا تَسْفِي الثَّرى[60] حَيْثُ الخبيرُ بِهَا أُبُو سُفْيَانِهَا[61]
حتَّى اسْتَقَلَّ عِمَادُهَا بِعَمِيدِهَا والمُنْتَقَى فِي الصَّيِدِ مِنْ عَدْنَانِهَا
شَرَفُ الوُجُودِ مُتَمِّمُ النُّورِ الَّذِي أَقْمَارُهُ لَمْ تَخْشَ مِنْ نُقْصَانِهَا
وَبِهَدْيِهِمْ يَا نَاصِراً دِينَ الْهُدَى هَدَأَتْ بِلاَدُ ٱللَّهِ مِن رَجَفَاتِهَا
شَادُوا بِإِيوَاءِ الرَّسولِ مَعالِماً خَضَعَتْ لَهَا الشُّرُفاتُ مِنْ إِيوَانِهَا
وَتَبِعْتَهُمْ خَلَفاً أَصِيلَ خِلاَفَةٍ وَكَأَنَّكَ الْوُسْطَى لِعِقْدِ جُمَانِهَا
وَكَأَنْ بِيُمْنَى نَجْلِكَ الْمَوْلَى الرِّضَا تُضْفِي عَلَى ٱلأَرْجاءِ ظِلَّ أَمَانِهَا
بِالضَّحْوَةِ الغَرَّاءِ مِنْ مِيلاَدِهِ قَدْ عَادَتِ الدُّنْيَا إِلَى رَيْعَانِهَا
لاَزِلْتَ تَمْنَحُهُ رِضَاكَ مَوَاهِباً تَقْضِي سُعُودُكَ بِاتِّصَالِ زَمَانِهَا

وَفِي ذَلِكَ لِلْفَقِيهِ الْوَزِيرِ
أَبِي مُحَمَّد بْنِ مَلِيح وَصل ٱللَّه
عِزَّتَه، وَوَالَى رِفعتَه[62]

[مَلَكَ الحُبُّ] الْعَتِيقُ فُؤَادِي وَتَمَلَّكَ الْحُسْنُ البَدِيعُ قِيَادِي
وَأَرَى طِبَاعِي لاَ تَحِيدُ عَنِ الْهَوَى وَأَرَى التَّغَالِيَ فِيهِ عَيْنَ رَشَادِي
وَأَرُومُ أَكْتُمُ والنُّحُولُ يَنِمُّ بِي وَمَدَامِعٌ تَهْمِي كَصَوْبِ عِهَادِ
وَلَكَمْ أَلَحَّ العَاذِلُونَ وَفَنَّدُوا حَشَدُوا عَلَيَّ كَتَائِبَ الأَنْقَادِ
قَالُوا : أَتَصْبُوا والشَّبَابُ قَدِ انْقَضَى[63] وَعَدَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْمَشِيبِ عَوَادِ
قُلْتُ اكْفُفُوا فَأَلَذُّ أَوْقَاتِ الْكَرَى مَهْمَا يُنَادِي بِالصَّبَاحِ مُنَادِ
أَوَ مَا دَرَوا أَنَّ الوَفَاء سَجِيَّتِي سِيَّانِ فِي الإِدْنَا وفِي الإِبْعَادِ

(60) تسفي الثرى : تذروه.
(61) يقصد أبا سفيان بن حرب زعيم قريش.
(62) تقدّم ذكره.
(63) البيت الأوّل مأخوذ من قول ابن عميرة المخزومي :
وَقالوا أَتَلْهو والشّباب قد انقضى وعُمْرك قد ولّى ولم يبق طائل
والبيت الثاني من قول ابن شاطر :
فقلت لها كُفّي عن العَتْب واعْلمي بأنّ ألذّ النوم إغْفاءة الفَجْر

أَرْعَى العُهُودَ وَلاَ أَحُلُّ وَثَاقَهَا ... وَأَصُونُهَا وَأُجِيدُ حِفْظَ وِدَادِي
لِي فِي المَحَبَّةِ نَزْعَةٌ عُذْرِيَّةٌ ... مَيْدَانُهَا أَجْرَيْتُ فِيهِ جِيَادِي
فَسَبَقْتُ كُلَّ مُنَافِسٍ وَمُعَانِدٍ ... أَرْغَمْتُ فِي طُرُقِ الْهَوَى حُسَّادِي
بِأَبِي غَزَالٌ فَاتِكٌ بِلِحَاظِهِ ... فَتْكَ الصَّوَارِمِ فِي جُسُومِ أَعَادِي
أَمَّلْتُ مِنْهُ الْعَدْلَ فِي أَحْكَامِهِ ... فَأَشَبَّ نَارَ الهَجْرِ فِي أَكْبَادِي
وَلَقَدْ قَنَعْتُ بِزَوْرَةٍ مِنْ طَيْفِهِ ... لَوْ أَنَّهُ أَبْقَى عَلَيَّ رُقَادِي
قَالُوا أَطَلْتَ دَعِ الْهَوَى لأُنَاسِهِ ... وَاسْأَلْ سَبِيلَ أُلِي(64) نُهًى [وَرَشَادِ]
قُلْتُ التَّغَزُّلُ صُغْتُهُ سَبَباً إِلَى ... مَدْحِ ابْنِ نَصْرٍ سَيِّدِ الأَجْوَادِ
مَلِكٌ أَنَافَ(65) عَلَى الكَوَاكِبِ قَدْرُهُ ... وَسَمَا عَلَى النُّظَرَاءِ والأَنْدَادِ
فَخْرُ المُلُوكِ عَمِيدُهُمْ وَإِمَامُهُمْ ... وَهُمَامُهُمْ طُرّاً وَبَدْرُ النَّادِي
هُوَ يُوسُفٌ شَمْسُ الظَّهِيرَةِ والضُّحَى ... هو نَاصِرٌ دِينَ النَّبِيِّ الْهَادِي
لَمَّا حَبَاهُ ٱللَّهُ خَيْرَ خِلاَفَةٍ ... عَادَتْ بِهِ الدُّنْيَا لأَجْمَلِ عَادِ(66)
فَتَمَهَّدَتْ أَرْجَاؤُهَا وَتَلأْلأَتْ ... أَضْحَتْ لِسَاكِنِهَا وَثِيرَ مِهَادِ
مَنْ أَمَّهُ لِلرِّفْدِ فَازَ بِكُلِّ مَا ... يَبْغِيهِ فِي الإِصْدَارِ والإِيرَادِ
وَإِذَا أَتَى مُتَظَلِّمٌ مُسْتَنْصِراً ... أَلْفَى نَصِيراً مِنْهُ بِالمِرْصَادِ
بِيَدَيْهِ بَحْرُ نَدىً وَبَأْسٍ جُمِّعَا ... فَلْتَعْجَبُوا لِتَأَلُّفِ الأَضْدَادِ
عَزَّ الإِلاَهُ بِمُلْكِهِ دِينَ الْهُدَى ... وَأَذَلَّ أَهْلَ الكُفْرِ والإِلْحَادِ
وَلَهُ الْفَصَاحَةُ والسَّمَاحَةُ والعُلا ... ومَنَاقِبٌ جَلَّتْ عَنِ التِّعْدَادِ
وَشَمَائِلٌ تُتْلَى عَجَائِبُ آيِهَا ... وَمَآثِرٌ يَشْدُو بِهِنَّ الشَّادِي
بِالهَدْيِ والتَّقْوَى لَدَيْهِ وَطَالَمَا ... هُوَ رَائِحٌ يَبْغِي النُّمُوَّ وَغَادِ
جُمِعَتْ لَدَيْهِ مَحَامِدٌ وَمَحَاسِنٌ ... مِنْ كُلِّ نَوْعٍ طَارِفٍ وَتِلاَدِ
بِبِلاَدِ أَنْدَلُسٍ غَدَا وَفَخَارُهُ ... قَدْ طَارَ فِي شَامٍ وَفِي بَغْدَادِ

---

(64) كذا في الأصل، والمراد : أولي.

(65) أناف : ارتفع.

(66) عاد : جمع عادة.

بِثَنَائِهِ تَسْرِي الْقَوَافِلُ فِي الْفَلاَ … وَبِمَدْحِهِ يَحْدُو الرِّكَابَ الْحَادِي
وَرِثَ الْخِلاَفَةَ والإِمَامَةَ والْعُلَى … عَنْ خِيرَةِ الآبَاءِ والأَجْدَادِ
مِنْ آلِ نَصْرٍ مِنْ سُلاَلَةِ خَزْرَجٍ … أُسْدِ الكِفَاحِ وَنُجْعَةِ الْمُرْتَادِ
هُمْ أَثَّلُوا دِينَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ … هُمْ جَاهَدُوا فِي اللّهِ حَقَّ جِهَادِ
مَاذَا أَقُولُ وَفِي الكِتَابِ ثَنَاؤُهُمْ … يُتْلَى مَدَى الأَعْصَارِ والآبَادِ
مَوْلاَيَ يَا أَعْلَى الْمُلُوكِ وَمَنْ غَدَا … لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا أَجَلَّ عِمَادِ
أَنتَ الإِمَامُ الفَاضِلُ السِّيَرِ الَّتِي … هِيَ حِلْيَةُ الْعُلَمَاءِ والعُبَّادِ
أَنتَ الْمُقِيمُ شَعَائِرَ الدِّينِ الَّتِي … ثَبَّتَّهُنَّ بِأَوْثَقِ الأَوْتَادِ
يَهْنِيكَ يَا مَوْلاَيَ أَفْضَلُ نِعْمَةٍ … أَعْطَاكَ رَبُّ الخَلْقِ والإِيجَادِ
بَدْرٌ سَعِيدٌ قَدْ تَأَلَّقَ نُورُهُ … وَكَمَالُهُ فِي أُفْقِ مُلْكِكَ بَادِ
فَاهْنَأْ بِهِ وَبِإِخْوَةٍ يَتْلُونَهُ … كُلٌّ بِسَعْدٍ مُبْدَإٍ وَمُعَادِ
لاَزَالَ مُلْكُكَ سَامِياً وَمُهَنَّئاً … وَبَلَغْتَ أَوْفَى مَقْصَدٍ وَمُرَادِ

وَأَنْشَدَ الْقَائِدُ المرفَّعُ
أَبُو يَحْيَى ابْنُ الوزِيرِ الرَّئِيسِ
أَبِي بَكْرِ بْنِ عَاصِم(67)

لَقَدْ بَلَغَ المُلكُ أَقْصَى الأَمَلْ … وَطَابَ الزَّمَانُ لَنَا وَاعْتَدَلْ
بِبَدْرٍ تَجَلَّى بِأُفْقِ الْمَعَالِي … كَمَا حَلَّتِ الشَّمْسُ بُرْجَ الْحَمَلْ
بِنَجْلِ الإِمَامِ الْكَرِيمِ الَّذِي … بَنَى مَعْلَمَ الْمَجْدِ حَتَّى اسْتَقَلْ
كَأَنِّي بِهِ قَدْ هَمَى جُودُهُ … عَلَى مُعْتَفِي رِفْدِهِ وانْهَمَلْ
كَأَنْ بِنَدَاهُ وَأَمْدَاحِهِ … يَسِيرَانِ فِي النَّاسِ سَيْرَ الْمَثَلْ

---

(67) تقدم ذكره في قصيدة سابقة، وذهبنا إلى أنه ربّما كان المقصود به ولد القاضي أبي بكر بن عاصم، ويمكن أن يراد به عمّه أبو يحيى الذي استشهد في وقعة انتقيرة عام 813هـ أي بعد التاريخ الذي قيلت فيه هذه القصيدة وسابقتها وهو عام 811هـ وقد يرجّح الإمكان الأخير قوله :

أمولاي عادات فضلك قد … أعدن نشاطي بعد الكسَلْ

فهذا مما لا يصدر عن شاب في مقتبل العمر.

كَأَنِّـي بِـهِ قَـدْ سَمَتْ نَـفْسُهُ لِمَـا لَـمْ تَنَلْـهُ الْمُلُـوكُ الأُوَّلْ
فَتَحْنُـو اشْتِيَاقـاً عَلَيْـهِ الْقُلُـوبُ وَتَرْنُـو ابْتِهَاجـاً إِلَيْـهِ الْمُقَـلْ
وَتَنْـأَى اخْتِيـالاً عِتَـاقُ الجِيَـادِ وَتُزْهَـى انْثِنَـاءً صُدُورُ الأَسَلْ
صِفَاتُ كَبِيرٍ وإِنْ كَانَ طِفْـلاً يُـلاَزِمُ مِنْهَـا الْمُلُـوكَ الْخَجَـلْ
وَمَنْ كَانَ قُطبَ الهُدَى أَصلُـهُ فَيَامَـا أَعَـزَّ وَيَامَـا أَجَـلْ
إِمَامٌ علـى الحِلْـمِ والعِلْـمِ والْبَـذْلِ والفَضْـلِ والْمَكْرُمَـاتِ اشْتَمَـلْ
بَخِيـلُ الْيَدَيْـنِ بِعِـرْضٍ وَجَـارٍ وَإِنْ كَانَ لَمْ يَدْرِ مَعْنَى الْبَخَـلْ
مُبِيـنُ الـرَّشَادِ مُقِيـمُ الجِهَـادِ مُفِيـدُ الأَيَـادِي مُبِيـدُ النِّحَـلْ
وَبَحْـرُ النَّـوَالِ وَشَمْسُ المَعَالِـي وَمَعْنَـى الْكَمَـالِ وَسِرُّ الـدُّوَلْ
فَكَمْ مِنْ عَزِيزٍ وَكَمْ مِنْ ذَلِيـلٍ أَعَـزَّ شَبَـا رُمْحِـهِ أَوْ أَذَلْ
تَـرَاهُ لَـدَى السِّلْـمِ مَحْيَا العِبَـادِ وَيَـوْمَ الجِـلاَدِ مَمَـاتَ الْبَطَـلْ
وَكَالْغَيْثِ وَاللَّيْثِ بـأْساً وَجُـوداً إِذَا مَـا سَطَـا وَإِذَا مَـا بَـذَلْ
لَـهُ رَاحَـةٌ بَيْـنَ نُعْمَـى وَبُـؤْسٍ بِهَا الصَّابُ مُجْتَمِـعٌ وَالْـعَسَلْ
وَفِيهَـا تَلاَقَـى المُنَـى والمَنَـى وَمِنْهَـا الحيَـاةُ وَمِنْهَـا الأَجَـلْ
أَيَـا قَاتِـلَ الأُسْدِ يَـوْمَ الوَغَـى وَيَا مُخْجِلَ الْغَيْثِ مَهْمَا هَمَـلْ
سَتَفْتَـحُ أَرْضَ العِـدَى عَنْـوَةً وَتُبْدِلُهَـا الأَمْـنَ بَعْـدَ الوَجَـلْ
تُفَـرِّقُ جَمْعَهُـمُ بِالفَنَـاءِ وَتَجْمَـعُ سَبْيَهُـمُ فِـي النَّفَـلْ(68)
لأَنَّكَ مِـنْ أُسْرَةٍ شَيَّـدَتْ أَوَاخِرُهَـا مَـا بَنَتْـهُ الأُوَّلْ
هُـمُ القَـوْمُ أَمَّامَعَالِيهِـمُ فَقَـد صَحَّ إِسْنَادُهَـا وَاسْتَقَـلْ
إِذَا ذُكِـرَ النَّـاسُ كَانُـوا أَعَـزَّ مكانـاً وَأَسْمَـى حُلًـى وَأَجَـلْ
فَهِمَّتُهُـمْ فِـي اقْتِنَـاءِ الثَّنَـاءِ وَبُغْيَتُهُـمْ فِـي سُمُـوِّ الْمَحَـلْ
وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ سِوَى أَنْ بِهِـمْ جُيُوشُ العِـدَى وَظُبَاهُـمْ تُفَـلْ(69)

---

(68) النفل : الغنيمة.

(69) هذا كقول النابغة :

وَلاَ عَيب فيهِمْ غَيرَ أَنَّ سُيُوفهُم بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِراعِ الكَتَـائِب

مَآثِرُ أَعْيَتْ عَلَى النَّظْمِ وَصْفاً ... فَمَا لِبَلِيغٍ فِيهَا مِنْ قِبَلْ
فَيَادِينُ يَهْنِيكَ مِنْهُمْ إِمَامٌ ... أَقَامَ عِمَادَكَ بَعْدَ الْمَيَلْ
وَلَوْلاَ نَدَى كَفِّهِ مَا اسْتَقَامَ ... وَلَوْلاَ هُدَى عَدْلِهِ مَا اعْتَدَلْ
فَلاَ تَسْئَلِ الدِّينَ عَنْ حَالِهِ ... وَلَكِنْ عَمَّنْ حَمَاهُ فَسَلْ
وَلَمَّا رَأَى نَجْمُ أَعْدَائِهِ ... طُلُوعَ نُجُومِ السُّعُودِ أَفَلْ
تَرَى الأُسْدَ مِنْ بَاسِهِ كَالنُّقَادِ ... وَصِيدَ الْمُلُوكِ لَهُ كَالْخَوَلْ(70)
أَيُدْرِكُ شَأْوَ عُلاَهُ الْكِرَامُ ... أَيُنْقَاسُ بَحْرُ النَّدَى بِالْوَشَلْ
أَيَا جُمْلَةَ الفَضْلِ هُنِّيتَ نَجْلاً ... يُفَسِّرُ بِالجُودِ ذَاكَ الْجُمَلْ
هِلاَلٌ سَعِيدٌ كَرِيمُ القدومِ ... أَهَلَّ بِهِ النَّصْرُ لَمَّا اسْتَهَلْ
وَبَدْرٌ كَسَا الدَّهرَ نُورُ سَنَاهُ ... وَمَرْآهُ أَسْنَى الْحُلَى والْحُلَلْ
سَمَا لِلْمَكَارِمِ طِفْلاً صَغِيراً ... فَكَيْفَ يَكُونُ إِذَا مَا اكْتَهَلْ
سَيُبْدِي أَمَامَكَ يَوْمَ الْوَغَى ... حُسَاماً بِكَفِّ عُلاَكَ اسْتَقَلْ
يُخَالُ صَبَاحاً فَلاَ غَرْوَ أَنْ ... يُجَلِّي دُجَى الشِّرْكِ مَهْمَا يُسَلْ
أَقَمْتَ العَقِيقَةَ مِنْ أَجْلِهِ ... وَنَاهِيكَ مِنْ مَشْهَدٍ مُحْتَفَلْ
حَفِظْتَ بِهِ سُنَّةَ المُصْطَفَى ... فَحُزْتَ بِهَا رُتْبَةً لَمْ تُنَلْ
فَإِنَّكَ أَسْمَى وَأَكْرَمُ مَنْ ... أَطَاعَ أَوَامِرَهُ وَامْتَثَلْ
لَدَى مَصْنَعٍ بَاهِرٍ حُسْنُهُ ... يَرُوقُ ابْتِهَاجاً سَنَاهُ الْمُقَلْ
دَنَتْ لِلسُّرُورِ بِأَرْجَائِهِ ... قُطُوفُ الْمُنَى فِي رِيَاضِ الجَذَلْ
وَحَفَّ بِهِ السَّعْدُ مِن كُلِّ وَجْهٍ ... وَسِتْرُ الأَمَانِ عَلَيْهِ انْسَدَلْ
إِذَا أَبْصَرَ البَدْرُ سَاحَاتِهِ ... يَوَدُّ لَوَ انْ فِي ذُرَاهُ مَثَلْ(71)
وَإِنْ لَمَحَتْهُ ذُكَاءُ(72) اغْتَدَتْ ... تَلَوَّنُ مِنْ حَسَدٍ أَوْ خَجَلْ
مَنَحْتَ العُفَاةَ(73) بِهِ مُنْعِماً ... بِرَوْضِ الأَمَانِي جَنِيَّ الأَمَلْ

---

(70) النّقاد : صغار الغنم، والخول : العبيد.

(71) مثل : غاب.

(72) ذكاء : الشمس.

(73) العفاة : السائلون.

أمَـوْلاَيَ عــاداتُ فَضْلِكَ قَــدْ أَعَــدْنَ نَشَاطِــيَ بَعْــدَ الْــكَسَلْ
وَطَوَّقْــنَ جِيـدِي عُقُــودَ اللُّهَــا[74] فَرَفَّعْنَنِــي عَــنْ صِفَــاتِ الْعَطَــلْ
بَقِــيتَ لِــنُصْرَةِ دِيــنِ الْهُــدَى وَأَمْــرُكَ بَيْــنَ الْــوَرَى مُمْتَثَــلْ
وَلاَزِلْتَ مَــا عِشْتَ مُسْتَأْثِــراً بِخَفْضِ الزَّمَـانِ وَرَفْـعِ المَحَــلْ

وَفِي ذَلِكَ لِلْفَقِيهِ المُرَفَّعِ

أبِي الحَسَن بن هُذَيْل وَصَلَ آللّهُ عِزَّته وَرِفْعَتَهُ[75]

بَدا في سَمَاءِ المُلْكِ بَدْرٌ مُتَمَّمُ تَـلاَقَتْ بِـهِ فِيهَـا بُـدُورٌ وَأَنْجُـمُ
بَـدَا فَمُحَيَّـا الدَّهْـرِ طَلْـقٌ وَثَغْـرُهُ سُرُوراً بِـهِ عَـن أَشْنَبٍ يَتَبَسَّمُ
وَزَادَ بِـهِ مَـرْآهُ حُسْنـاً وَبَهْجَــةً وَلَوْلاَ شَنِيبُ الثَّغْرِ مَا قُبِّلَ الْفَمُ
وَأَقْبَـلَ والإِقبَـالُ واليُمْــنُ تِلْــوُهُ وَقَبْــلَ ذُكَــاءِ نُورُهَــا يَتَقَــدَّمُ
تَقَلَّـدَ مِنْـهُ عَاتِـقُ الْمُـلْكِ صَارِمـاً لَهُ مَضْرِبٌ عَضْبٌ الْغِرَارَيْنِ مِخْذَمُ[76]
وأَشْرقتِ الايامُ مِـن نُـورِ وَجْهِـهِ وَبالغُـرَّةِ الغَـرَّاءِ يُمْـدَحُ أَدْهَــمُ
وَلِيــدٌ غَــذَاهُ لِلْهِدَايَــةِ عُــنْصُرٌ مَخَائِلُهَــا مِــنْ خَلْقِــهِ تُتَــوَسَّمُ
وَأَنْجَبَــهُ مِــنْ آلِ نَصْرٍ خَلِيفَــةٌ كَرِيـمُ السَّجَايَـا والْخِـلاَلِ مُعَظَّــمُ
وَقَدْ شَدَّ أَزْرَ الْمُلْكِ مِنْهُ مُهَنَّـدٌ طَرِيرُ الشَّبَا عَضْبٌ وَأَسْمَرُ لَهْـذَمُ
وَلَـمْ يُغْـذِهِ إِلاَّ المَكَـارِمُ والعُلَـى لَـهُ مَشْرَبٌ مِنْهَـا نَمِيرٌ وَمَطْعَـمُ
وَلَمْ يَرْضَ إِلاَّ الْمُرْهَفَاتِ تَمَائِمـاً تُعَـوِّذُهُ مِــنْ شَرِّ مَــا يُتَوَهَّــمُ

---

(74) اللُّهَا : العطايا.

(75) هو أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل بن محمد بن هذيل، هكذا ورد اسمه في ديباجة تأليفه المخطوط : صفات الحسن والجمال. ولا توجد ترجمة لهذا المؤلف الأديب، وإنما توجد له مؤلفات منها المؤلف المذكور، وهو مخطوط ومنها «حلية الفرسان» و«عين الأدب والسياسة» وهما مطبوعان وله مؤلّفات أخرى.

(76) عضب ومخذم : قاطع.

(77) طرير الشّبا : محدّد.

وَعَايَـنَتِ الأَبْصَارُ فِـي قَسَمَاتِـهِ ... سِمَاتِ هُدًى عن كُلِّ يُمْنٍ تُتَرْجِمُ

رَأَتْ مِنْهُ سِيمَا سُؤْدَدٍ حَكَمَتْ بِأَنْ ... تُمَلِّكَهُ رِقَّ الْـوَرَى قَبْـلَ يُفْطَـمُ

وَيَفْتَـحُ أَمْصَارَ الْعِـدَى وَوَرَاءَهُ ... خَمِيسٌ كَلُجِّ الْبَحْرِ مَجْرٌ عَرَمْرَمُ(78)

شَوَاهِدُ قَدْ قَامَتْ بِهَـذَا صَوَادِقٌ ... تَجَلَّى بِهَا سِرٌّ مِنَ ٱلْغَيْبِ مُبْهَمُ

وَمَـنْ لِبَنِـي نَصْرٍ يَكُـونُ انْتِمَـاؤُهُ ... أَسِرٌّ عُـلاهُ فِي الوُجُـودِ مُكَتَّـمُ

أَمْوْلاَيَ خُذْمَدْحِي بِذِكْـرِكَ عَرْفُهُ ... كَمِثْلِ فَتِيقِ المِسْكِ(79) إِذْ يُتَـنَسَّمُ

بَشَائِرُ عَمَّتْ كُـلَّ بَادٍ وَحَـاضِرٍ ... بِهَا أَنْجَد الرُّكْبَانُ وَصْفاً وَأَتْهمُوا

عَلَى مِثْلِهَا نُعْمَى وَيَامَا أَجَلَّهَـا ... طُيُورُ الأَمَانِي مِـن قَدِيـمٍ تُحَـوِّمُ

فَقُلْنَا بِشُكْرِ ٱللَّـهِ عَوْداً وَبَـدْأَةً ... فَأَسْهَبَ مَحْصُورٌ وَأَطْنَبَ مُفْحَـمُ

عَلَى أَنَّهَا جَلَّتْ فَلَسْنَا نَفِي بِهَـا ... بِنَثْـرٍ يُـرَوَّى أَوْ بِشِعْـرٍ يُنَظَّـمُ

سَأَبْـذُلُ نَـفْسِي لِلْبَشِيـرِ بِشَارَةً ... أُفَرِّقُهَـا فِـي حَقِّـهِ وَأُقَسِّمُ

وَلِم لاَ وَقَدْ أَوْلَيْتَنِي مِنكَ نِعْمَةً ... أَنَا بَعْضُ مَا تُبْـدِي بِهَـا وَتُتَمِّـمُ

كَأَنَّكَ مِنْ مَاءِ الحَيَاةِ مُـرَكَّبٌ ... فَحُبُّكَ فِي كُـلِّ الْقُلُوبِ [illegible]

وُجُودُكَ فِي الدُّنْيَا جَمَـالٌ وَزِينَـةٌ ... وَجُودُكَ فِيهَا صَيِّبُ الْقَطْرِ مُسْجَمُ

فَلاَ نُورَ إِلاَّ مِنْ جَبِينِكَ يُجْتَلَـى ... وَلاَ رِزْقَ إِلاَّ مِن يَمِينِكَ يُـقْسَمُ

إِذَا قِيلَ مَن ربُّ المَكَارِمِ والعُلَى ... فَأَنْتَ الذِي يُبْدَا بِـهِ ثُـمَّ يُخْتَـمُ

فَيَهْنِيكَـهُ نَجْـلاً سَعِيـداً مُوَفَّقـاً ... بِـهِ ازْدَانَ بُـرْدٌ بالإِمَـارَةِ مُعْلَـمُ(80)

وَبَـاتَ بِـهِ أَمرُ الأَنَـامِ مشيَّـداً ... وأَرْكَانُـهُ مَـرْصُوصَةٌ لاَ تُثَلَّـمُ

وَيَكْفِيهِ مـن نَيْـلِ السَّعَـادَةِ أَنَّـهُ ... وَإِيَّاكَ فِي التَّحقِيقِ شِبْلٌ وَضَيْغَـمُ

فَسُلَّ بِهِ سَيْفَ احْتِكَامٍ عَلَى المُنَى ... يُسَاعِدْكَ فِيـهِ السَّعْدُ إِذْ تَتَحَكَّـمُ

وَدُمْ لِلْمُنَى كَهْفاً وَدَهْـرُكَ كُلُّـهُ ... كَمَا تَشْتَهِي الآمَالُ عِيدٌ وَمَوْسِمُ

وَعِشْ فِي أَمَانٍ مَـا تَرَنَّـمَ طَائِـرٌ ... وَمَا اشْتَاقَ وَصْلَ الحِبِّ صَبٌّ مُتَيَّمُ

---

(78) مجر، عرمرم : كثير.

(79) فتيق المسك : رائحته.

(80) بُرْدٌ مُعْلم : ثوب مخطّط.

وَأَنْشَدَ الكَاتِبُ البَارِعُ أَبُو عَبْدِ ٱللَّهِ الشَّرَّان[81]

سِراجُ الْهُدَى مِنْ أُفْقِ مُلْكِكَ أُطْلِعَا ... وَرَوْضُ الرِّضَا فِي ظِلِّ عَدْلِكَ أَيْنَعَا
وَدُرُّ الْمَعَالِي عَنْ نَدَى بَحْرِكَ ارْتَمَى ... وَسِرْبُ التَّهَانِي فِي حِمَى يُمْنِكَ آرْتَعَى
وَوِرْدَ المُنَى أَعْدَدْتَ لِلْهَدْيِ مَشْرَعاً ... وَرُمْحَ الرَّدَى سَدَّدْتَ لِلْكُفْرِ مُشْرَعَا
فَأَسْعِدْ بِدَهْرٍ حَلَّ بَدْرُكَ أُفْقَهُ ... فَأَمْسَى لِشُهْبَانِ السَّعَادَةِ مَطْلِعَا
كَأَنَّ حُلاَهُ مِنْ سَنَاكَ تَضَوَّأَتْ ... وَعَرْفَ صِبَاهُ مِنْ ثَنَاكَ تَضَوَّعَا
أَرَانَا مِنَ الْحُسْنَى بِبُقْيَاكَ لِلدُّنَا ... وللدِّينِ مَا يَمْحُو لَهُ الذَّنْبَ أَجْمَعَا
فَلاَ يَوْمَ إِلاَّ وَالْتِمَاحُكَ قَدْ أَتَى ... بِعِيدٍ هِلاَلُ السَّعْدِ مِنْهُ تَطَلَّعَا
رَعَى ٱللَّهُ فِي ٱلأَمْلاَكِ مِنْكَ خَلِيفَةً ... بِأَكْلاَءِ[82] عَيْنٍ لِلْخَلِيفَةِ قَدْ رَعَا
وَأَمْتَعَ مِنْكَ المُلكَ بِٱلنَّاصِرِ الذِي ... غَدا سَيْفُه بِٱلنَّصْرِ لِلْمُلْكِ مُمْتِعَا
وَهُنِّئْتَ بِٱلنَّجلِ الكَرِيمِ الذِي سَمَا ... عَلَى النَّجْمِ فِي عَلْيَائِهِ وَتَرَفَّعَا
حُسَامٌ يَصُولُ الْحَقُّ مِنْهُ عَلَى العِدَى ... بِأَسْطَى مِنَ العَضْبِ اليَمَانِي وَأَسْطَعَا
تُحَدِّثُنَا عَنْهُ الْمَخَائِلُ أَنَّهُ ... سَيَسْلُكُ مِنْ آثَارِكَ الغُرِّ مَهْيَعَا[83]
وَنَاهِيكَ شَمْسٌ مِنْ سَمَائِكَ أَشْرَقَتْ ... وَحَسْبُكَ فَرْعٌ عَنْ عُلاَكَ تَفَرَّعَا
سَيَنْشَأُ فِي حِجْرِ السَّعَادَةِ حَيْثُ قَدْ ... تَغَذَّى لِبَانَ العِزِّ صِرْفاً وَأُرْضِعَا
وَيُطْلِعُ أُفْقَ المَهْدِ مُشْرِقُ بَدْرِهِ ... وَلَمْ أَرَ مَهْداً قَبْلُ لِلْبَدْرِ مُطْلِعَا
أَيَنْزِلُ إِلاَّ فِي بُرُوجِ سُرُوجِهِ ... وَهَيْهَاتَ أَنْ يَهْوَى سِوَاهُنَّ مَوْضِعَا
لَقَدْ أَصْبَحَتْ شَوْقاً لَهُ ٱلْخَيْلُ تَرْتَمِي ... نَشَاطاً وَتُلْقِي لِلْبَشَائِرِ مِسْمَعَا
وقَدْ أَكْسَبَ السُّمْرَ ارتياحَ مَسَرَّةٍ ... بِبُشْرَاهُ فَاهْتَزَّتْ إِلَى الصُّفْرِ شُرَّعَا[84]

---

(81) تقدم التعريف به.

(82) أكلاء جمع كلأ.

(83) المهيع : الطريق.

(84) السّمر يقصد بها : القنا، والصّفر هم الروم.

وَأَذْكَى جُفُونَ البيضِ[85] جَمْراً كَأَنَّهَا ... إِلَى لَثْمِ يُمْنَاهُ تَهِيمُ تَوَلُّعَا
وَزَادَ الْبُنُودَ الحُمْرَ حُسْناً كَأَنَّمَا ... بِهَا شَفَقٌ مِنْ شَمْسِ مَرْآهُ أُطْلِعَا
وَعَمَّتْ تَهَانِيهِ الزَّمَانَ وَأَهْلَهُ ... فَكُلٌّ بِإِدْرَاكِ المُنَى قَدْ تَمَتَّعَا
فَلاَ ثَغْرَ إِلاَّ عَادَ بِالْبِشْرِ بَاسِماً ... ولاَ قُطْرَ إِلاَّ صَارَ لِلْيُمْنِ مُرْتَعَا
فَحَيَّا الْحَيَا دَهْراً قَضَى بِطُلُوعِهِ ... فَأَحْيَى بِهِ الدُّنْيَا وَسَاكِنَهَا مَعَا
وَقُدِّسَ شَخْصٌ كَانَ أُودِعَ حَمْلَهُ ... فَأَضْحَى لَهُ يَوْمَ اللِّقَاءِ مُوَدِّعَا
وَمَا صَرَعَتْها غَيْرُ كَاسِ سُرُورِهَا ... وَكَمْ فَرَحٍ لاَقَتْ بِهَا النَّفْسُ مَصْرَعَا
وَهَلْ هِيَ إِذْ أَلْقَتْ لَنَا ذَاتَه سِوَى ... سَحَابٍ سَقَانَا غَيْثُهُ ثُمَّ أَقْلَعَا
أَوِ الصَّدَفُ الْمَكْنُونُ قَدْ صَانَ دُرَّهُ ... فَعِنْدَ انْفِصَالِ الدُّرِ عَنْهُ تَصَدَّعَا
نَعَمْ هُوَ دُرٌّ نَضَّدَ الحُسْنُ عِقْدَهُ ... فَحَلَّ بِهِ جِيداً لِمُلْكِكَ أَتْلَعَا[86]
تَلأْلأَ بِالسَّعْدِ الْحَقِيقِيِّ نَجْمُهُ ... عَلَيْكَ فَدَعْ سَعْدَ النُّجُومِ وَمَا ادَّعَى
فَكَمْ نَازِحِ الأَوْطَانِ أَسْرَعَ عَزْمُهُ ... سُرُوراً وَبِالْبُشْرَى لِبَابِكَ أَسْرَعَا
وَكَمْ مَوْرِدٍ أَعْذَبْتَ فِي المَوْلِدِ الَّذِي ... وَرَدْنَا بِهِ حَوْضَ المَسَرَّةِ مُتْرَعَا
صَنِيعٌ سَمَا الأَشْرافُ نَحْوَ سَمَائِهِ ... فَأَبْصَرْتُ أُفْقَ الأَنْجُمِ الغُرِّ مَصْنَعَا
حَدَتْهُمْ دَوَاعِي العِزِّ نَحْوَكَ سُرَّعاً ... فَقَدْ أَصْبَحُوا فِي بَحْرِ جُودِكَ شُرَّعَا
فَدُمْ لِصِلاَتٍ مِنْ نَوَالِكَ لاَ نَرَى ... لَهَا كَافِياً مِنَّا سِوَى عَائِدِ الدُّعَا
وَطَارِدْ بِخَيْلِ الْيُمْنِ طَيْرَ الْمُنَى فَقَدْ ... تَعَاهَدْنَ فِي أَشْرَاكِ سَعْدِكَ مَوْقِعَا
أَلاَ إِنَّكَ المَوْلَى الذِي بِوُجُودِهِ ... تَرَوَّضَ بُسْتَانُ الوُجُودِوَأَمْرَعَا
إِمَامٌ أَعَادَ الأَمْنَ لِلأَمْرِ إِذْ حَمَا ... هُمَامٌ أَجَابَ النَّصْلَ بالنَّصْرِ إِذْ دَعَا
فَلِلَّهِ مَا أَسْمَاهُ مِنْ مَلِكٍ رِضَى ... غَدا لِلدُّنَا والدِّينِ كَهْفاً وَمَفْزَعَا
عَفَافٌ وَإِقْدَامٌ وَحَزْمٌ وَنَائِلٌ[87] ... تَرَكَّبْنَ فِي الْعَلْيَا طَبَائِعَ أَرْبَعَا
لَهُ غُرَّة لَوْ أُلْبِسَ اللَّيْلُ نُورَهَا ... لَلاَحَ لَدَيْنَا فِيهِ بُرْهَانُ يُوشَعَا[88]

---

(85) البيض : السيوف.

(86) جيد أتلع : طويل.

(87) هذا شطر بيت للمعرّي، وأوله : ألا في سَبِيل المَجْدِ ما أنا فاعلُ.

(88) برهان يوشع عليه السلام في ردّ الشمس له معروف.

وَسَمْتُ وَقَارٍ لَوْ تَجَلَّى لِيَذْبُلٍ ... لأَمْسَى لَدَيْهِ خَاشِعاً مُتَصَدِّعَا(89)
وصوبُ أيادٍ لَوْ سَقَى الرَّوض لَم يزلْ ... لِمُرْتَادِهِ بالعُشْبِ والنَّوْرِ مُنْجِعَا
إِلَى كَنَفٍ لو حلَّهُ النَّجْمُ لم يكُنْ ... من الفجرِ خَفَّاقَ الْفُؤَادِ مُرَوَّعَا
إِلَى خُلُقٍ لَوْ أُشْرِبَ الْبحرُ عَذْبَها ... لأَصْبَحَ أَحْلَى مِن جَنَى النَّحلِ مَشرَعا
حُلَى مَلِكٍ مَا الزَّهرُ غِبَّ سَمَائِه ... بأضوأَ حُسْناً مِن حُلاهُ وَأَضْوعا
وَهلْ فِي مُلُوكِ الأَرْضِ مِثْلُ لِيُوسُفٍ ... جَمَالاً وإِجْمَالاً معاً وَتَوَرُّعَا
يرى قَطْعَ أعناقِ الكُمَاةِ وَلَمْ يَكُنْ ... إِلَى صِلةِ الأَرْحَامِ يَوْماً لِيَقطَعَا
وَيَجْمَعُ شَمْلَ المَعْلُوَاتِ وَلَمْ يَكُنْ ... لشَمْلِ عَرِيضِ المَالِ يَوْماً ليجْمَعَا
ويمْنَعُ خَطْبَ الدَّهْرِ عنَّا ولَمْ يَكُن ... لِبَذْل هِبَاتِ الجُودِ فِينَا لِيَمْنَعَا
أناصرَ دِينِ اللّهِ إِذْ خُذِلَ الوَرَى ... وَهَادِيَهُ لِلأَمْنِ لَمَّا تَرَوَّعَا
أَيَادِيكَ أَمَّا فَوْزُنَا باجْتِنَائِهَا ... فَهَانَ وأما وَصْفُها فَتَمَنَّعَا
فَإِن كَانَ لِي يَوْماً لوصفِكَ مَطْمَحٌ ... فقُلْ إنَّ لِي فِي عِدَّةِ الشُّهْبِ مَطْمَعَا
وَمَنْ لِي بِأَنْ أَقْضِي مَدَائِحَ مَنْ غَدَا ... بِخِدْمَتِهِ قَدْرِي من النَّجْمِ أَرْفَعَا
أَشَدْتَ بِذِكرِي فِي الْوُجُودِ وَشِدْتَ لِي ... مَعَالِمَ عِزٍّ فِي ٱلْمَعَالِي وَأَرْبُعَا
وَلَمْ أَفْتَخِرْ إلاَّ بِأَنِّي نَشَأْتُ فِي ... حِمَاكَ وَمَالِي غيرُ نُعْمَاكَ مُرْضِعَا
فَدُونَكَها خوداً تَهادتْ كَأَنَّمَا ... سَقَيْتُ قَوَافِيهَا الرحيقَ المُشَعْشَعَا
أَفَاضَ عَلَيْهَا جَوْدُ كَفِّكَ جُودَهُ ... فَوَشَّى بِهَا رَوْضَ الْبَيَانِ وَوَشَّعَا
وَصَيَّرَنِي بالبَذْلِ فِيهَا مُطَوَّقاً ... فَلاَ غَرْوَ أَنْ أَشْدُو بشُكْرِي وَأَسْجَعَا
وَلَيْسَ انْطِبَاعِي مِنْ طِبَاعِي وَإِنَّمَا ... هُوَ الجيدُ إِذْ أَبْدَى حُلِيَّكَ أَبْدَعَا
وَمَا الشِّعْرُ إلاَّ كَالنَّسِيمِ سَرَى عَلَى ... رِيَاضِ معاليكُم فَطَابَ تَضَوُّعَا
وإلاَّ بُرُوجٌ أَشْرَقَتْ عِندَمَا بَدَتْ ... بآفَاقِهَا شُهْبَانُ وَصْفِكَ طُلَّعَا
فَدَامتْ لَكَ الْبُشْرَى بنَيِّرِك الذي ... بَدَا أَطْوَلَ الأَبْنَاءِ سَعْداً وَأَطْوَعَا
وَلاَزِلتَ يَا مَوْلَى الْخَلاَئِفِ مَشْرِقاً ... لأَمْثَالِهِ مِنْ أَنجُمِ السَّعْدِ مُطْلِعا
ودُمتَ لَنَا تَجْلُو الظَّلاَمَ فَإِنَّمَا ... سِرَاجُ الْهُدَى من أُفْقِ مُلْكِكَ أُطْلِعَا

(89) يذبل: اسم جبل معروف، وفي البيت اقتباس من قوله تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيتَهُ خاشعاً متصدِّعاً﴾.

وأنشَدَ مَمْلُوكُ مَوْلانا نَصَرَهُ ٱللَّـهُ
كَاتِبُ هَذَا أَبُو الْحُسَيْن بْنُ فُرْكُون[90]

قِـفْ بالمَعَاهِـدِ سَاعـةً واسْتَوقِــفِ ... تَحْطَ الرِّكَابُ ضُحىً بأَشْرفِ مَوْقِفِ[91]
وَارْبَعْ بِهَا دِمَناً أَلِفتُ بِهَا الْهَوَى ... أَكْرِمْ بها من مَرْبَعٍ أَوْ مَأْلَـفِ
رَاقَتْ مَحَاسِنُهَـا ورقّ نَسِيمُهَـا ... فالروضُ بَيْـنَ مُـوَرَّجٍ وَمُفَــوَّفِ
تَسْرِي الصَّبَا بِشذاهُ حِيـنَ تُميلُـهُ ... فالْـقُضْبُ بَيْـنَ تَعطُّـرٍ وَتَعَطُّــفِ
وَافَـى عَلِيـلُ نَسِيمِهَـا ثُـمَّ انْثَنَـى ... والقَلْبُ مِنْ أَلَمِ الصَّبَابَةِ قَدْ شُفِي
وَحَكَاهُ دَمْعِي رِقـةً والْقَـلْبُ فِـي ... جِسْمٍ يَكَادُ من الصَّبَابَةِ يَخْتَفِـي
لَوْلاَ النُّحُولُ ــ وَإِنَّهُ لَمزِيـةٌ ــ ... لَمْ تَرْهَبِ الأَبْطَالُ حَدَّ المُرْهَـفِ
يَا أَهْلَ نَجْدٍ[92] هَلْ لَنَا فِي حَيِّكُمْ ... أَوْ حُبِّكُمْ مِنْ مُسْعِدٍ أَوْ مُسْعِفِ
فَإِلَـى مَعَاهِدِكُـمْ أَطَـلْتُ تَشَوُّقِــي ... وَعَلَـى عُهُودِكُـمْ قَصَرْتُ تَشَوُّفِــي
هَـامَ الْفُـؤَادُ بِظَبْيَـةِ الْبَـانِ الَّتِـي ... مِنْهَا اسْتَفَادَ الْبَانُ لِيـنَ المَعْطِـفِ
لَمْ يَثْنِهَـا قَـوْلُ الـوُشَاةِ وَإِنَّمَـا ... رِيحُ الصَّبَا مَالَتْ بِغُصْنٍ أَهْيَـفِ
وَتَـبَسَّمَتْ بِعَقِيقِهَـا عَــنْ لُؤْلُــؤٍ ... شَفَهُ شَفَتْ وَجْدِي وإن لَمْ تُرْشَفِ
وَلَطَالَمَـا أَذْكَتْ جَـوىً بِجَوَانِحِـي ... فَطَفِـقْتُ بَيْـنَ تَلَـهُّبٍ وَتَلَهُّــفِ
دَعْ مَا يَرِيبُ فَإِنَّنِي أَصْبَحْتُ مِنْ ... رَيْبِ الحَوَادِثِ تَحْتَ ظِلٍّ أَوْرَفِ
حَكَمِي ٱبْنُ نَصْرٍ نَاصِرُ الدِّينِ الرِّضَا ... إِنْ لَمْ يَكُنْ حُكْمُ الزَّمَانِ بِمُنْصِفِ
حَسْبِـي مِـنَ الْعَلْيَـاءِ أَنِّـي عَبْــدُهُ ... وَكَفَى بِـهِ شَرَفـاً بِـذَلِكَ أَكْتَفِـي
وبأَنَّنِـي فِـي الْقَـوْمِ أَوَّلُ نَاظِــمٍ ... فِيـهِ الْمَدِيـحَ تَرَفُّعِـي وَتَشَرُّفِــي
إِيـهِ أَعِـدْ ذِكْـرَ الْمَعَاهِـدِ جَادَهَـا ... عَهْدُ الحَيَا من دَمْعِي الْمُتَوَكِّـفِ
وإِذَا رَوَيْتَ بِهَا أَحَادِيثَ الْهَـوَى ... فَاصْرِفْ عِنَانَ الْقَوْلِ أَحْسَنَ مَصْرِفِ

---

(90) تقدّم التعريف به.

(91) توجد هذه القصيدة أيضاً في الديوان : 129 ــ 142 وقد جاء في تقديمها ما يلي : «وأنشدت يوم عقيقته السادس لصفر عام اثني عشر وثماني مائة».

(92) المقصود به هنا نجد غرناطة، وكان من متنزّهاتها التي تغنّى بها الشعراء.

خُذْ عَنْ فُؤَادِي[93] حِينَ جَدَّ بِهِ الْجَوَى ... وَجْداً يَصِحُّ حَدِيثُهُ عَنْ مُدْنَفِ
والْهَدْيَ عَنْ شُهُبِ الدُّجَى عَنْ بَدْرِهَا ... عَنْ وَجْهِ مَوْلاَنَا الْخَلِيفَةِ يُوسُفِ
لِلَّـهِ آثَـارٌ لَـهُ وَمَآثِـرٌ ... لِلْمُقْتَدِي إِنْ شِئْتَ أَو لِلْمُقْتَفِي
كَمْ رَهبةٍ أو رَغبةٍ فِي سَيْبِهِ ... أَوْ سَيْفِهِ لِلْمُعْتَدِي والمُعْتَفِي
لَمْ أدرِ مَا عَمَّ البَسِيطَةَ هَلْ نَدَى ... كَفَّيْهِ أَمْ صَوْبُ الغَمَامِ الوُكَّفِ
مِصْرُ البِلادِ أَفاضَ فِي أَرْجَائِهَا ... نِيلَ النَّدَى وَجَلَى الجَمَالَ الْيُوسُفِي
وَقْفٌ عَليهِ الجُودُ يُرْسِلُ جَوْدَهُ ... فَيَعُمُّ بَيْنَ تَوَقُّفٍ وَتَوَكُّفِ
وَلَقَدْ تَنَاهَى لِلْمَكَارِمِ جَمْعُهُ ... فَلِذَاكَ عن قُصَّادِهِ لَمْ تُصْرَفِ
رَفَّتْ ظِلاَلُ الأَمْنِ وانْعَطَفَتْ عَلَى ... وَطَنِ الجهاد بِرَأْفَةٍ وَتَعَطُّفِ
بِمُبَدِّدٍ فِي ٱلْحَرْبِ كُلَّ مُبَدَّلِ ... وَمُحَرِّمٍ إِبْقَاءَ كُلِّ مُحَرَّفِ
تَأْتِي وُفُودُ الروم تخطبُ سَلْمَهُ ... فَيَكُفُّ كَفَّ القادِرِ الْمُتَعَفِّفِ
وَوَلِيُّهُمْ يَخْشَى — فَيُرْدِفُ رُسْلَهُ — ... إِرْسَالَ جَيْشٍ بِٱلْمَلاَئِكِ مُرْدَفِ[94]
أَعِرِ[95] الجَوَابَ بِهَا عَلَى ظَمَإٍ لَهَا ... تَنْقَعْ جَوى الْمُتَشَوِّقِ الْمُتَشَوِّفِ
وَاجْنَحْ إِلَيْهَا مُنْعِماً مُتَفَضِّلاً ... لاَزِلْتَ أَكْرَمَ وَاهِبٍ مُتَعَطِّفِ
يَا نَاصِرَ الإِسْلامِ والْمَلِكَ الَّذِي ... نَالَ العُلَى طَوْعاً بِغَيْرِ تَكَلُّفِ
أَنسيتَ أَمْلاكَ الزَّمَانِ مَنَاقِباً ... والشُّهْبُ يُخْفِيها الصَّبَاحُ فَتَخْتَفِي
فَإِذَا نَهَيْتَ الدَّهرَ أَذْعَنَ صَاغِراً ... وَإِذَا أَمَرتَ النَّصرَ لَمْ يَتَوَقَّفِ
وإِذَا أَجَلْتَ الْخَيْلَ خَلَّفتِ الْعِدَى ... صَرْعَى ونصرُ ٱللَّهِ لم يَتَخَلَّفِ
وَتَشُقُّ أَنْهَارُ الظُّبَا روضَ القَنَا ... عَجباًونَارُ حروبِهَا لا تَنْطَفِي
يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي قُصَّادُهُ ... وَنَدَاهُ بَيْنَ تَفَرُّقٍ وَتَأَلُّفِ
بُشْرَى بِأَكْرَمِ وَافِدٍ آبَاؤُهُ ... قِدْماً تَلاَفَوْا كُلَّ خَطْبٍ مُتْلِفِ

(93) يقلّد الشاعر هنا عنعنة أصحاب الحديث.

(94) أي أن ولي الروم والوصي على عرشهم يومئذ كان يرسل الوفد تلو الوفد في طلب الهدنة لأنه كان يخشى أن يكون الجواب كما في الآية الكريمة : «فاستجَابَ لكُمْ أنّي مُمِدُّكم بألفٍ من الملائكةِ مُرْدَفين».

(95) يمكن قراءتها في المخطوط أيضا : أعد.

وَاهْنَــأْ بِأَسْعَــدِ نَاجِــمٍ أَنْــوَارُهُ يُجْلَى بِهَا جِنْحُ الظَّلاَمِ الْمُسْدِفِ
تُنْبِــي مَخَائِلُــهُ الْكَرِيمَــةُ أَنَّــهُ لِلجُودِ يُنْجِزُ كُـلَّ وَعْـدٍ مُخْلِـفِ
تَــقْضِي مَنَاسِبُــه الشَّرِيفَــةُ أَنَّــهُ بِسِوَى الْمَكَارِمِ والعُلَى لَمْ يَكْلَفِ
عُقِدَتْ لَهُ زُهْرُ النُّجُومِ تَمَائِمـاً فَتَشَرَّفَتْ قَبْـلَ الـحُسَامِ الْمَشْرَفِـي
وَقَفَتْ تُعِيـذُ مِـن الْعُيُـونِ كَمَالَـهُ وَكَأَنَّهُــنَّ نَواظِــرٌ لَــمْ تُطْــرِفِ
وَافَــى فَهَنَّأَنَــا إِمَامــاً مُنْعِمــاً لَـوْلاَهُ عَارِفَـةُ النَّـدَى لَـمْ تُعْـرَفِ
وَلَقَــد لَثَمْنَاهَــا يَمِينــاً أَمَّــنَتْ وَطَنــاً مُنَاوِيــهِ رَهِيــنُ تَخَــوُّفِ
وَتَهلَّــلَتْ دَارُ الخِلاَفَــةِ عِنْدَمَــا حَيّا بِـهِ وجـهُ الزَّمَـانِ الْمُسْعِـفِ
وَخَوَافِقُ الأَعْلاَمِ فِيهَا قَدْ حَكَتْ قَـلْبَ الْعَـدُوِّ الْمُلْحِـدِ الْمُتَخَـوِّفِ
تَهْفُو عَلَى أُفْقِ الْهُـدَى عَذَبَاتُهَـا[96] مِثْلَ الْكَرِيمِ يَجُرُّ ذَيْلَ المِطْرَفِ[97]
واسْتَشْرَفَتْ أَوْطَانُهَــا لِــوُرُودِهِ وَلَكَمْ بِهَا لِعُـلاَهُ مِـنْ مُسْتَشْرِفِ
وَلِرَاحَتَيْهِ ارْتَـاحَ شَوْقاً مَـا بِهَـا طَوْعَ الْعُلَى مِنْ ذَابِلٍ أَوْ مُرْهَفِ[98]
وَانْسَابَ نَهْرُ الجُودِ فِي رَوْضِ الْمُنَى مِنْ تَحْتِ ظِلٍّ لِلأَمَـانِ مُسَجَّـفِ
وَمَنَابِرُ الدِّينِ الْحَنِيـفِ زَهَتْ بِـهِ زَهْـوَ الخِلاَفَـةِ بِالإِمَـامِ الأَشْرَفِ
وَأَسِرَّةُ الْمُـلْكِ الْعَزِيـزِ سُرُورُهَــا قَدْ هَزَّ لِـلإِسْلاَمِ أَكْـرَمَ مَعْطِـفِ
وَارْتَاحَتِ الْخَيْلُ السَّوَابِقُ وانْثَـنَتْ تَخْتَــالُ بَيْــنَ تَشَوُّفٍ وَتَشَرُّفِ
وَلَسَوْفَ تُتْلِعُ كُلَّ جِيـدٍ مُشْرِفٍ فِي الرَّوْعِ يُرْدِي كُلَّ بَاغٍ مُسْرِفِ
وَلَسوْفَ يَعْلَمُ أَنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَدْ حَيَّا بِوَعْـدٍ مِنْـهُ غَيْـرِ مُسَوِّفِ
فَاسْعَدْ بِهِ لاَزِلْتَ تَمْنَحُـهُ الـرِّضَا وَتُرِيهِ من سُبُلِ الهُدَى مَا يَقْتَفِي
وَلَقَدْ سَلِمْتَ فَمَا أُصِيبَ بِحَادِثٍ جَلَـلٍ أَلَـمَّ وَلاَ بِحَـالِ تَـأَسُّفِ
أَوَ مَـا بَقَـاؤُكَ لِلْخَلاَئِقِ رَحْمَــةٌ تَهمِـي غمائـمُ جودِهَـا بِتَلَطُّــفِ
أَوَ مَا وُجُودُكَ لِلْخَلاَئِقِ عِصْمَــةٌ تَـقْضِي لِشَمْـلِ وُجُودِهِـمْ بِتَأَلُّــفِ

---

(96) العذبات : ما يرخى من العمامة، والمراد هنا خِرَق الألوية التي تخفق.

(97) المِطرف : الرداء.

(98) الذابلُ ينعت به القناء، والمرهف ينعت به السيف.

أَوَ مَا دَوَامُكَ مِنْ عِدَاهُمْ جُنَّةٌ تَكْفِيهِمُ وَبِهَا الْمُؤَمِّلُ يَكْتَفِي
أَوَ مَا سُعُودُكَ فِي لِقَاهُمْ آيَةٌ تَشْفِي وَصَدْرُ الدِّينِ مِنْهُم يَشْتَفِي
مَوْلاَيَ سَمْعاً فَامْتِدَاحُكَ طَالَمَا رَقَّى عَبِيدَكَ لِلْمَحَلِّ الأَشْرَفِ
أَنَا غَرْسُ نِعْمَتِكَ الذِي آدَابُهُ رَوْضٌ أَزَاهِرُ مَدْحِهِ لَمْ تُقْطَفِ
صَدَفُ الطُّرُوسِ يَضُمُّ مِنْهُ جَوَاهِراً أَفْكَارُهُ عَنْ نَظْمِهَا لَمْ تَصْدِفِ
مَوْلًى وَعَبْدٌ وَالنِّظَامُ لَئَالِىءٌ تَوِّجْ وَطَوِّقْ كَيْفَ شِئْتَ وَشَنِّفِ
لاَزِلْتَ لِلأَمْلاَكِ وِجْهَةَ قَصْدِهِمْ فَجَمِيعُهُمْ يُبْدِي اعْتِرَافَ الْمُنْصِفِ

وَمِنَ المَقَاصِدِ الْمَوْلَوِيَّةِ اليُوسُفِيَّةِ النَّاصِرِيَّةِ النَّصْرِيَّةِ

مَا حَقُّهُ أَنْ يَكُونَ بِذَوْبِ الذَّهَبِ مَرْسُوما، وَأَنْ تَسْتَفِيدَهُ طَلَبَةُ ٱلْعِلْمِ مَآخِذَ خَطِيرَةً وَعُلُوما، وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا الْمَوْلَى أَعْجَبَ فِي الرِّثَاءِ، وَوَفَى لِعَهْدِ السَّكَنِ الْكَرِيمِ حَقَّ الْوَفَاءِ، فَنَظَمَ كُلَّ بَدِيعٍ تُصْغِي الأَسْمَاعُ إِلَيْهِ، وَتَتَقَلَّبُ القُلُوبُ رَحْمَةً لَدَيْهِ، وَكَانَ مِنْ مَشِيئَةِ ٱللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أَثَرِ وَفَاةِ الْوَالِدَةِ، وَمَصِيرِهَا إِلَى أَلْطَافِ ٱللَّهِ وَرَحَمَاتِهِ الْمُتَعَاهِدَةِ، أَنِ اسْتَأْثَرَ ٱللَّهُ بِهَذَا الْمَوْلَى الأَمِيرِ وَضَمَّهُ لَحْدُه، وَجَاءَ مَوْلاَنَا وَالِدُهُ مِنْ أَجْلِ مُصَابِهِ بِمَا لاَ يَحْصِيهِ الْقَوْلُ مِنَ الإِبْدَاعِ وَلاَ يَحُدُّه، فَمِنْ ذَلِكَ :

بُعْداً لِيَوْمِ الخَمِيسِ مِنْ صَفَرِ لَمَّا جَرَى فِيهِ سَابِقُ الْقَدَرِ[99]
قَدْ أَخَذَ الْبَيْنُ حِذْرَهُ فَرَمَى أَفْئِدَةً لَمْ تَكُنْ عَلَى حَذَرِ
لِلَّهِ مِنْهَا وَالبَيْنُ مُقْتَبِلٌ ظَعَائِنٌ قُوِّضَتْ إِلَى السَّفَرِ
يَا صُورَةً قَدْ بَدَتْ مَحَاسِنُهَا فَعُوِّذَتْ فِي العُيُونِ بِالسُّوَرِ
وَيَا وَلِيَّ الْعُهُودِ مَا نَعِمَتْ فِي وَطَنِ الْمُلْكِ مِنْكَ بِٱلْوَطَرِ
يَا قِطْعَةَ الْقَلْبِ مُذْ نَأَيْتَ لَقَدْ تَرَكْتَ قَلْبِي لِلْوَجْدِ والفِكَرِ
يَا قُرَّةَ الْعَيْنِ مُذْ رَحَلْتَ لَقَدْ خَلَّفْتَ عَيْنِي لِلدَّمْعِ وَالسَّهَرِ
هَذِي القُلُوبُ الَّتِي قَدِ الْتَهَبَتْ بِوَاكِفٍ لِلدُّمُوعِ مُنْهَمِرِ

(99) توجد في الديوان : 77 ــ 78.

هَذِي العُيُونُ الَّتِي بَكَتْ أَسَفاً مَا مُتِّعَتْ فِي حُلاَكَ بِٱلنَّظَرِ
هَذِي النُّفُوسُ الَّتِي عَفَتْ كَمداً لَمْ يُبْقِ مِنْهَا الأَسَى(100) وَلَمْ يَذَرِ
هَذِي الخُطُوبُ الَّتِي مَتَى وَفَدَتْ أَبْقَتْ(101) إِلَى ٱلْعَيْنِ ذَاهِبَ الأَثَرِ
هَذِي الصَّبَا كُلَّمَا أَتَتْ سَحَراً أَهْدَتْ لِمَثْوَاكَ طَيِّبَ الخَبَرِ
لَو أَنَّ مَا بِي بِالأُفْقِ مِنْ أَسَفٍ مَا لاَحَ نُورٌ بِٱلأَنْجُمِ(102) الزُّهُرِ
لَوْ أَنَّ مَا بِي بِالرَّوْضِ مِنْ كَلَفٍ مَا اسْتُنْشِقَتْ مِنْهُ نَفْحَةُ الزَّهَرِ
لَوْ أَنَّ مَا بِي بِالسُّحْبِ مِنْ أَلَمٍ مَا أَرْسَلَتْ وَاكِفاً مِنَ الْمَطَرِ
أَيَّامُ أُنْسٍ غَدَا يُشَانُ بِهَا وَجْدِيَ بالطُّولِ وَهْيَ بِالْقِصَرِ
لَوْ كُنْتَ تُفْدَى بِٱلْمَالِ لاَبْتَدَرَتْ أَكُفُّنَا بِٱلْهِبَاتِ لِلْبِدَرِ
لَكِنَّهُ مَنْ يَرُدُّ صَرْفَ رَدًى صُرِّفَ فِي آمِرٍ وَمُؤْتَمِرِ
لَوْ رَدَّهُ الْمُلْكُ لاَنْثَنَى جَزَعاً مِنْ نَاصِرٍ بِالإِلاَهِ مُنْتَصِرِ
لَوْ رَدَّهُ الْعِزُّ لاَنْثَنَى وَجِلاً مُعْتَذِراً خَوْفَ بَطْشِ مُقْتَدِرِ(103)
لَوْ دَفَعَتْهُ الْكَتَائِبُ انْدَفَعَتْ إِلَيْهِ بِٱلْبِيضِ والقَنَا السُّمُرِ
لَكِنَّ سَمْعَ اسْمِهِ الْعَزِيزِ إِذَا مَا غَابَ عَنِّي يُغْنِي عَنِ النَّظَرِ
مُتِّعَ سَمْعِي بِذِكْرِهِ أَبَداً إِذْ لَمْ يُمَتَّعْ بِحُسْنِهِ بَصَرِي

وَمِنْ ذَلِكَ(104)

إِنَّ(105) لِلْهَمِّ خَمِيسْ ثَارَ فِي يَوْمِ الْخَمِيسْ

---

(100) في الديوان : الهوى.
(101) في الديوان : ألقت.
(102) في الديوان : للأنجم.
(103) الذي في الديوان من البيتين هو ما يلي :
لو ردّه الملك لانثنى وجلا مُعْتَذِراً خوف بطش مقتدر
(104) الديوان : 155 ــ 156 وفي التقديم : «وممّا نظمناه تفجّعاً على ولدنا نفع الله به».
(105) في الأصل : آن مع تضبيب في الطّرة، والتصويب من الديوان.

ضَحِكَتْ سِنٌّ[106] الرَّدَى عَنْهُ فِي يَوْمٍ عَبُوسْ
وَتَبَدَّى وَجْهُهُ بَيْنَ بُؤْسٍ وَعَبُوسْ
فَلَكَمْ لِلدَّهْرِ مِنْ حَالَتَيْ نُعْمَى وَبُوسْ
وَالحِمَامُ كَمْ لَهُ مِنْ مُعَاطَاةِ كُؤُوسْ
قِطْعَةٌ مِنْ كَبِدِي جُعِلَتْ فَوْقَ الرُّؤُوسْ
صَدَفَ[107] اللَّحْدِ مَضَى مِنْهُ بِالدُّرِّ النَّفِيسْ
والثَّرَى أُفْقٌ غَدَا فِيهِ مَغْرِبُ الشُّمُوسْ
شِبْلُنَا كَمْ مَرْبِضٍ قَدْ خَلاَ مِنْهُ وَخِيسْ
فَرُبُوعُ أُنْسِهِ لَيْسَ فِيهَا مِنْ أَنِيسْ
لَوْ أَتَى غَيْرُ الرَّدَى لَحَمَتْ نَارُ الْوَطِيسْ
بِجِيَادٍ ضُمَّرٍ نُظَّرِ ٱلْعُيُونِ شُوسْ
فِي قِتَالِ الرُّومِ قَدْ أُضْرِمَتْ نَارَ الْمَجُوسْ
لاَ يُوَفَّى وَصْفُنَا[108] بِالْيَرَاعِ فِي الطُّرُوسْ
خَضَعَتْ لِمُلْكِنَا آلُ هُودٍ وَحَبُوسْ
كَمْ سَرَتْ بِذِكْرِهِ مِنْ ظَعَائِنٍ وَعِيسْ
وَتَرَكْنَا لِلرَّدَى مِنْ رَهِينٍ وَحَبِيسْ
عَزَّ فِي أَنْدَلُسٍ وَعِرَاقَيْنِ وَسُوسْ
غَيْرَ أَنَّ الْمَوْتَ إِذْ يَتَلاَقَى بِالنُّفُوسْ
كُلُّ مَرْؤُوسٍ يُرَى فِي يَدَيْهِ وَرَئِيسْ

(106) في الأصل : مِنٌّ، مع تضبيب في الطرة، والتصويب من الديوان.
(107) وردت محرفة في أصل الديوان فجعلها المحقق مدر، والصواب ما هنا.
(108) هكذا وردت في أصل الديوان أيضاً وصوّبها المحقق كما يلي : وصفها.

وارتجـلَ عنـد ذَلِـك مملُـوكُ
مَوْلاَنَا نصره آللّهُ أبو الحسيْن بنُ فُرْكُون[109]

يَميناً لَقَدْ جازَ الأَسَى مُنْتَهَى الحَدِّ ... فَيَالَيْتَ حُسْنَ الصَّبْرِ فِي مِثْلِهَا يُجْدِي[110]
مُصَابٌ بِهِ بَانَتْ مِن الدَّهْرِ عَثْرَةٌ ... وَضَلَّتْ بِهِ الأَيَّامُ عَنْ سَنَنِ الرُّشْدِ
وَهَلْ هُوَ إلاَّ النَّجْمُ أُطْلِعَ نَيِّـراً ... وَوَجْهُكَ صُبْحٌ لاَحَ فِي أُفُقِ آلْمَجْدِ
فَلاَ عَجَبٌ لَمَّا بَدَا مِنْ غُرُوبِـهِ ... أَيَلْتَاحُ نَجْمٌ وَالضُّحَى نُورُهُ يَهْدِي
وَكَانَ كَمَا تَبْغِي الخِلاَفَةُ قَدْ غَدَتْ ... عَلَى وَجْهِهِ سِيمَا مِنَ آلأَبِ وَآلْجَدِّ
وَكَانَ كَمَا تَهْوَى المكارِمُ قَدْ بَدَتْ ... مَخَائِلُ مِنْ قَيْسٍ عَلَيْهِ وَمِنْ سَعْدِ
وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْمُلْكُ هَزَّ مُهَنَّـداً ... وَشَمَّرَ مِنْهُ النَّصْرُ عَنْ سَاعِدِ الجِدِّ
وَهَلْ هُوَ إلاَّ السَّيْفُ جُرِّدَ لِلْعِدَى ... فَلَمَّا تَمَادَى سَلْمُهَا رُدَّ فِي غِمْدِ
وَهَلْ هُوَ إلاَّ الرُّمْحُ أُشْرِعَ نَصْلُهُ ... فَقَصَّدَهُ دَهْرٌ ثَنَاهُ عَنِ الْـقَصْدِ
وَهَلْ هُوَ إلاَّ الطِّرْفُ أُرْسِلَ سَابِقاً ... إلَـى أَمَـدِ الْعَلْيَـاءِ فَارْتَـاحَ لِلـرَّدِ
وَهَلْ هُوَ إلاَّ الْغَيْثُ أَقْلَعَ إذْ سَقَى ... مَعَاهِدَنَا مِنْ أُفْقِهِ وَاكِـفُ الْعَهْـدِ
وَلَمَّا انْقَضَتْ غُرُّ الْوَلاَئِمِ وانْثَنَتْ ... وُفُودُ النَّدَى تُثْنِي عَلَى صَيِّبِ الرِّفْدِ
جَـرَى قَـدَرٌ فَاسْتَأْثَـرَ آللَّـهُ رَبُّـهُ ... بِهِ وَخَلَتْ مِنْ بَدْرِهِ هَالَةُ الْمَهْدِ
شِهَابٌ تَوَارَى فِي الثَّرَى بَعْدَمَا بَدَا ... مَـلاَذاً لِمُسْتَجْـدٍ وَنُـوراً لِمُسْتَهْـدِ
فَمَا غَابَ إلاَّ بَعْدَمَا نَالَتِ الهُدَى ... وَلاَ غَاضَ إلاَّ حِينَ كَفَّتْ عَنِ الْوِرْدِ
وَمَا ضَمَّهُ بَطْنُ الضَّرِيحِ وإنَّمَـا ... تَضَمَّنَ مِنْهُ جَوْهَراً صَدَفُ اللَّحْـدِ
تَعَـزَّ أَمِيـرَ الْمُسْلِمِيـنَ فَإِنَّنَـا ... نَرَى كُلَّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ إلَى حَدِّ
تَـأَسَّ أَمِيـرَ الْمُسْلِمِيـنَ فَإِنَّمَـا ... هُوَ القَدَرُ الْمَحْتُومُ جَاءَ إلَى وَعْدِ

---

(109) تقدم التعريف به.

(110) هي موجودة أيضا في الديوان : 132 ـــ 133، وقد جاء في تقديمها ما يلي : «وكانت والدة هذا المولود قد توفيت إثر ولادته ولحق بها في سادس صفر عام اثني عشر وثماني مائة، فقلت للحين مرتجلاً».

بِأَفْعَالِكَ الْغُرِّ الْكَرِيمَةِ يُقْتَدَى   وَجَمْعِ الْمَعَالِي مِنْكَ فِي الْعَالَمِ الْفَرْدِ
فَلاَزِلْتَ مِنْ رَيْبِ الْحَوَادِثِ آمِناً   تَنَالُ الْمُنَى فِيمَا تُعِيدُ وَمَا تُبْدِي

وأَنشَدَهُ رَئِيسُ كُتَّابِ مَقَامِهِ الْكَرِيمِ،
المخصوصِ بالتَّجلَّةِ والتَّكْرِيمِ، الْوَزِيرُ المُعَظَّمُ
أَبُو بَكْرٍ بنُ عَاصِمَ وَصَلَ اللَّهُ عِزَّتَه،
مُهَنِّئاً بِعِيدِ الأَضْحَى مِنْ عَامِ أَحَدِ عَشَرَ وَثَمَانِمَائَةَ(111)

زَمَانُ التَّدَانِي بِالأَمَانِيِّ مُسْعِفُ   وَحَالُ الرِّضَى مِنْ يُمْنِهِ تُتَعَرَّفُ
وتُبْلِغُنِي رِيحُ الصَّبَا مِنْ لَدُنْكُمُ   رَسَائِلَ فِيهَا رأفَةٌ وَتَعَطُّفُ
وَجَدَّدَ شَوْقِي مَوْقِفِي فِي مَعَاهِدٍ   تَشُوقُ إِلَى عَهْدِ الصِّبَا وَتُشَوِّفُ
وَقَفْتُ بِهَا أُخْفِي غَرَامِي وَأَدْمُعِي   تَبُوحُ بِمَكْنُونِ الْهَوَى وَتُعَرِّفُ
وَأَرْسَلْتُ لَحْظِي عِنْدَهَا فِي حَدَائِقٍ   يَمِيلُ بِهَا مِنْ يَانِعِ البَانِ مَعْطِفُ
وَخِلْتُ شَذَا الأَزْهَارِ تَحْمِلُهُ الصَّبَا   ثَنَاءَ ابْنِ نَصْرٍ حِينَ يُحْكَى وَيُوصَفُ
وَمِمَّا أَثَارَ الْوَجْدَ بَيْنَ جَوَانِحِي   حَمَامٌ بِأَعْلَى الدَّوْحِ قَدْ ظَلَّ يَهْتِفُ
يُرَدِّدُ سَجْعاً بَعْدَ سَجْعٍ كَشَاعِرٍ   عَلَى مَدْحِ مَوْلاَنَا الْخَلِيفَةِ يَعْكِفُ
وَأَرَّقَنِي بَرْقٌ تَأَلَّقَ فِي الدُّجَى   كَمَا هُزَّ رُمْحٌ أَوْ كَمَا سُلَّ مُرْهَفُ
فَمَا خِلْتُهُ إِلاَّ رَأَى سَيْفَ يُوسُفٍ   فَرَامَ يُحَاكِيهِ فَيَهْوِي وَيُشْرِفُ
أَلاَ يَا وَمِيضَ الْبَرْقِ هَلْ أَنْتَ مُسْعِدٌ   عَلَى السُّهْدِ أَجْفَانِي وَهَلْ أَنْتَ مُسْعِفُ
وَيَا رَاكِباً جَدَّ الْمَسِيرُ بِهِ الْتَفِتْ   لِصَبٍّ لَهُ فِي جَانِبِ الْحَيِّ مَوْقِفُ
وَيَا حَادِياً بِالْعِيسِ قَدْ لاَزَمَ السُّرَى   يُكِلُّ الْمَطَايَا عَزْمُهُ وَيُكَلِّفُ
أَرِحْهَا فَإِنَّ الأَمْنَ وَالْعِزَّ وَالْغِنَى   وَنَيْلَ الْمُنَى مِنْ دُونِ مَا تَتَكَلَّفُ
إِذَا مَا الْمَقَامُ النَّاصِرِيُّ قَصَدْتَهُ   فَلاَ الرِّفْدُ مَنْزُورٌ(112) وَلاَ الْوَعْدُ مُخْلَفُ
تَرَى مَلِكاً يُولِي الجَمِيلَ تَفَضُّلاً   وَيُحْسِبُ(113) آمَالَ الْعُفَاةِ وَيُسْعِفُ

(111) تقدّم ذكره وتحليته بالوزير الرئيس، وقد حُلّي هنا برئيس الكتاب والوزير المعظم.
(112) الرّفد : العطاء، ومنزور : نزر أي قليل.
(113) ويُحْسب آمال العفاة أي يكثر عطاء السائلين.

وَلِلَّهِ قَوْمٌ أَخْلَصُوا الْقَصْدَ فِي السُّرَى ... وَلَمْ يَثْنِهِمْ عَنْ عَزْمِهِمْ مَا تَكَلَّفُوا
هُمُ الْقَوْمُ أَمُّوا خَيْرَ مَنْ وَطِىءَ الثَّرى ... وَحَثُّوا الْمَطَايَا فِي الْفَلاَةِ وَأَوْجَفُوا
وَمِثْلِيَ مِمَّنْ قَيَّدَتْهُ ذُنُوبُهُ ... يُجَدِّدُ وَعْداً بِالْمَسِيرِ وَيُخْلِفُ
وَلكِنَّنِي إِنْ يَمْطِلِ الدَّهْرُ بِٱلْمُنَى ... فَحَسْبِي ابْنُ نَصْرٍ نَاصِرُ الدِّينِ يُوسُفُ(114)
فَرُؤْيَةُ مَرْآهُ الْكَرِيمِ عِبَادَةٌ ... وَخِدْمَتُهُ زُلْفَى إِلَى ٱللَّهِ تُزْلِفُ(115)
هُوَ ٱلْمَلِكُ الْمَشْهُورُ بَأْساً وَنَائِلاً ... يُعَادِي فَيُرْدِي أَوْ يُوَالِي فَيَكْنُفُ
وَإِنْ يَبْدُ حَيْفٌ مِنْ مُلُوكِ زَمَانِهِ ... يُشِيرُ فَيَهْدِي أَوْ يَجُورُ فَيُنْصِفُ
وَإِنْ كَلِفُوا يَوْماً بِلَهْوٍ فَإِنَّهُ ... بِمَا فِيهِ تَقْوَى ٱللَّهِ يُعْنَى وَيَكْلَفُ
مآثِرُهُ فِي ٱلْحِلْمِ والبَأْسِ والنَّدَى ... غَرَائِبُ تُحْكَى فِي ٱلزَّمَانِ وَتُوصَفُ
وَمَرْآهُ فِي يَوْمِ السَّمَاحِ وَكَفُّهُ ... إِيَاةُ الضُّحَى والْعَارِضُ الْمُتَوَكِّفُ
وَمَثْوَاهُ لِلرَّاجِي مَثَابَةُ رَحْمَةٍ ... وَلِلْخَائِفِ الْمَطْرُودِ مَنْجًى وَمَأْلَفُ
تَجَلَّى بِأُفْقِ المُلْكِ بَدْرَ هِدَايَةٍ ... إِلَى الرُّشْدِ يَهْدِي أَوْ مِنَ الحَقِّ يُزْلِفُ
وَإِخْوَتُهُ فِيهِ وَأَبْنَاءُ عَمِّهِ ... نُجُومُ سُعُودٍ يُمْنُهَا مُتَعَرَّفُ
نَمَتْهُمْ لأَنْصَارِ النَّبِيِّ خَلاَئِفٌ ... بِهِمْ أَصْبَحَتْ قَحْطَانُ تَعْلُو وَتَشْرُفُ
لَهُمْ فِي جِهَادِ الكَافِرِينَ مَآثِرٌ ... يُزَارُ بِهَا الْبَيْتُ الْعَتِيقُ وَيُتْحَفُ
أَلاَ أَيُّهَا الْمَوْلَى الَّذِي لِمَقَامِهِ ... عَلَى كُلِّ مُلْكٍ بِالْجِهَادِ تَشَرُّفُ
لأَنْتَ الَّذِي أَعْلَى بِكَ ٱللَّهُ دِينَهُ ... وَأَمَّنَهُ مِنْ كُلِّ مَا يَتَخَوَّفُ
وأخلصتَ لِلَّهِ الجِهَادَ فأصبَحتْ ... بِلادُ العِدَى من خوفِ بأسِكَ تَرْجُفُ

---

(114) في الطرة : فيه إيهام أنّه ثناه عن عزمه وأنه ليس من القوم، فلو قال : شكوت ابن نصر الخ.

(115) تزلف أي تقرّب.

(116) إياة الضحى : نورها وضوءها وحسنها.

(117) والعارض المتوكّف : السحاب المطر.

(118) يزار بها : كذا في الأصل، ولعلّها : يزان بها.

(119) ملك : ضبطت في الأصل بضم الميم ولعلها بالفتح بمعنى ملك أي أن الممدوح شرف بالجهاد على كل الملوك.

(120) ترجف أي تضطرب وترتعد.

وَرُعْتَ قُلُوبَ الرُّومِ قَبْلَ قِتَالِهِمْ … فَلَيْسَ لَهُمْ عَنْ مَطْلَبِ السِّلْمِ مَصْرِفُ
فَمَا نَوْمُهُمْ بِالذُّعْرِ إِلاَّ تَهَوُّمٌ … وَلاَ شَأْنُهُمْ فِي ٱلدَّهْرِ إِلاَّ تَخَوُّفُ
فَكَيْفَ إِذَا قُدْتَ الجُيُوشَ لأَرْضِهِمْ … تُزَلْزِلُ مِنْهَا مَا اطْمَأَنَّ وَتَنْسِفُ
فَإِنْ تَنْصُرِ الإِسْلاَمَ بِٱلْبَأْسِ والنَّدَى … وَتَحْمِيهِ مِمَّا يَتَّقِيهِ وَتَكْنُفُ
فَقَوْمُكَ أَنْصَارُ النَّبِيِّ وَحِزْبُهُ … غَدَاةَ دُعُوا لِلنَّصْرِ لَمْ يَتَخَلَّفُوا
فَفِي أُحُدٍ مَا حَادَ عَنْ مَقْتَلِ العِدَى … لَهُمْ ذَابِلٌ كَلاًّ وَلاَ كَلَّ مُرْهَفُ
وَحَنَّتْ ظُبَاهُمْ فِي حُنَيْنٍ لِوِرْدِهَا … فَعَادَتْ رِوَاءً مِنْ دَمِ الشِّرْكِ تُنْزَفُ
وَكَانُوا بُدُوراً يَوْمَ بَدْرٍ وَكُلُّهُمْ … عَنِ الْقِرْنِ لاَ وَانٍ وَلاَ مُتَخَوِّفُ
أُوْلَئِكَ قَوْمٌ أَثْبَتَ الْوَحْيُ مَدْحَهُمْ … فَذِكْرُ عُلاَهُمْ فِيهِ يُتْلَى وَيُوصَفُ
هَنِيئاً أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ بِمَوْسِمٍ … بِهِ الْيُمْنُ يَبْدُو والْمُنَى تُتَكَيَّفُ
وَبُشْرَى بِعِيدٍ طَالَعَتْكَ سُعُودُهُ … بِنَصْرٍ بِهِ ٱلْفَتْحُ الْمُبِينُ يُكَيَّفُ
أَقَمْتَ مِنَ ٱلإِسْلاَمِ فِيهِ شَعَائِراً … مَثُوبَتُهَا عِنْدَ الإِلاَهِ تُضَعَّفُ
وَلُحْتَ لِتَسْلِيمِ الوُفُودِ وَكُلُّهُمْ … إِلَيْكَ وإِنْ لَمْ يَحْتَجِبْ مُتَشَوِّفُ
تَمُدُّ إِلَى التَّقْبِيلِ كَفّاً كَرِيمَةً … تَجُودُ إِذَا جَوْدُ الغَمَائِمِ يُخْلِفُ
وَسَحَّتْ عَلَى الْقُصَّادِ مِنْكَ مَوَاهِبٌ … غَدَا دُونَهَا صَوْبُ الْحَيَا الْمُتَوَكِّفُ
فَعَمَّتْهُمُ النُّعْمَى فَرَاحُوا وَكُلُّهُمْ … عَلَى شُكْرِ مَا أَوْلَيْتَ مِنْ ذَاكَ يَعْكِفُ
فَلاَزِلْتَ فِي ظِلِّ ٱلْخِلاَفَةِ وَادِعاً … وَبَابُكَ مَأْوًى لِلْوُفُودِ وَمَأْلَفُ
وَإِنَّ الْحَجِيجَ الْيَوْمَ عَادُوا إِلَى مِنًى … وَقَدْ بُلِّغُوا مِنْهُ الْمُرَادَ وَأُسْعِفُوا
وَلَمَّا قَضَوْا مِنْ حَجِّهِمْ كُلَّ مَنْسَكٍ … جَزَاؤُهُمْ فِيهِ الثَّوَابُ الْمُضَعَّفُ
ثَنَوْا قَصْدَهُمْ مِنْ مَكَّةٍ نَحْوَ طَيْبَةٍ … فَمَا مِنْهُمُ وَانٍ وَلاَ مُتَخَلِّفُ
فَوَافَوْا ضَرِيحاً حَلَّهُ خَيْرُ مُرْسَلٍ … وَأَكْرَمُ خَلْقِ ٱللَّهِ طُرّاً وَأَشْرَفُ
وَنَادَوْا وَلِلدَّمْعِ انْسِكَابٌ عَلَى الثَّرَى … وَقَدْ أَشْفَقُوا مِمَّا جَنَوْا وَتَخَوَّفُوا
إِلَيْكَ رَسُولَ ٱللَّهِ جُبْنَا مِنَ الفَلاَ … مَخُوفاً وَجُزْنَا الْبَحْرَ وَالْبَحْرُ أَخْوَفُ(121)

---

(121) أشار الشاعر هنا إلى مخاوف طريق الحاجّ المغربي في ذلك الزمان فطريق البر تحت رحمة قبائل بني هلال وسليم وطريق البحر تُسيطر عليه الروم، وهذا ما عبّر عنه عدد من الشعراء ومنهم الذي يقول :

وَمَأْمُلُنَا مِنْكَ الشَّفَاعَةُ فِي غَـدٍ فَرَاجِيكَ لاَ يَشْقَى وَلاَ يَتَخَـوَّفُ
فَنُودُوا جَمِيعاً أَبْشِرُوا نِلْتُمُ الْمُنَى وَكُلُّكُـمُ فِيمَـا يُؤَمِّـلُ يُسْعَـفُ
وَقَدْ شَمِلَتْ مَنْ زَارَ قَبْرِي شَفَاعَتِي وَإِنْ كَانَ مِمَّنْ كَان فِي الذَّنْبِ يُسْرِفُ
أَزُوَّارَ بَيْتِ اللَّـهِ وَالْحَرَمِ الَّـذِي بِـهِ أَمِـنَ الْقُصَّادُ أَنْ يُتَخَطَّفُـوا[122]
بِعَيْشِكُمُ مَنْ ذَا الَّذِي حُسْنُ ذِكْرِهِ يُهَادَى بِهِ مَنْ بِالْحَطِيمِ وَيُتْحَفُ
وَيَدْعُـو لَـهُ بِالنَّصْرِ كُـلُّ مُوَحِّـدٍ وَقَدْ ضَمَّ فِي تِلْكَ الْمَشَاهِدِ مَوْقِفُ
سِوَى مَلِكِ الإِسْلاَمِ هَذَا فَمُلْكُـهُ بِـهِ أَمِنَ الإِيمَـانُ مَـا يُتَخَـوَّفُ
فَيَا مَنْ لَهُ الْمُلْكُ الشَّهِيرُ وَمَنْ بِهِ جَمِيعُ مُلُوكِ الأَرْضِ طُرّاً تَشَرَّفُوا
جِهَـادُكَ مَذْكُـورٌ هُنَـاكَ وَكُلُّهُـمْ لأَنْبَائِـــهِ مُسْتَطْلِـــعٌ مُـــتَشَوِّفُ
وَمَهْمَا دَعَوْا أَن يُعْلِيَ اللَّهُ دِينَـهُ وَيَنْصُرُ مَنْ يَحْمِي حِمَاهُ وَيَكْنُـفُ
فَذِكْرُكَ فِي ذَاكَ الدُّعَاءِ مُخَصَّصٌ وَحَـظُّكَ مِنْـهُ وَافِـرٌ لاَ مَطَفَّـفُ[123]
وَدُونَكَ مِـنْ غُـرِّ الْقَصَائِـدِ غَـادَةً عَلَيْهَا مِنَ الإِحْسَانِ بُـرْدٌ مُفَـوَّفُ[124]
مُهَذَّبَـةً مَـا نَظْمُهَـا بِمُقَعَّـرٍ[125] وَلاَ اللَّفْظُ حُـوشِيٌّ وَلاَ مُتَكَلَّـفُ
وَلَمَّا رَأَيْتُ النَّظْمَ بِالْمَدْحِ لاَ يَفِي وَأَنَّكَ قَدْراً فَوْقَ مَا فِيهِ تُوصَفُ
ثَنَيْتُ عِنَانِـي وَارْتَمَيْتُ مُقَبِّـلاً بِيُمْنَـاكَ وَالتَّقْبِيـلُ فِيهَـا تَشَرُّفُ
فَكُلُّ بَلِيغٍ عَـنْ مَدِيحِكَ قَـاصِرٌ وَمَنْ يَعْتَرِفْ بِالْعَجْزِ عَنْهُ فَمُنْصِفُ
وَعَوَّدْتَنِي الإِغْضَاءَ وَالصَّفْحَ وَالرِّضَى فَـأَنْتَ الْحَلِيـمُ الْمُنْعِمُ الْمُتَعَطِّـفُ
بَقِـيتَ تَلَقَّـاكَ الْبَشَائِـرُ كُلَّمَـا تَثَنَّى لِغُصْنِ البَانِ فِي الرَّوْضِ مَعْطِفُ

بيْن الحجاز وبين الغرب قاطعةٌ من العوائق سُدَّت دونَها الطُّرقُ
عوفٌ وزُغْبٌ ودبَابٌ وسالِمُهـا والهَيّبونَ وزُومُ البَحْر والغَـرَقُ
ولهذا افتى بعض علماء الأندلس قديما بسقوط الحج عن أهل الأندلس والمغرب يومئذ.

(122) يشير إلى قوله عز وجل : ﴿أَوَ لَمْ يروْا أنّا جعَلْنا حَرَماً آمِناً ويُتَخطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ العنكبوت : 67.

(123) مُطفَّف : مُخطَّط.

(124) بُرْد مُفَوّف : مُخطَّط.

(125) المُقعَّر : الذي فيه مبالغة وتكلّف.

وَلِعَبْدِ مَقَامِهِ ٱلْكَرِيمِ ٱلشَّيْخِ أَحْمد بنِ فُرْكُون[126]

وُقُوفُكَ بِٱلرَّبْعِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ ... مَنَازِهُــهُ أَحْسِنْ بِهَــا وَمَنَازِلُــهْ
أَمَا مَلِكُ الإِسْلاَمِ يُوسُفُ ٱلَّــذِي ... تَنَالُ لَدَيْهِ كُلَّ مَا أَنْتَ آمِلُــهْ
أَمَا بَهْجَةُ ٱلأَيَّامِ يُوسُفُ ٱلَّــذِي ... تَقُولُ بُدُورُ الأُفْقِ مَنْ ذَا يُمَاثِلُهْ
أَمَا فَارِسُ الْمَيْدَانِ يُوسُفُ ٱلَّــذِي ... تَدُلُّ عَلَى خَصْلِ السِّبَاقِ مَخَائِلُهْ[127]
أَمَا شَرَفُ الأَمْلاَكِ يُوسُفُ الَّـذِي ... تُوَالِـي لَـهُ قَطْـعَ الفَلاَوَتُوَاصِلُــهْ
تَحُـلُّ لَدَيْـهِ والنَّـوَى بِرِكَابِهَــا ... يُسَائِلُ مَوْلىً لاَ يُخَيَّبُ سَائِلُــهْ
هَلِ الْقَيْـظُ مِمَّـا يُتَّقَـى وَظِلاَلُــهُ ... مُهَدَّلَةٌ[128] وَالرَّوْضُ تَنْـدَى خَمَائِلُــهْ
أَزَاهِـرُهُ مِـنْ خَـطٍّ يُمْنَـاهُ كُلَّمَــا ... بَدَتْ مُرْسَلاَتٍ فِي الطُّرُوسِ رَسَائِلُهْ
يَلُـوحُ عَلَيْهَـا مَـا يُنَـاسِبُ مُلْكَــهُ ... فَمَنْ ذَا يُسَامِي دُرَّهَا أَوْ يُسَاجِلُهْ
هُوَ الْمَلِكُ الهَادِي صَبَاحُ عُلُومِـهِ ... إِلَى كُلِّ عِلْمٍ واضحـاتٌ دَلاَئِلُــهْ
فَكَمْ صَادِرٍ قَدْ عَادَ عَن جَوْدِ جُودِهِ ... يُسَائِلُ عَنْ بَحْرِ النَّدَى أَيْنَ سَاحِلُهْ
إِلَيْـهِ مـآلُ الْمَـالِ وَهْـوَ مُبِيـدُهُ ... وَمَانِحُـهُ فِـي الصَّالِحَـاتِ وَبَاذِلُــهْ
وَمِنْ حَيْثُ تَمْهِيدُ الْبِـلاَدِ فَعَدْلُــهُ ... بِهِ قَامَتِ الدُّنْيَا فَمَـنْ ذَا يُعَادِلُــهْ
وَمِنْ شَأْنِهِ يَوْمَ الْوَغَى أَنَّ بَطْشَهُ ... بِمَنْزِلَـةِ الحَتْـفِ الْمُقَـدَّرِ نَازِلُــهْ
عَلَى حِينَ عَادَ الْيَوْمُ بِٱلْحَيِّ دَاجِياً ... وَلَمْ تَعْرِفِ الإِغْفَـاءَ لَيْـلاً غَوَائِلُــهْ
وَفِي أَخْذِهِ مِنْ عَفْوِهِ أَيُّ وَازِعٍ ... يُنَزِّهُــهُ عَــنْ مُسْتَــحِثٍّ يُعَاجِلُــهْ
وَإِنْ حِلْمُهُ أَوْ بَأْسُهُ قَدْ تَعَـارَضَا ... فَـلاَ سَائِـلٌ تُلْغَـى لَدَيْـهِ وَسَائِلُــهْ
سَمَاوِيَّــــةٌ أَنْصَارُهُ وسِمَاتُــــه ... وَنَصْرِيَّــــةٌ أَنْسَابُــــهُ وَقَبَائِلُــــهْ
وَأَعْمَالُـهُ فِـي ٱلآخِرِيـنَ كَأَنَّهَــا ... مُسَاجِلَــةٌ مَــا أَسْلَفَتْــهُ أَوَائِلُــهْ
عَـلاَءُ ارْتِقَـاءٍ لاَ يُطَـاوَلُ أُفْقُــهُ ... سَمَاءُ سَمَاحٍ لاَ تُـغِبُّ نَوَافِلُـهْ[129]

---

(126) تقدّم التعريف به.

(127) خصل السباق : إحرازه وإصابته، ومخائله : علاماته.

(128) مهدّلة : مسدولة.

(129) نوافله : عطاياه.

وَرَأْيٌ بِهِ لَحْظُ الْغَزَالَةِ[130] مُصْبِحٌ يُغَادِيهِ مَشْغُوفاً بِهِ وَيُغَازِلُهْ
لِيَلْقَى الثَّنَايَا غَيْرَ مُحْتَجِبِ السَّنَا وَقَدْ رَاقَهُ مِنْ مَظْهَرِ الْمُلْكِ ءَاهِلُهْ
مَآلُ الْمَعَالِي مُرْتَقىً وَإِنَالَةً لَدَى مَلِكٍ عَمَّ الْبَرِيَّةَ نَائِلُهْ
بِيُوسُفَ ارْتَاحَتْ[131] خُيُولُ جِهَادِهِ إِلَى أَمَدٍ دَلَّتْ عَلَيْهِ مَخَائِلُهْ
سَوَابِقُ لِلأَبْطَالِ بِالْعَمَلِ الَّذِي تُحَكِّمُ فِي حِزْبِ الصَّلِيبِ عَوَامِلُهْ
وَتَطْمَحُ لِلأُفْقِ الْمُنِيرِ كَأَنَّهَا تُنَازِعُهُ عَلْيَاءَهُ وَتُنَازِلُهْ
بِيُوسُفَ انْجَابَتْ[132] عَنِ النَّقْعِ أَوْجُهٌ أَنَارَتْ نَوَادِيهِ بِهِمْ وَمَحَافِلُهْ
هُمُ أَنْجُمٌ حَفَّتْ بِيُوسُفَ هَالَةً فَلِلَّهِ بَدْرٌ أَطْلَعَتْهُ مَنَازِلُهْ
كَأَنَّ بِعَدُوِّ الدِّينِ طَوْعَ انْهِزَامِهِ يَلُوذُ بِجُنْدِ الصَّبْرِ وَالصَّبْرُ خَاذِلُهْ
يَحِيدُ عَنِ الْمَشْبُوبِ مِنْ نَارِ حَرْبِهِ كَمَا حَادَ عَنْ جَمْرِ الْغَضَا مُتَنَاوِلُهْ
وَيُوسُفُ مَوْلاَنَا قَدِ ارْتَاحَ عِطْفُهُ فَجَاءَتْ بِهَبَّاتِ الشَّمَالِ شَمَائِلُهْ
تُثِيرُ سِجَالَ الْحَرْبِ عَزْمَتُهُ الَّتِي تُبَادِرُ حِزْبَ الْمُلْتَقَى وَتُعَاجِلُهْ
سَتُلْفِي وَلِيَّ الْكُفْرِ يَا نَاصِرَ الْهُدَى وَرَامِحُهُ يُلْقِي السِّلاَحَ وَنَابِلُهْ
وَيَسْأَلُ مِنْكَ الْعَفْوَ بَدْءاً وَعَوْدَةً وَعَاذِرُهُ يَرْجُو رِضَاكَ وَعَاذِلُهْ
وَهَلْ أَنْتَ إِلاَّ عِصْمَةُ اللَّهِ أُهْدِيَتْ لِمُعْتَصِمٍ كَافِيهِ أَنْتَ وَكَافِلُهْ
يَقُولُ الَّذِي يُمْنَاكَ قَبْلَ هَذِهِ أَنَامِلُ قَدْ جَادَتْ بِمَا أَنَا آمِلُهْ

وَقَالَ أَيْضاً يمدحه أَيَّدَهُ اللّه وَيُشِيرُ إِلَى طَرِيقَةِ الْقَوْمِ[133] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

إِذَا نَحْنُ بِالوَادِي الْمُقَدَّس خَيَّمْنَا تَبَدَّى لَحَادِي الرَّكْبِ مِنْ خِيفَةٍ أَمْنَا

---

(130) الغزالة : الشمس.

(131) ارتاحت : تسابقت، والمرتاح : الخامس من خيل الحلبة.

(132) انجابت : انكشفت.

(133) القوم : هم المتصوفة، وقد كان لهم حضور كبير في غرناطة ومملكتها وكان ملوك بني نصر =

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

الإيداع القانوني رقم 1991/537

وَإِنَّا(134) تَصَفَّحْنَا كِتَابَ رِضَاهُمُ ... فَحَقٌّ عَلَيْنَا أَخْذُهُ بِالْيَدِ الْيُمْنَى
وَذِكْرَاهُمُ مَا بَيْنَ غَيْبٍ وَمَشْهَدٍ ... شِفَاءٌ يُدَاوِينَا إِذَا مَا تَأَلَّمْنَا
تَجَلَّتْ لَنَا أَنْوَارُهُمْ فِي ظَلاَمِنَا ... فَأَيْقَظَنَا دَاعِي الهُدَى بَعْدَمَا نِمْنَا
وَلِلَّهِ مِنَّا حَافِظُونَ لِعَهْدِهِمْ ... إِذَا مَا حَضَرْنَا فِي ٱلْمَعَاهِدِ أَوْ غِبْنَا
نُقَدِّسُ عَنْ وَصْفِ الْفَنَاءِ بَقَاءَهُمْ ... وَنَقْصِدُ أَنْ نَمْتَازَ بِالْمَقْصَدِ الأَسْنَى
عُبُودِيَةٌ عمتْ وخصَّتْ عِبَادَهُمْ ... فَمَا أَلْطَفَ الْمَوْلَى بِكُلِّ امْرِىءٍ مِنَّا
وَمَا أَعْظَمَ الرُّحْمَى وَأَجْزَلَ رِفْدَهُمْ ... حِمَاهُمْ قَصَدْنَا دَائِماً وَبِهِمْ لُذْنَا
تَنَعَّمَتِ الأَرْوَاحُ فِي ظِلِّ رَوْضِهِمْ ... فَمَا أَعْذَبَ السُّقْيَا وَمَا أَبْدَعَ السُّكْنَى
وَمَنْ رَاقَهُ حُسْنُ الْمَغَانِي وَأَهْلِهَا ... فَنَحْنُ عَبِيدُ الحُسْنِ فِي ذَلِكَ الْمَغْنَى
وَشَأْنُ الْمُحِبِّينَ الَّذِينَ تَذَاكَرُوا ... أَحَادِيثَهُمْ أَنْ يَعْرِفُوا اللَّفْظَ وَالْمَعْنَى
وَأَنْ يُبْلِغُوا عَنْهُمْ حَقَائِقَ لَمْ تَزَلْ ... تُرِينَا طَرِيقَ الرُّشْدِ مَهْمَا تَحَقَّقْنَا
هُمُ أَوْضَحُوا سِرَّ الهِدَايَةِ بَعْدَمَا ... جَهِلْنَا فَمَا غَابَتْ هِدَايَتُهُمْ عَنَّا
وَهَلْ فِيكُمُ وَالكَوْنُ بِٱلْحَقِّ شَاهِدٌ ... كَمَنْ شَرَّفَ الأَقْصَى مِنَ الخَلْقِ وَٱلأَدْنَى
رَسُولُ الْهُدَى غيثُ النَّدَى مُذْهِبُ الرَّدَى ... هُوَ الْكَهْفُ مَا أَعْلَى وَمَا أَوْثَقَ الْمَبْنَى
أَلاَ يَا خَلِيلَيَّ الصَّفِيَّيْنِ إِنَّمَا ... حَقِيقَةُ هَذَا الوَصْفِ مَا قَدْ تَخَيَّلْنَا
وُجُودٌ مَعَ ٱلأَشْيَاءِ قَبْلَ وُجُودِهَا ... وَوَارِثُهَا مِنْ غَيْرِ حَصْرٍ وَلاَ اسْتِثْنَا
نَهِيمُ بِه وَجْداً نَلُوذُ بِهِ حِمىً ... نُؤَمِّلُهُ عَطْفاً نُعَظِّمُهُ رُكْنَا
إِذَا اخْتَلَفَتْ يَوْماً مَذَاهِبُ حُبِّنَا ... عَلَيْهِ اتِّفَاقُ الْكُلِّ إِذْ نَحْنُ وُفِّقْنَا
فَأَسْمَاعُنَا مِنْ أَجْلِهِ وَقُلُوبُنَا ... عَلَى حُبِّهِ وَقْفٌ إِذَا مَا تَقَلَّبْنَا
وَحُجَّتُهُ فِينَا كَمَا شَاءَ هَدْيُهُ ... مُسَلَّمَةٌ صِدْقاً مُحَقَّقَةٌ ظَنَّا
وَكُلُّ نِظَامٍ أو نِثَارٍ فإِنَّمَا ... نُشِيرُ إِلَى آلآئِهِ الْعَذْبَةِ الْمَجْنَى

ـ يستدعونهم أحيانا إلى قصر الحمراء، ويشيرون على شعرائهم أن يقولوا قصائد من الشعر الصوفي
وابن فركون يعارض نونية الششتري المشهورة :

أَرَى طَالِباً منّا الزِّيَادَةَ لاَ الحُسنَى ... بِفِكْرٍ رَمَى سَهْماً فَعَدّى بِه عَدْنَا

(134) هي كقوله : وإِنْ نحْنُ.

وَفِي الْمَلإِ الأَعْلَى مَعَالِمُ أَشْرَقَتْ فَكَوْكَبُهَا الْوَقَّادُ لاَ يَعْرِفُ الْوَهْنَـا
وَحَتَّى مُنَاجَاةُ الْقُلُوبِ تَوَجَّـهَتْ لِيُوسُفَ مَوْلَى سَوَّغَ الأَمْنَ والْيُمْنَا
أَمَا يُوسُفٌ يَدْعُوهُ دَاعِي جِهَـادِهِ فَيُنْضِي الْحُسَامَ الْعَضْبَ والذَّابِلَ اللَّدْنَا
تَسَامَى بِقَيْسٍ حَيْثُ أَعْلَى لـواءَهُ رَسولٌ تَدَانَى قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى
يَقُومُ عَلَى اسْمِ آللَّهِ قَائِمُ سَيْفِهِ بِمَا فَرَضَ الدِّينَ الْحَنِيفُ وَمَا سَنَّا
مَرِيشُ السِّهَامِ الْخَزْرَجِيَّةِ مُثْبِتٌ نُحُورَ عِدىً تَسْتَقْبِلُ الضَّرْبَ والطَّعْنَا
هُمُ آلْقَوْمُ لاَ فِي السِّلْمِ تُخْفَرُ ذِمَّةٌ وَلاَ سَيْفهم فِي حَرْبِهِمْ يَأْلَفُ الْجَفْنَا
يُفِيـدُ مَـرَامَ الرَّاجِيَيْـنِ حِمَاهُـمُ فَهَذَا قَدِ اسْتَهْدَى وَهَذَا قَدِ اسْتَغْنَى
كَـذَلِكَ مَوْلاَنَـا الَّـذِي عَزَماتُـهُ عَلَى ثِقَةٍ بِآللَّهِ لاَتَعْرِفُ الْوَهْنَـا
مُقَسَّمَـةٌ فِـي الْمُلْتَقَـى فَتَكَاتُـهُ فَلِلسَّبْيِ مَا أَبْقَى وَبِالسَّيْفِ مَنْ أَفْنَى
مُحَقَّقَـةٌ صِدْقَ الْخَلِيفَـةِ يُـوسُفِ بِمَا شِئْتَ مِنْ لَفْظٍ كَرِيمٍ وَمِنْ مَعْنَى

وَلَهُ أَيْضاً يَمْدَحُهُ أَيَّدَهُ آللَّه

أَلاَ بِأَبِي عَرْفُ النَّسِيمِ الَّذِي حَيَّا فَأَصْبَحَتِ الأَرْجَاءُ عَاطِرَةَ الرَّيَّـا
أُفَدِّي الصَّبَا بِالرُّوحِ رِيحاً بَلِيلَـةً أَرَاحَتْ فُؤَاداً خَافِقاً بَيْنَ جَنْبَيَّـا
وَأُسْلِمُ مِنْ قَلْبِي لِسَلْمَى وَحُكْمِهَا مُطِيعاً إِذَا شَاءَتْ بِه الأَمْرَ والنَّهْيَا
وَلاَ عَتْبَ أَنْ صَرَّحْتُ بِالْحُبِّ إِنَّنِي تَحَمَّلْتُ مِنْ أَعْبَاءِ صَبْرِيَ مَا أَعْيَا
وَكَمْ لَهَبٍ مِنْ جَمْرِ وَجْدِيَ يَرْتَمِي عَلَى كَبِدِي كَالسَّهْمِ إِذْ يُحْسِنُ الرَّمْيَا
فَبَعْدَ بِعَادِي جَادَ دَهْرِي بِقُرْبِهَـا وَلَمْ أَخْشَ مِنْهُ لاَ مِطَالاً وَلاَ لَيَّا(135)
وَنَـادَيْتُ خِلَّـيْ فِكْرَتِـي وَتَصبُّـرِي أَمَا لَكُمَا أَنْ تُسْعِدَا يَا خَلِيلَيَّـا
أَمَا وَجْهُ مَوْلاَيَ الْخَلِيفَةِ يُـوسُفٍ تَبَدَّى صَبَاحاً مُشْرِقاً مِلْءَ عَيْنَيَّـا
فَمَا أَسْعَدَ الأَيَّامَ إِنْ هِيَ طَالَعَتْ بِطَلْعَتِـهِ فِـي أُفْـقِ قُبَّتِـه الْعُلْيَـا
لَقَدْ أَخْجَلَتْ سُحْبَ السَّمَاحِ وَحَاسَنَتْ مُحَيَّا الضُّحَى حَتَّى تَقَنَّعَ واسْتَحْيَا

---

(135) اللّي : المطل.

وَهَلْ يُوسُفٌ وَالْخَيْلُ بِالْخَيْلِ تَلْتَقِي سِوَى سَابِقِ الأَمْلاَكِ لِلْغَايَةِ القُصْيَا
وَهَلْ يُوسُفٌ والْمَشْرَفِيَّاتُ تُنْـتَضَى عَلَى الْكُفْرِ إِلاَّ عِصْمَةُ الدِّينِ والدُّنْيَا
وَهَلْ يُوسُفٌ وَالْوَفْدُ يَرْجُوهُ مُنْعِماً سِوَى رَحْمَةٍ قَدْ عَمَّتِ الأَرْضَ بِالسُّقْيَا
وَهَلْ يُوسُفٌ إِلاَّ الَّذِي يَتْرُكُ الْعِدَى وَأَمْلاَكُهُمْ نِسْياً مِنَ الدَّهْرِ مَنْسِيَّا
تَشَبَّهَ بِالْجَدِّ الرَّفِيعِ[136] مَقَامُـهُ فَأَعْظِمْ بِهِ عَزْماً وَأَحْسِنْ بِهِ هَدْيَا
وَلِلَّهِ فِي يَوْمِ السَّلاَمِ الْتِفَاتُـه إِلَى جُنْدِهِ يُنْسِي رَشِيداً وَمَهْدِيَا[137]
تَجَلَّى وَأَوْصَافُ الْكَمَالِ قَدِ اقْتَضَتْ لِهَالَتِهِ أَنْ تُطْلِعَ الْوَجْهَ بَدْرِيَّا
فَلاَزِلْتَ يَا مَوْلاَيَ يَا نَاصِرَ الْهُدَى تَرَى الدَّهْرَ مَأْمُوراً لَدَيْكَ وَمَنْهِيَّا

وَلَـهُ فِـي رَوِيِّهَـا

عَبِيدُكَ يَا مَوْلاَيَ يَا مَلِكَ الدُّنْيَا يَنَالُونَ فِي أَيَّامِكَ الرُّتْبَةَ الْعُلْيَا
وَتَنْسَحِبُ الأَثْوَابُ حُسْناً عَلَيْهِـمُ كَأَزْهَارِ رَوْضٍ جَادَهَا وَاكِفُ السُّقْيَا
وَتُنْعِـمُ تَجْدِيـداً وَزَائِـدَ نِعْمَـةٍ تُطَوِّقُهُـمْ رِفْـداً وَتُوسِعُهُـمْ هَدْيَـا
يُقَبِّـلُ كُـلٌّ مِنْهُـمُ يَـدَ مُنْعِـمٍ عَلاَمَتُهُ فِي الطِّرْسِ مِنْ أَعْجَبِ الأَشْيَا

وَلَه أيضا في مثل ذَلِك

عَلَـمُ القَـلبِ تجلَّـى وَظَهَـرْ أَفَيَخْفَـى عَلَـمٌ قَـدِ اشْتَهَـرْ
وَيْـحَ لُوَّامِـيَّ مَـا أَجْفَاهُـمُ مَا عَلَى الْعَاذِلِ لَوْ شَاءَ عَذَرْ
يَـا وُجُوهـاً قِيـلَ فِيهَـا مَثَـلاً: «مِنْكُمُ الْحُسْنُ وَمِنْ عَيْنِي النَّظَرْ»[138]
أَوْرِدُوا أَوْ أَصْدِرُوا إِنَّكُـمُ فِتَـنٌ مَـا بَيْـنَ وِرْدٍ وَصَدَرْ

---

(136) جدّ الممدوح هو السلطان النصري الغني بالله.
(137) لعلّه يريد الرشيد والمهدي من بني العباس.
(138) هذا شطرٌ مضمَن من موشّحٍ مشهور لابن سهل، وصدره : ما لِقَلْبِي فِي الهَوَى ذَنْبٌ سِوَى.
راجع هل درى ظبي الحمى..

رَأَتِ الأَبْصارُ شَأْناً عَجَباً ... فَهْيَ لاَ يُمْكِنُهَا رَجْعُ الْبَصَرْ
مَنْ لَهُ عَنِّي سُؤَالٌ بِالحِمَى ... أَصْدُقُوهُ وَافَقَ الخُبْرُ الْخَبَرْ
أَدْمُعٌ تَهْمِي وَقَلْبٌ خَافِقٌ ... مَا لَهُ بَيْنَ ضُلُوعٍ مُسْتَقَرْ
وَمَشُوقٌ قَائِلٌ لِمَنْ جَنَا[139] ... إِن ذَنْبَ الْحُسْنِ ذَنْبٌ مُغْتَفَرْ
إِنْ رَحلْتُم أَوْ أَقَمْتُمْ فَلَنَا ... وَطَنٌ مِنْكُمْ كَفِيلٌ بِالْوَطَرْ
أَوْ سَقَيْتُمْ فَشَفَيْتُمْ غُلَلاً ... طَالَمَا جُدْنَا بِدَمْعٍ كَالْمَطَرْ
قَابِلُوا هَذَا بِهَذَا يَتَّضِحْ ... فَضْلُ مَنْ جَادَ وَأَجْرُ مَنْ صَبَرْ[140]
طَالَمَا كُنْتُ أَبِيّاً حَذِراً ... صَادَنِي الْحُسْنُ فَلَمْ يُغْنِ الْحَذَر
بِعُيُونٍ كُلَّمَا عَايَنْتُهَا ... تَمْنَعُ الطَّيْفَ وَتَمْنَحُ السَّهَرْ[140]
وَخَطِيبُ الدَّوْحِ فِي مِنْبَرِهِ ... نَظَمَ السِّحْرَ كَلاَماً وَنَثَرْ
وَثَنَاءَ المَلِكِ الْمَوْلَى الَّذِي ... شَأْنُهُ النَّصْرُ لِمَنْ بِهِ انْتَصَرْ[140]
نَاصِرِيٌّ مَلِكٌ أَنْظَارُهُ ... لَيْسَ لِلنَّاقِدِ فِيهَا مِنْ نَظَرْ
سَلَّمَتْ أَمْلاَكُ دُنْيَاهُ لَهُ ... إِذْ نَهَى فِيهِمْ مُطَاعاً وَأَمَرْ
كُلَّمَا اسْتَنْفَرَ مِنْهُمْ مَلِكاً ... جَاءَ لِلدَّعْوَةِ فِي خَيْرِ نَفَرْ
أَيُّهَا الْمَوْلَى الَّذِي مَظْهَرُهُ ... كَوْكَبُ الصُّبْحِ تَجَلَّى وَظَهَرْ
يُوسُفِيُّ الصِّدْقِ مِنْ أَوْصَافِهِ ... صُوَرٌ مُعَوَّذَاتٌ بِالسُّوَرْ[140]
جُودُ مَوْلاَيَ وَحُسْنُ لَفْظِهِ[140] ... دِرَرُ الْغَيْثِ وَمَنْظُومُ الدُّرَرْ
حِلْمُ مَوْلاَيَ وَسَيْفُ عَزْمِهِ[140] ... أَمْنُ مَنْ خَافَ وَحَتْفُ مَنْ كَفَرْ
فِكْرُ مَوْلاَيَ وَمَا يُبْدِعُهُ ... أُفُقُ الزُّهْرِ وَمُرْفَضُّ الزَّهَرْ
فَعُلُوُّ[140] قَدْرِهِ فِي مُلْكِهِ ... حِكْمَةٌ يَجْرِي بِهَا حُكْمُ الْقَدَرْ

---

(139) كذا في الأصل ومثله عجز المطلع.

(140) كذا في الأصل.

وَمِـنْ مُرتَجلاَتِـهِ فِـي المَقَــامِ العَلِـيِّ المَوْلَـوِي أَسْمَــاهُ آللَّـــه

تَجلَّـى مُحَيَّــاكَ الْكَرِيــمُ بِهَالَـــةٍ   مِنَ الْقُبَّةِ الْغَرَّاءِ فِي أَبْدَعِ الْحُلاَ
تَرَفَّعَ يَا مَـوْلاَيَ وَجـهُكَ عِنْدَهَــا   فَمَــا زَادَكَ التَّرفِيــعُ إِلاَّ تَهَلُّـــلاَ
فَلَمْ أَلْقَ نُورَ الشَّمْسِ إِلاَّ تَمَثُّلاً   وَلاَ قَمَــرَ العلْيَــاءِ إِلاَّ تَخَيُّـــلاَ
فلم أَمْلِكِ النَّفسَ المشُوقةَ عِندَمَــا   رَأَتْكَ رَؤُوفــاً مُنْعِمــاً مُتَــفَضِّلاَ
وَلَوْلاَ حَيَائِي مِنْكَ أَلْقَيتُ فِي الثَّرى   بِوَجْهِي وَلَمْ أَبرَحْ لَـدَيْكَ مُقَبِّــلاَ

وَفِــــي مِثـــــلِ ذَلِــــك

لِلنَّــاصِرِ الْمَسلِكِ المؤيـدِ رَغْبَتِـــي   وَضَرَاعَتِـي فِـي أَنْ يُكَلِّـمَ عَبْــدَهُ
وإذا يُشَرِّفُنِــي بِـــذَلِكَ سَاعَـــةً   فالعبدُ فِـي قَدَمَيْـهِ يَبْسُطُ خَـدَّهُ
أَوَ لَيْسَ هَذَا مُمْكِناً مِن مُنْعِـمٍ   كَلَّـمْتُ مَوْلاَنَــا أَبَــاهُ وَجَــدَّهُ[141]
يَا يُوسُفِيَّ الْوَجْهِ وَجْهُكَ مَقْصَدِي   وَالعَبْــدُ يَرْجُـو أَنْ يُبَلِّــغَ قَصْدَهُ

وَلَـهُ يَمْدَحُـــه أَيَّـــدَهُ آللَّـــه مُعَارِضــاً مِهيــاراً الدَّيْـلَمِــي[142]

مَــا لِلْبُــدُورِ مُنِيــرَةً تَتَــوَضَّحُ   تَسْمُو فَتَطْمَعُ فِي عُلاَكَ وَتَطْمَـحُ
هَلاَّ اهْتَدَتْ قَصْدَ السَّبِيلِ بِيُوسُفٍ   وَبِـهِ مَصَابِيحُ الدُّجَـى تَسْتَصْبِــحُ
أَخْفَى الأَشِعَّةَ مِنْ مَلاَمِحِ وَجْهِـهِ   صُبْـحٌ لِمَـنْ بِسُعُـودِهِ يَسْتَنْجِـــحُ
مَا أَصْدَرَ الأَمْلاَكَ صَدْرُ الْمُنْتَدَى   إِلاَّ وَأَبْـوَابُ السَّمَــاءِ تُفَتَّـــحُ

---

(141) هذا يفيد أن ابن فركون والِدَ مؤلّف هذا المجموع خدم الغني بالله وولده يوسف الثاني.

(142) كان يوسف الثالث ممدوح الشاعر هنا معجباً بشعر مهيار وأستاذه الشريف الرضي وفي ديوانه قصائد في مجاراة طريقة الرضي ومهيار، وابن فركون يعارض في هذه القصيدة مهياراً تقرّبا إلى ممدوحه ونزولا عند رغبته.

وَالْيُوسُفِيُّ الْمُـلْكِ يَدْعُو رَبَّـهُ　　هَا أَنْتَ تَسْمَعُ وَاللَّطَائِفُ تَسْمَحُ
يَحْمِي شَرِيعَتَـهُ وَيَمْنَـعُ دِينَـهُ　　مِنْ أَنْ يُنَالَ وَكُلّ نَيْلٍ يَمْنَحُ
نِعْمَ الْمُنَـادَى يَا خَلِيفَـةَ رَبِّـهِ　　الْفَضْلُ أَجْلَى وَالأَدِلَّـةُ أَوْضَحُ
لَمْ تَبْرَحِ الآمَالُ تَدْعُو أَهْلَهَا　　ثُوبُوا وَعَنْ نَيْلِ الْمُنَى لاَ تَبْرَحُوا
يَهْمِي نَـدَاكَ وَسُحْبُـه مُنْهَلَـةٌ　　وَعَلَى الأَعَادِي مِنْهُ نَارٌ تَلْفَحُ
وَتَظَلُّ عَاصِفَةُ الحُرُوبِ بِأَرْضِهِمْ　　تَسْفِي الثَّرى وَدَمَ المُدَاجِي تَسْفَحُ
لَكِنْ إِذَا أَرْجَأْتَ عَزْمَكَ بُرْهَةً　　فَظُبَاكَ تَجْمَعُ كُلَّ طَاغٍ يَجْمَحُ
كَالْبَحْرِ يُمْسِكُ لُجَّهُ فَإِذَا ارْتَمَى　　لاَ الْبَرُّ يَسْتَعْصِي وَلاَ يَتَنَزَّحُ
إِنْ رَجَّحُوا يَوْماً مُهَادَنَةَ العِدَى　　فَوزَانُ رَأْيِكَ فِي جِهَادِكَ أَرْجَحُ
فِي الأَخْذِ دُونَ التَّرْكِ هِمَّتُكَ الَّتِي　　أَخَذَ الثَّنَايَا فَجْرُهَا الْمُتَوَضِّحُ
والحربُ والْعَزَمَاتُ مِن صِفَةِ الَّذِي　　يَذَرُ الحُسامَ وَصَفْحُهُ لاَ يَصْفَحُ
وَيَقُولُ للخَطِّيِّ طَعْنَ مُقَصِّدٍ　　لاَ يَنْثَنِي قَصْداً وَلاَ يَتَرَنَّحُ
إِلاَّ التَّكَسُّرَ كُلَّمَا فَغَرَ الرَّدَى　　نَجْلاَءَ بِالدَّمِ خصْرُهَا يَتَوَشَّحُ
مَنْ ذَا سِوَاكَ بِجُنْدِهِ وَبِعَزْمِهِ　　أَبَداً يُمَسَّى نَاصِراً وَيُصَبَّحُ
أَوْ مَنْ يَسُلُّ مُشَهَّراً مِنْ سَيْفِهِ　　كَالْبَرْقِ يَلْمَعُ سَيْفُهُ إِذْ يَلْمَحُ
إِلاَّ أَبُو الْحَجَّاجِ صَادِقُ حُجَّةٍ　　بِالصِّدْقِ يَنْطِقُ كَيْفَ شَاءَ وَيُفْصِحُ
قَدْ فَتَّ فِي عَضُدِ الإِفَنْتِ(143) وَحِزْبِهِ　　فَتَسَنَّ تَثُلُّ عُرُوشَهُ وَتُصَوِّحُ
لاَ تُخْشَ عَزْمَتُه وَلاَ زُعَمَاؤُهُ　　فَالرَّأْيُ مِنْهُمْ نَادِرٌ لاَ يُلْقِحُ
مَا مِلَّةُ الإِسْلاَمِ يَسْلَمُ مُلْحِدٌ　　مِنْ بَأْسِهَا كَلاًّ وَلاَ مُسْتَفْتِحُ
وَإِلَى زَمَانِكَ فِي الْكِتَابِ وَعِلْمِهِ　　نَصْرُ الْكَتَائِبِ مُجْمَلاً لاَ يُشْرَحُ
أَنَّى يُحَاطُ بِهِ وَكُلُّ مُحَقِّقٍ　　يَكْفِيهِ مِنْ صِدْقِ الْيَقِينِ تَلَمُّحُ
فَالسَّابِقَاتُ لَقَدْ أَقَرَّ عُيُونَهَا　　مَرْمًى إِلَى الْفَتْحِ الْمُبِينِ وَمَطْمَحُ

---

(143) الإفنت: من الكلمة القشتالية Elinfante وقد تقدّم ذكرها والمقصود به فرناندو أخو انريك الثالث Enrique III، ونظرا لمرض هذا الأخير فقد كان الأول بوصفه وصيا على العرش يتولى أمور قشتالة، ونجد كلمة الافنت هذه أيضاً في ديوان ابن الحاج النميري والرسائل الديوانية لهذه الحقبة.

والسَّابِحَاتُ وَمَنْ بِهَا لَكَ أَجْرُهَا فَمُهَلِّـلٌ أَثْنَاءَهَا وَمُسَبِّحُ
لَكِنْ إِذَا بَادَرْتَ أَوْ أَمْهَلْتَهَا فَلِمُلْكِكَ الرَّأْيُ الأَصِيلُ الأَرْجَحُ
أَوْ يَقْتَضِي العَقْلُ الحَصِيفُ قَضِيَّةً فَبِكَ المعاقِلُ تُسْتَبَاحُ وَتُفْتَحُ

وَقَالَ يَمْدَحُه أَيَّدَهُ اللَّهُ بِهَذِه التَّوْشِيحَة

وَٱللَّهِ مَا اعْتَلَّتِ النَّوَاسِمْ مَا بَيْنَ صُبْحٍ إِلَى أَصِيلْ
كَلاَّ وَلاَ افْتَرَّتِ الْمَبَاسِمْ إِلاَّ عَلَى وَجْهِكَ الْجَمِيلْ
إِذَا اشْتَكَتْ ذَاتُكَ الْكَرِيمَهْ أَقَلَّ شَيْءٍ مِنَ الأَلَمْ
تُوقِعُ فِي صَبْرِنَا هَزِيمَهْ خَافِقَةَ الْبَنْدِ والْعَلَمْ
وَٱللَّهِ مَا لِلشِّفَاءِ قِيمَهْ لأَنَّهُ عِصْمَةُ الأُمَمْ
كَأَنَّمَا سَاجِعُ الْحَمَائِمْ عَلَى الشُّفَا يُسْمِعُ الْهَدِيلْ
والزَّهْرُ فِي الْقُضْبِ والْكَمَائِمْ لِلَثْمِ يُمْنَاكَ تَسْتَمِيلْ
حَتَّى بِطَاحُ الرِّيَاضِ أَبْدَتْ ثَغْرَ الْحَبَابِ الْمُقَبَّلِ
والأَرْضُ فَرْشَ الرَّبِيعِ مَدَّتْ عَلَى سَبِيلِ التَّجَمُّلِ
والزُّهْرُ والزَّهْرُ قَدْ أُعِدَّتْ لِمُجْتَنٍ أَوْ لِمُجْتَلِ
لَوْ تُبْذَلُ الأَنْفُسُ الْكَرَائِمْ لِمُلْكِكَ الْكَافِلِ الْكَفِيلْ
واحْتَفَلَ الدَّهْرُ فِي الوَلاَئِمْ لَكَانَ مِنْ حَيِّزِ الْقَلِيلْ
مَا خُلُقُ الرَّاحِ حِينَ تَسْرِي أَرَقَّ مِنْ نَسْمَةِ الزَّهَرْ
بَيْنَ الْتِثَامٍ وَرِيقِ ثَغْرِ وَنَغْمَةِ الطَّيْرِ فِي السَّحَرْ
إِلاَّ وَفِيهَا عَلَى ابْنِ نَصْرِ عَجَائِبُ السَّمْعِ وَالبَصَرْ
أَيَّامُهُ كُلُّهَا مَوَاسِمْ وَظِلُّهُ فَوقَهَا ظَلِيلْ
وَقَدْ بَدَتْ لِلْهُدَى مَرَاسِمْ وَاضِحَةَ النَّصِّ وَالدَّلِيلْ
أَيَّدَكَ ٱللَّهُ مِنْ خَلِيفَهْ خَلاَئِفُ الْمُلْكِ فِي يَدَيْهْ
سُعُودُ آفَاقِهَا مُطِيفَهْ مُلْقِيَّةً نُورَهَا عَلَيْهْ

لاَبَرِحَتْ ذَاتُكَ الْمُنِيفَهْ[144] وَدَهْرُنَا نَاشِدٌ لَدَيْهْ
دَانَتْ لَكَ السَّبْعَةُ الأَقَالِمْ[145] وَالْبَيْتُ[146] وَالْقُدْسُ وَالْخَلِيلْ
وَدَامَتِ الأَنْجُمُ الْعَوَاتِمْ بَاسِطَةً كَفَّ مُسْتَنِيلْ

ولأبِي جَعْفَرَ بن أَبِي حَامِد بْنِ الحَسَنَ النُّبَاهي[147] يَمْدَحُهِ أَيَّدَهُ اَللَّه

عَمْرِي لَقَدْ وَفَتِ الدُّمُوعُ الهُمَّعُ[148] لَمَّا عَفَتْ مِمَّنْ أُحِبُّ الأَرْبُعُ
والقلبُ ضاعَفَ شجوَه وغرامَه عندَ الوقوفِ بِهِنَّ بَرْقٌ يَلْمَعُ
يا بَرْقُ زُرْتَ مَعِي دِيَارَ أَحَبَّتِي فَحَكَيْتَنِي وصنعتَ مَا أَنَا أصنعُ
أشبهتَ قلبِي خَافِقاً مُتوقِّداً لا يستقرُّ جوىً عليهِ الأَضْلُعُ
تَمْضِي وَتَرْجِعُ عندهَا مُتَرَدِّداً وَكَذَاكَ إِذْ أَمْضِي أَحِنُّ فَأَرْجِعُ
وَلَقَدْ بَكَيْتَ كَما بَكَيْتُ بمُغْدِقٍ سَحٍّ سَحَائِبُ وَدْقِهِ لا تُقْلِعُ
وَوَصَلْتُ سُهْدِي فِي دُجُنَّةِ بَيْنِهِمْ وَقطعتَ لَيْلَكَ سَاهِراً لاَ تَهْجَعُ
سَاعَدْتَنِي زَمَنَ الفِرَاقِ عَلَى آلأَسَى أَفَأَنْتَ مِثْلِيَ بِآلْفِرَاقِ مُرَوَّعُ
فَلأَجْلِ حبِّهِمُ يُهِيجُكَ مَوْقِفِي بِرُبُوعِهِمْ وَسَبِيلَ وَجْدِيَ تَتْبَعُ
فكأنَّنِي لَكَ فِي آلْهَوَى مَا أَنْتَ لِي وحديثُنَا عجَبٌ إِذَا مَا يُسْمَعُ
وَيَرُوقُنِي لَكَ فِي السَّمَاءِ تَأَلُّقٌ وَتَوَقُّدٌ سُجُفَ الدَّيَاجِي يَصْدَعُ

---

(144) المنيفة : الرفيعة.

(145) الأقالِم : الأقاليم.

(146) البيت : بيت الله الحرام بمكة المكرّمة.

(147) لا نجد له ترجمة، وهو من الأسرة النّباهية، وقد ورد اسم أبي جعفر أحمد ابن الحسن في ديوان البسطي أكثر من مرة وقال فيه البسطي عدداً من أشعاره، ونفهم منها أن والده أبا حامد ولي القضاء في بسطة وأنّ جدّه هو القاضي أبو الحسن النباهي، ولكنّنا لسنا متأكدين من أن المذكور في ديوان البسطي هو صاحب القصائد الواردة هنا. انظر كتابنا : البسطي آخر شعراء الأندلس (الفهرس).

(148) الهمع : المنهمرة.

حَتَّى أَقُولَ سُيُوفُ يُوسُفَ تُنْتَضَى   يُجْلَى بِهَا لَيْلُ الضَّلاَلِ وَيُدْفَعُ
مَلِكٌ بِهِ شَرَفُ الْوُجُودِ وَفَخْرُهَا   مِنْ كُلِّ مَنْ وَلِيَ الْخِلاَفَةَ أَرْفَعُ
وَهِبَاتُهُ فِي العَالَمِينَ أَقَلُّ مَا   فِيهَا الْمَآرِبُ والْمَطَالِبُ أَجْمَعُ
وَمِنَ الْكَلاَمِ فَرَائِدٌ تُزْهَى بِهَا   مِنْهَا الْخَلِيفَةُ والْهُمَامُ الأَرْوَعُ
فاستبشر الدِّينُ الحَنِيفُ بناصِرٍ   تَعْنُو لَهُ صِيدُ الْمُلُوكِ وَتَخْضَعُ
مَوْلًى إِذَا قَادَ الجيوشَ لغَارَةٍ   فالنصرُ يبدُو والبشائرُ تَطْلُعُ
مَسْرَاهُ فِي جَيْشَيْنِ مِنْ حَزْمٍ وَمِنْ   أُسْدٍ يَضِيقُ بِهَا الفضاءُ الأَوْسَعُ
فَإِذَا يَؤُمُّ بِهَا الْعَظِيمَ أَتَاهُ مَا   يَرْضَى فلا صعبٌ وَلاَ مُتَمَنِّعُ
وَإِذَا دَجَا لَيْلُ الْعَجَاجِ بِمَعْرَكٍ   وَبَدَا رَأَيْنَا مَا رَآهُ يُوشَعُ
وَتَرَاهُ أَكْثَرَ مَا يَكُونُ تَهَلُّلاً   وَالْخَيْلُ تَمْرَحُ وَالأَسِنَّةُ تُشْرَعُ
والبيضُ تُغْمَدُ فِي الهَوَادِي والطُّلَى   وَالهَامُ تُحْصَدُ والسَّوَاعِدُ تُنْزَعُ
والبَرُّ بَحْرٌ بِالنَّجِيعِ تَخُوضُهُ   سُفُنُ الصَّوَافِنِ كالْعَوَاصِفِ تُسْرِعُ
وَلَرُبَّمَا عَقَدَ الْهَوَادَةَ رَيْثَمَا   يَبْكِي الْعَدُوُّ بِلاَدَهُ وَيُوَدِّعُ
فَهُمُ بِأَرْضِهِمُ وَدَارِ قَرَارِهِمْ   وكَأَنَّهَا مِنْهُمْ قَوَاءٌ بَلْقَعُ
وَصِفَاتُهُ فِي الصَّالِحَاتِ وَقَصْدِهَا   هيهاتَ يبلُغُهَا البليغُ الْمُبْدِعُ
مولاَيَ أنعمُكَ البِحَارُ وَإِنَّهَا   عَذْبٌ فُرَاتٌ لِلْبَرِيَّةِ مَشْرَعُ
وَلَكُمْ أَيَادٍ جَمَّةٍ أَسْلَفْتُمُ   أَسْلاَفُنَا قِدْماً بِهَا قَدْ مُتِّعُوا(149)
وَحَيَاةُ قَلْبِي فِي ظَهِيرٍ(150) عِنَايَةٍ   يُعْلِي مَكَانِي فِي الْفَخَارِ وَيَرْفَعُ
ومعيشةٍ تُغْنِي وَتُرْغِدُ عِيشَتِي   أَشْفِي الْغَلِيلَ بِمَا تُفِيدُ وَأَنْقَعُ
لاَزَالَ جُودُكَ والرَّجَاءُ يَجُودُهُ   أَزْكَى من الروضِ النَّضِيرِ وَأَيْنَعُ

---

(149) يشير إلى النباهيين الذين خدموا دولة بني نصر مثل أبي الحسن النّباهي قاضي الجماعة وغيره.

(150) الظهير في الاصطلاح الإداري بالمغرب والأندلس هو صكّ يصدر عن السلطان بتولية شخص في خطة ما أو في التوصية بالعناية به.

وَلَـهُ فِـي مِثْـلِ ذَلِـك

لَقَدْ قَرَّ عَيْـنُ الدِّيـنِ دُونَ مِـرَاءِ   بِيُوسُفَ مُحْيِي الحَقِّ بَعْدَ عَفَـاءِ
بِنَاصِرِهِ الْمَنْصُورِ فِي كُلِّ وِجْهَـةٍ   مُعَـاوِدِهِ الْـبُشْرَى صَبَـاحَ مَسَاءِ
فَكَمْ شِرْعَةٍ بِالعِلْمِ أَعْلَى مَنَارَهَـا   تَـلأْلأَ فِـي الأَعْـلاَمِ لِلْـبُصَرَاءِ
يُفِيضُ عَلَى الدُّنْيَا عَوَارِفَهُ التِـي   كَأَنَّ نَدَاهَـا الْغَمْرَ غَيْثُ سَمَـاءِ
وَكَمْ نِعْمَةٍ فِي العَالَمِيـنَ أَفَاضَهَـا   تُحَقِّـقُ لِلْعَافِيـنَ كُـلَّ رَجَـاءِ
فَلاَ مُجْدِبٌ إِلاَّ انْثَنَى وَهْوَ مُخْصِبٌ   كَـأَنَّ ثَـرَاهُ مُسْتَفِيـدُ ثَـرَاءِ
وَكَمْ تَرْحَةٍ قَدْ أُعْقِبَتْ بِـمَسَرَّةٍ   وَكَـمْ شِدَّةٍ قَدْ عُـوِّضَتْ بِرَخَـاءِ
فَـدُمْتَ لَنَـا غَيْثـاً مُغِيثاً وَمَلْجَئـاً   وَمُلْـكُكَ فِـي نَصْرٍ وَطُـولِ بَقَـاءِ

وَلِلشَّيخِ الْفَقيهِ الأستاذِ أبي عُثمان الأَلْبُري
يمدحُ مَقامَهُ الكَريمَ أَسْمَاهُ آللَّهُ

عُجْ بِالمَطِيِّ عَلَى المَحَـلِّ السَّامِ   وَانْشُدْ فُؤَادَ شَجٍ حَلِيـفَ غَـرَامِ
وَإِذَا مَـرَرْتَ بِحَاجِـرٍ والْمُنْحَنَـى   وَحَلَـلْتَ رَامَـةَ حَيِّهَـا بِسَلاَمِ[152]
وَاقْرَ[153] السَّلاَمَ عَلَى ثَنِيَّاتِ اللِّوَى   فَبِهَـا أُهَيْـلُ مَوَدَّتِـي وَذِمَـامِ
وَقُلِ الْمُعَنَّى بَعْدَكُمْ أَلِـفَ الضَّنَـا   وَجَـرَى عَلَيْـهِ تَصَرُّفُ الأَحْكَـامِ
يُمْسِي وَيُصْبِحُ فِي هَوىً وَصَبَابَـةٍ   يَبْكِي الرُّبُـوعَ بِكُـلِّ دَمْعٍ هَـامِ
سَكْرَانُ مِنْ خَمْرِ الْهَوَى والوَجْدِ لاَ   يَنْـفَكُّ نَشْوَانـاً بِغَيْـرِ مُـدَامِ

---

(151) هو الشيخ الفقيه العالم الخطيب المفتي أبو عثمان سعد بن يوسف بن سعد الفهري الألبيري. هكذا عرّف به المجاري في برنامجه وعدّه من شيوخه وذكر ما قرأ عليه من كتب في الفقه (ص 127) وورد ذكر هذا الفقيه في ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث (41، 102، 104) وقد وصف فيه مرتين بالخطيب ومرة بخطيب الحمراء، وتوجد بعض فتاويه في المعيار والحديقة.

(152) حاجر ورامة واللوى من المواقع التي يتغنّى بها في القصائد الحجازيات.

(153) كذا في الأصل، وحقه أن يقول : فاقر، لأنه مفرغ عمّا قبله.

لِلَّـــهِ آمَـــالٌ عَلَـــيَّ تَعَـــذَّرَتْ مِنْ بَعْدِ مَا انْقَادَتْ بِكُلِّ زِمَامِ
إِنْ جَادَ هَذَا الدَّهْرُ يَوْماً أَوْ وَفَى نَقَضَ الْعُهُودَ وَلَـمْ يَـدِنْ بِتَمَـامِ
مَا كُلُّ مَنْ يَبْغِي الْمُنَا يُعْطَى الْمُنَا صَرْفُ الزَّمَـانِ وَعَـادَةُ ٱلأَيَّـــامِ
مَنْ لَمْ يُسَاعِـدْهُ الزَّمَـانُ بِمَطْـلَبٍ أَوْ عَاقَهُ عَنْ نَيْـلِ بَـعْضِ مَـرَامِ
مَا إِنْ لَـهُ إِلاَّ الْخَلِيفَـةُ يُـوسُفٌ فَخْـرُ الْمُلُـوكِ وَنَــدْرَةُ الأَيَّـــامِ
جَمَعَ النَّدَى والبَأْسَ والخُلُقَ الرِّضَا لَـمْ تَجْتَمِـعْ مِـنْ قَبْلِـهِ لإِمَـامِ
وَعَلَيْهِ مِـنْ شِيَـمِ الْمُلُوكِ مَهَابَـةٌ يَدْنُـو لَهَـا وَلَهَـا المَحَــلُّ السَّامِ
كَالشَّمْسِ يُلْفَى نُورُهَا بَيْنَ الوَرَى وَلَهَــا مِــنَ الْعَلْيَـا أَعَـزُّ مَقَــامِ
فَـإِذَا تَكَلَّـمَ قُـلْتَ قُسٌّ بَلاَغَــةٍ تُــزْرِي فَصَاحَتُــهُ بِكُــلِّ كَــلاَمِ
وَإِذَا انْبَرَى لِلنَّظْمِ أَعْجَزَ كُلَّ مَنْ يَحْوِيـهِ مِــنْ شُعَرَائِـهِ الأَعْــلاَمِ
إِخْتَــارَهُ ٱللَّــهُ الْعَظِيــمُ لِخَلْقِــهِ وَرَءَاهُ خَيْــرَ خَلِيفَــةٍ وَإِمَـــامِ
تَجْرِي عَلَى كُلِّ ٱلْوَرَى أَحْكَامُـهُ مَا شاءَ مِنْ نَقْضٍ وَمِنْ إِبْـرَامِ
لَنصرْتَ دِينَ الْحَقِّ يا عَلَمَ الْهُدَى وَنَظَمْتَ سِلْكَ الْمُلْكِ أَيَّ نِظَـامِ
مَا أَنْتَ إِلاَّ اللَّيْثُ والبَطَلُ الَّذِي لاَ يَنْثَنِـي أَبَـداً عَـنِ الإِقْــدَامِ
مَا أَنْتَ إِلاَّ الْمَوْرِدُ الْعَذْبُ الَّذِي لِلْوَارِدِيــنَ عَلَيْــهِ جِــدُّ زِحَــامِ
مَـا أَنْتَ إِلاَّ نِعْمَـةُ ٱللَّـهِ الَّتِــي شمِلتْ وَعَـمَّتْ سَائِـرَ الخُــدَّامِ
مَــا أَنْتَ إِلاَّ لِلْخِلاَفَــةِ آيَـــةٌ فَٱللَّــهُ يُمْتِعُهَــا بِطُــولِ دَوَامِ
يَهْنِيكَ يَـا عَلَـمَ الفَضَائِـلِ كُلِّهَـا مَا نِلْتَ مِـنْ عِـزٍّ وَمِـنْ إِكْـرَامِ
مَوْلاَيَ عَبْدُكَ قَدْ أَتَـى مُسْتَعْطِفـاً يَرْجُـو قَبُـولَكَ يَـا أَجَـلَّ إِمَـامِ
فِي حَاجَةٍ عَرَضَتْ لَهُ مُسْتَشْفِعـاً بِأَبِــيكَ خَيْــرِ أَئِمَّـــةِ الإِسْلاَمِ
فَالْعَبْـدُ يَـا مَـوْلاَيَ رَهْـنُ شَفَاعَـةٍ قَـدْ قَـامَ مُنْتَظِـراً عَلَـى الأَقْــدَامِ
فَإِذَا الْبَشِيرُ أَتَـى يُبَشِّرُ بِالـرِّضَى أَلْقَــى عَلَيْــهِ سَوَابِــغَ الإِنْعَــامِ
لاَزَالَ مَــوْلاَيَ الْخَلِيفَــةُ يُــوسُفٌ والنَّصْرُ يَصْحَبُـهُ مَـدَى الأَعْــوَامِ

وَلَـهُ فِـي مِـثْـلِ ذَلِـكَ

كُـــلُّ دَاءٍ لَـــهُ دَوَاءٌ وَلَكِـــنْ مَـرَضُ الانْتِظَـارِ صَعْبُ الْعِــلاَجِ

مَا لَهُ مِنْ دَوَاءٍ إِلاَّ انْتِعَاشٌ بِقَضَاءٍ لِحَاجَةِ الْمُحْتَاجِ
أَوْ بِإِسْعَافِ رَغْبَةٍ مِنْ كَرِيمٍ كَالإِمَامِ الرِّضَى أَبِي الحَجَّاجِ
نَاصِرِ الدِّينِ مُوسِعِ الْخَلْقِ عَدْلاً مُوضِحِ النُّورِ فِي ٱللَّيَالِي الدَّيَاجِـ ـي
تُحْفَةُ الدَّهْرِ لاَ تَقِسْهُ بِشَخْصٍ بَحْرُ جُودٍ يَهِيمُ فِي أَمْوَاجِ
يُبْلِغُ النَّفْسَ مِنْ هَوَاهَا رِضَاهَا وَيُنِيلُ الْمُنَى عَلَى اسْتِدْرَاجِ
يُبْصِرُ الْمُشْكِلاتِ مِنْ خَلْفِ سِتْرٍ وَيَرَاهَا مَعَ الظَّلاَمِ الدَّاجِـ ـي
وَرِثَ الْمَجْدَ عَنْ رِجَالٍ كِرَامٍ فَجَرَى فِي الْوَفَا عَلَى مِنْهَاجِ
أَحْلَمُ النَّاسِ ثُمَّ إِنْ بَانَ ظُلْمٌ ظَهَرَتْ مِنْهُ سَطْوَةُ الحَجَّاجِ
دَفَعَ ٱللَّهُ ظُلْمَةَ الظُّلْمِ عَنَّا بِسِرَاجِ الْمُلُوكِ أَيِّ سِرَاجِ
نَحْنُ فِي غِبْطَةٍ بِهِ وَسُرُورٍ وَأَمَانٍ وَنِعْمَةٍ وَابْتِهَاجِ
يَا إِمَامَ النَّدَى وَبَحْرَ الْعَطَايَا يَا عِمَادِي وَيَا رَجَاءَ الرَّاجِـ ـي
عِدْ بِإِسْعَافِ رُغْبَتِي ثُمَّ أَنْجِزْ فَبِإِنْجَازِهَا صَلاَحُ مِزَاجِـ ـي
دُمْتَ فِي نِعْمَةٍ وَفِي خَفْضِ عَيْشٍ مَا جَلَى الصُّبْحُ كُلَّ لَيْلٍ دَاجِ

وَلِلْقَائِدِ الْمُرَفَّعِ أَبِي يَحْيَى ابنِ الوَزِيرِ الرَّئِيسِ
المَكِينِ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَاصِمٍ وَصَلَ اللَّهُ عِزَّتَه
يَمْدَحُ الْمَقَامَ العَلِيِّ المَوْلَوِي أَسْمَاهُ ٱللَّه

أَسْهَرَنِي الوجدُ وطُولُ الْغَرَامْ فَمَا عَرَفْتُ النَّوْمَ إِلاَّ لِمَامْ
وَأَقْصَرَ الْعَاذِلُ لَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ يُجْدِي فِي هَوَاكَ الْمَلاَمْ
وَبَانَ بِالدَّمْعِ خَفِيُّ الْهَوَى وَخَانَ بِالسُّهْدِ وَفِيُّ الْمَنَامْ
وَصَارَ بَعْدَ الخَفْضِ مَوْصُولُهُ مُرْتَفِعاً فَكَيْفَ لِي أَنْ أَنَامْ
وَأَهْيَفٍ كَالْغُصْنِ ذِي غُرَّةٍ كَالْبَدْرِ قَدْ تُوِّجَ جِنْحَ الظَّلاَمْ
كَأَنَّهُ الشَّمْسُ إِذَا مَا بَدَا فِي الحُسْنِ وَالنُّورِ وَبُعْدِ الْمَرَامْ

---

(154) تقدّم ذكره.

إِذَا دَنَا كَانَتْ حَيَاتِي بِهِ ... وَإِنْ نَأَى عَنِّي فَهْوَ الحِمَامْ
كَأَنَّهُ مِنْ حُسْنِهِ دُرَّةٌ ... أَوْ مِسْكَةٌ لِلْحُسْنِ مِنْهَا خِتَامْ
يَسْبِي الْوَرَى مَهْمَا رَنَا وانْثَنَى ... بِصَارِمِ اللَّحْظِ وَلَدْنِ القَوَامْ
أَقُولُ لِلْعَاذِلِ فِي حُبِّهِ ... هَيْهَاتَ لاَ يُنْسَخُ حُكْمُ الْغَرَامْ
كَأَنَّ مَنْ يَعْذُلُ فِي حُسْنِهِ ... يَرُومُ يُخْفِي الْبَدْرَ عِنْدَ التَّمَامْ
كَأَنَّمَا جَمَالُهُ لِلنُّهَى ... أَبْدَى اعْتِذَارَ الْعَاشِقِ الْمُسْتَهَامْ
كَأَنَّمَا كَلاَمُهُ جَوْهَرٌ ... مُنْتَثِرٌ مِنْ شِبْهِ سِمْطَيْ نِظَامْ
أَوْ كَفُّ مَوْلاَيَ ابْنِ نَصْرٍ جَرَتْ ... بِالفَذِّ مِنْ أَنْعُمِهَا والتُّؤَامْ(155)
نَاصِرُ دِينِ آللَّهِ مُحْيِي الهُدَى ... مَنْ رَأْيُهُ لِكُلِّ أَمْرٍ قِوَامْ
وَمَنْ إِذَا عُدَّ مُلُوكُ الْوَرَى ... فَهْوَ لَهُمْ فِي كُلِّ فَضْلٍ إِمَامْ
وَمَنْ بِعُلْيَا مُلْكِهِ أَصْبَحَتْ ... غَرْنَاطَةٌ تَفُوقُ دَارَ السَّلاَمْ(156)
مِنْ صِفْوَةِ الأَنْصَارِ مَنْ مِثْلُهُمْ ... لِيَوْمِ جُودٍ أَوْ لِيَوْمِ انْتِقَامْ
هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا أَوَّلاً ... دِينَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلاَمْ
وَهُمْ حَمَوْهُ ءَاخِراً بَعْدَمَا ... قَدْ كَادَ سَامِي عِزِّهِ أَنْ يُضَامْ
يَا قَاتِلَ الأُسْدِ لَدَى الْمُلْتَقَى ... وَمُخْجِلَ الْبَحْرِ نَدًى وَآلْغَمَامْ
شَرَّفْتَ مَمْلُوكاً غَدَا قَلْبُهُ ... مُقْتَسَماً بَيْنَ عُلاَكَ اقْتِسَامْ
هَا أَنَا قَدْ نِلْتُ جَمِيعَ الْمُنَى ... وَثَغْرُ دَهْرِي غَدَا فِي ابْتِسَامْ
وَقَدْ دَعَا لِي مَوْلاَيَ دَعْوَةً ... فَحُقَّ لِي الْفَخْرُ بِهَا فِي الأَنَامْ
حَسْبِي بِهَا عِزّاً ضَفَا ثَوْبُهُ ... أَلْبَسَنِي الْجَاهَ لِيَوْمِ الْقِيَامْ
وَنَصُّهَا أَنْ يُحْسِنَ آللَّهُ لِي ... قُلْتُ عَلَى يَدَيْ إِمَامِ الْكِرَامْ
الْمَلِكِ الأَسْمَى الكَرِيمِ الرِّضَى ... الْبَاسِلِ الأَحْمَى الْكَبِيرِ الْهُمَامْ
مَنْ مِثْلُهُ لِنَشْرِ شَمْلِ الْعِدَى ... وَنَظْمِ شَمْلِ الدِّينِ حَتَّى اسْتَقَامْ
مَنْ مِثْلُهُ مُجَمِّعاً لِلثَّنَا ... مُفَرِّقاً لِلْعَارِفَاتِ الْجِسَامْ

---

(155) الفذ : الفرد، والتُّؤام : الزوج.

(156) دار السلام : بغداد.

مَهْمَا تَلَقَّاهُ لَقِيتَ الْغِنَى وَالشَّمْسَ تَبْدُو وَالْحَيَا فِي انْسِجَامْ
كَأَنَّمَا الْمُلْكُ لَهُ هَالَةٌ وَهْوَ لَهَا لاَشَكَّ بَدْرُ التَّمَامْ
أَخْطَأَ مَنْ قَاسَ بِهِ غَيْرَهُ إِنْ عَمَّ جُوداً أَوْ سَطَا بِالْحُسَامْ
أَدَامَهُ ٱللَّهُ لِنَظْمِ الْعُلَى مُؤَيَّدَ الْعَزْمِ رَفِيعَ الْمَقَامْ
مَا هَيَّجَ الْعُشَّاقَ بَرْقُ الْحِمَى وَمَا شَدَتْ فِي الرَّوْضِ وُرْقُ الْحَمَامْ

وَلَهُ أَيْضاً فِي مَدْحِهِ
أَيَّدَ ٱللَّهُ أَمْرَه وَأَعْلَى ذِكْرَه

نَامَتْ وَأَوْدَعَتِ الجُفُونَ سُهَادَهَا مَنْ قَدْ غَدَتْ شُهُبُ السَّمَا حُسَّادَهَا
سَلَبَتْ مَنَامَ العَيْنِ حِينَ تَوَهَّمَتْ أَنَّ الخَيَالَ لَدَى الْكَرَى قَدْ عَادَهَا
فَبِحُبِّهَا اكْتَنَفَ الْغَرَامُ قُلُوبَنَا وَتَحَمَّلَتْ مِنْ ثِقْلِهِ مَا آدَهَا
فَتَبِيتُ خَوْفَ صُدُودِهَا وَشُرُودِهَا وَكَأَنَّ مِنْ شَوْكِ الْقَتَادِ مِهَادَهَا
تَرْنُو إِلَيَّ بِبَاتِرٍ مِنْ طَرْفِهَا وَتَهُزُّ مِنْ لِينِ الْقَوَامِ صِعَادَهَا(157)
نَفْسِي الْفِدَاءُ لَهَا غَدَاةَ لِقَائِهَا وَقَدْ أَطْلَعَتْ تَحْتَ الدُّجَى أَضْدَادَهَا
وَتَبَسَّمَتْ عَنْ رِيقَةٍ فِي لُؤْلُؤٍ يَا مَا أَلَذَّ بِغُلَّتِي إِيرَادَهَا
بِتْنَا نُقَصِّرُ لَيْلَنَا وَنُطِيلُ مِنْ نَجْوَى أَحَادِيثِ الْهَوَى إِسْنَادَهَا
خَوْدٌ أَعَارَتْهَا الْغَزَالَةُ حُسْنَهَا وَكَذَا الْغَزَالَةُ نُورَهَا وَبِعَادَهَا(158)
يَا حَادِيَ الرُّكْبَانِ مَا لَكَ وَالسُّرَى عَرِّجْ بِهَا فَلَكَمْ أَطَلْتَ سُهَادَهَا
واقْصِدْ بِهَا مَوْلَى الخَلاَئِفِ يُوسُفاً قُطْبَ الْمَكَارِمِ أُسَّهَا وَعِمَادَهَا
وَرِدِ النَّمِيرَ وَدَعْ سِوَاكَ يَرِدْ بِهَا وَشَلَ الْمَنَاهِلِ قَانِعاً وَثِمَادَهَا(159)
مَلِكٌ عَلَى تَقْوَى الإِلاَهِ بِجُودِهِ أَعْلَى رُسُومَ الْمَكْرُمَاتِ وَشَادَهَا

---

(157) صعاد : جمع صَعْدة، وهي القناة المستقيمة.

(158) الغزالة الأولى الظبية، والغزالة الثانية الشمس.

(159) الوشل : الماء القليل، والثماد جمع ثمد وهو الماء القليل كذلك.

كَالْغَيْثِ إِذْ يَهْمِي بِدَرٍّ نَافِعٍ   لَكِنْ يَعُمُّ سُهُولَهَا وَنِجَادَهَا
كَالْمَشْرَفِيِّ مَضَاؤُهُ لَكِنَّهُ   أَبَداً تَرَاهُ مُجَدِّلاً آسَادَهَا
مَا نَظَّمَتْ أَرْمَاحُهُ أَجْسَامَهَا   إِلاَّ لِيَنْثُرَ سَيْفُهُ أَجْسَادَهَا
وَإِذَا تَحُلُّ بِهِ تُؤَمِّلُ جُودَهُ   بَلَّغْتَ نَفْسَكَ مِنْ مُنَاكَ مُرَادَهَا
فَتَعُدُّهُ يَوْمَ السَّمَاحَةِ حَاتِماً   وَتَرَاهُ فِي يَوْمِ الوَغَى مِقْدَادَهَا(160)
وَيُرِيكَ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى وَهَّاجَهَا   وَمِنَ الرَّصَانَةِ والْحِجَى أَطْوَادَهَا
فَإِذَا تَفَاخَرَتِ الْمُلُوكُ بِمَجْدِهَا   أَبْدَى صِفَاتِ كَمَالِهِ وَأَعَادَهَا
وَإِذَا تَذَاكَرَتِ الْمُلُوكُ خِلاَلَهَا   جَعَلَتْ بِهِ فِي قَوْلِهَا اسْتِشْهَادَهَا
مَنْ كَابْنِ نَصْرٍ فِي المُلُوكِ جَلاَلَةً   أَلْقَتْ إِلَيْهِ المَكْرُمَاتُ قِيَادَهَا
مَنْ كَابْنِ نَصْرٍ فِي الشَّجَاعَةِ وَالحِجَى   يَحْمِي حِمَاهَا أَوْ يُبِينُ رَشَادَهَا
مَنْ كَابْنِ نَصْرٍ يَوْمَ مُشْتَبَكِ الْقَنَا   يَكْفِي عِدَاهَا أَوْ يَكُفُّ عِنَادَهَا
مَنْ ذَا يُدَانِي قَدْرَهُ وَهْوَ الَّذِي   أَجْرَى الجِيَادَ إِلَى الْجِهَادِ وَقَادَهَا
مَنْ ذَا يُضَاهِي جُودَهُ وَهْوَ الَّذِي   مَنَحَ الْوُفُودَ الْمُعْتَفِينَ مُرَادَهَا
مِنْ آلِ نَصْرٍ نَاصِرِي دِينِ الْهُدَى   وَالْحَائِزِينَ مِنَ العُلَى آمَادَهَا
مَنْ مِثْلُهُمْ فِي العَالَمِينَ جَلاَلَةً   رَفَعَتْ عَلَى أَوْجِ السِّمَاكِ عِمَادَهَا
فِئَةٌ تَوَارَثَتِ الْكَمَالَ وَيُوسُفٌ   أَرْبَى عَلَيْهَا فِي الخِلاَلِ وَسَادَهَا
زَادَتْ قُلُوبُ الخَلْقِ فِيكَ مَحَبَّةً   لَمَّا ثَنَيْتَ إِلَى الْجِهَادِ جِيَادَهَا
وَسَلَكْتَ لاَحِبَ عَدْلِهَا وَأَبَنْتَهُ   وَأَنَلْتَ أُمَّةَ أَحْمَدٍ إِرْشَادَهَا
وَأَثَرْتَ بِالسُّمْرِ الطِّوَالِ دُجُونَهَا   وَجَلَوْتَ بِالبِيضِ الْقِصَارِ سَوَادَهَا
وَمَلَكْتَ وَصْفَ عَلاَئِهَا وَسَخَائِهَا   وَطَرِيفَ حِلْيَةِ مَجْدِهَا وَتِلاَدَهَا
فَبِبَأْسِ سَيْفِكَ أُمِّنَتْ فَلَوَاتُهَا   وَبِبَثِّ سَيْبِكَ أُمِّلَتْ إِسْعَادَهَا
مَا قَدَّمَتْكَ وَيَمَّمَتْكَ مُلُوكُهَا   إِلاَّ وَكُنْتَ مَلاَذَهَا وَعَتَادَهَا
وَإِمَامَهَا وَهُمَامَهَا وَغَمَامَهَا   وَحَلِيمَهَا وَكَرِيمَهَا وَجَوَادَهَا
مَا أَمَّ كَفَّكَ مُعْتَفٍ أَوْرَادَهَا   إِلاَّ جَعَلْتَ غِنَاءَهُ أَوْرَادَهَا

---

(160) هو المقداد بن الأسود الصحابي الجليل والفارس المشهور.

وَلِـذَا أَحَـادِيثُ النَّـدَى مَرْوِيَّـةٌ   عَن كَفِّهِ قَدْ صَحَّحُوا إِسْنَادَهَا
يَا مَنْ بِجُودِ يَمِينِهِ وَحُسَامِهَا   أَغْنَى الْعُفَاةَ كَمَا الْعُدَاةُ أَبَادَهَا
شُكْراً لِمَا أَوْلَيْتَنِي مِنْ نِعْمَةٍ   ظَهَرَتْ عَلَيَّ فَأَرْغَمَتْ حُسَّادَهَا
طَوَّقْتَنِي مِنْ جُودِكَ الْمِنَنَ الَّتِي   أَعْيَتْ قُوَّايَ فَلَمْ أُطِقْ تَعْدَادَهَا
أَلْبَسْتَنِي ثَوْبَ احْتِرَامِكَ ضَافِياً   فَأَنَالَنِي حُسْنَ الْحُلَى وَأَفَادَهَا
أَرْكَبْتَنِي طِرْفَ الْعِنَايَةِ سَابِقاً   فَأَجَلْتُ مِنْ غُرَرِ الْمَدِيحِ جِيَادَهَا
فَاسْلَمْ لِدِينٍ قَدْ حَفِظْتَ نِظَامَهُ   وَلأُمَّةٍ وَقَفَتْ عَلَيْكَ مُرَادَهَا

وَلِلْفَقِيهِ القَاضِي أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ حَاتِمٍ(161)
يَمْدَحُ مَقَامَهُ الكَرِيمِ أَسْمَاهُ اللَّـهُ

أَهَلَّ بَدْراً فَالدَّهْرُ مُبْتَسِمُ   مِنْ عَجَبٍ وَالْهِلاَلُ مُحْتَشِمُ
مَنْ نَاظِرٌ عَنْ بَصِيرَةٍ فَيَرَى   دُرَّ السَّعَادَاتِ كَيْفَ يَنْتَظِمُ
يَا زَمناً دَوْلَةُ الرِّضَى ظَهَرَتْ   فِيهِ لَنَا بَعْدَ حَرْبِكَ السَّلَمُ
كُنْتَ بِهَا عَنْ غِنًى تُمَاطِلُنَا   أَنْصَفَ مِنْكَ الْمُطَالِبُ الْحَكَمُ
أَقُول لِلطَّارِقِ الْمُبَشِّرِ مِنْ   صَوْتِكَ هَذَا اسْتُفِيدَتِ النَّغَمُ
أَهْلاً وَسَهْلاً وَمَرْحَباً بِفَتًى   يَهْتِفُ بِالْقَوْلِ كُلُّهُ نَعَمُ
أَلْقَيْتَ مِنْ يُوسُفٍ قَمِيصَ هُدًى   تَفِرُّ مِنْ فَرْطِ نُورِهِ الظُّلَمُ
أَدَرْتَ كَأْسَ السُّرُورِ مُزْرِيَةً   عَلَى مُدَامٍ يَشُوبُهَا النَّدَمُ
فَقَدْ شَرِبْنَا وَهَزَّنَا طَرَبٌ   فِيهِ رَأَيْنَا الْحُلُومَ تَخْتَصِمُ

---

(161) هو أبو القاسم محمد بن أحمد بن حاتم العاملي المالقي، كان أديبا بارعا وشاعراً مفلقاً وفقيها متمكنّاً، ولى قضاء جبل طارق وامتحن خلال الأزمة التي وقعت بين المرينيين والنصريين بسبب جبل طارق واعتقل بمدينة فاس، ذكر له ابن فركون في ديوانه قصيدة يخاطبه فيها وروى عنه ابن الأزرق في روضة الاعلام حكاية لطيفة وبيتين من شعره. وابن حاتم هذا هو صاحب مقامة «حضرة الارتياح، المغنية عن الراح» وقصيدة «أنجم السياسة» وكلتاهما منشورتان، كما أنه ألف وهو في السجن كتاباً سماه : «جمع المقال، في الاعتقال»، راجع مقدمتنا لديوان ابن فركون ص 73.

فَاسْتَبِقْ يَا أَيُّهَا الْبَشِيرُ وَخُذْ   مَا شِئْتَ مِنَّا إِنْ كُنْتَ تَحْتَكِمُ
مَا مُصْحِرٌ نَامَ عَنْ مَطِيَّتِهِ   وَهْوَ ضَنًى لاَتُقِلُّهُ قَدَمُ
فَعِنْدَمَا هَبَّ لَمْ يَجِدْ أَثَراً   لَهَا فَنَادَى وُجُودَهُ الْعَدَمُ
فَظَلَّ وَسْطَ الْفَلاَةِ مُضْطَجِعاً   لَهُ إِلَى الموت نَظْرَةٌ أَمَمُ
وَعَاوَدَتْهُ لِحُزْنِهِ سِنَةٌ   وَالنَّوْمُ عَيْنَ الْحَزِينِ يَقْتَحِمُ
فَلَمْ يَرُعْهُ إِلاَّ مَطِيَّتُهُ   تَمَسُّ أَرْكَانَهُ وَتَسْتَلِمُ
بِأَوْجَدَ الْيَوْمَ لِلْمَسَرَّةِ مِنْ   قَلْبِي مَهْمَا تَحَدَّثُوا بِهِمُ
أَكْرِمْ بِهَا دَوْلَةَ السَّعَادَةِ لاَ   يُعْتَاضُ فِيهَا عَنْ صِحَّةٍ سَقَمُ
أَكْرِمْ بِهَا دَوْلَةَ الْمَعَارِفِ إِذْ   تَصْدُرُ عَنْهَا الْعُلُومُ وَالْحِكَمُ
أَكْرِمْ بِهَا دَوْلَةَ الْمَكَارِمِ إِذْ   تَعْظُمُ مِنْهَا الْحُظُوظُ وَالْقِسَمُ
أَكْرِمْ بِهَا دَوْلَةَ الْمَهَابَةِ لاَ   يَطْرُقُهَا لِلْعُدَاةِ مُنْتَقِمُ
أَكْرِمْ بِهَا دَوْلَةَ التَّرَاحُمِ لاَ   يَقْطَعُ مِنْهَا الرَّجَاءَ مُجْتَرِمُ
تَشْمَلُ أَلْطَافُهَا رَعِيَّتَهَا   كَأَنَّ كُلَّ الْوَرَى لَهَا خَدَمُ
كَمْ وَعَدَتْنِي مُنَى الْمَنَامِ بِهَا   حَتَّى وَفَى بِالحَقِيقَةِ الْحُلُمُ
مَنْ كَابَدَ الصَّبْرَ فِي شَدَائِدِهِ   ظَلَّ مِنَ الشَّامِتِينَ يَنْتَقِمُ
أُقْسِمُ بِاللَّهِ لاَ شَرِيكَ لَهُ   لَيْسَ سِوَاهُ لِمُومِنٍ قَسَمُ
مَا جُدِّدَ الْمُلْكُ وَهْوَ مُنْثَلِمٌ   إِلاَّ لِيَنْسَدَّ ذَلِكَ الثَّلَمُ
مَوْلاَيَ أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ لَهَا   مَوْلاَكَ فَاشْكُرْ فَأَنْتَ مُحْتَرَمُ
تِلْكَ الْعِنَايَاتُ فِي السَّمَاءِ بِهَا   تُطِيعُ فِي الأَرْضِ أَمْرَكَ الأُمَمُ
وَالدِّينَ فَانْصُرْ فَأَنْتَ نَاصِرُهُ   فَطَالَمَا ظَلَّ وَهْوَ مُهْتَضَمُ
إِنْ أَصْبَحَ الكُفْرُ فَاغِراً فَمَهُ   فَلَيْسَ إِلاَّ الحِجَارَ يَلْتَقِمُ
وَإِنْ بَكَى الثَّغْرُ فَقْدَ حَارِسِهِ   فَالآنَ فَانْظُرْهُ حِينَ يَبْتَسِمُ
أَوْ أَوْقَدُوا نَارَهَا بِنُورِكَ لاَ   يَبْقَى لَهَا موقِدٌ وَلاَ ضَرَمُ(162)
لَيْسَ اتِّفَاقاً سَمَّوْهُ يُوسُفَ بَلْ   لأَنَّهُ بِالجَمَالِ مُتَّسِمُ

(162) الضّرَم : الحطب يرمى به في النّار.

وَلاَ سِمَـاتُ الْجَمَـالِ قَـاصِرَةٌ عَلَى الهَيُولَى[163] بَلْ أَمْرُهَا عَمَمْ
فَحَظُّنَـا مِـنْ جَمَالِـهِ نِعَـمٌ وَلِلْعِـدَى مِـنْ جَلاَلِـهِ نِقَـمُ
مِنْ ذُؤَابَتِهِ [164] أَرْبَعَـةٌ وَهْـوَ خَـامِسٌ لَهَـمُ
حَسْبُكَ يُمْنـاً بِـأَنَّ مِنْـهُ لَـهُ عُـوذَةُ عَيْـنِ الحُسَّادِ لاَ عَدِمُـوا
مَـولاَيَ هَـذِي وَصِيفَـةٌ وَقَـفَتْ وَفِي المُحَيَّـا مِـنَ الحيـاءِ دَمُ
وَكيفَ لاَ وَهْيَ فِي ذَرَى مَلِكٍ خَرَائِـرُ الشِّعْـرِ عِنْـدَهُ خَـدَمُ
وَلَيسَ للبَـدْرِ فِي السُّهَـى أَرَبٌ وَلاَ عَلَى الطَّلِّ تَحْرِص الدِّيَـمُ
لكِنَّ فَـرْطَ السُّرورِ هَـزَّ يَـدِي وَكان فِيهَـا فَهَيْنَـمَ[165] القَلَـمُ
إِنْ كَانَ عَدْلاً أَنْ يَخْتَفِي كَلِمِي فَلَيْسَ جَوْراً أَنْ يَظْهَـرَ الْكَـرَمُ
تِلْكَ سَمَاءُ السَّمَاحِ قَدْ بُنِيَتْ بِأَيْـدِ مَجْـدٍ فالغَـيثُ مُنْسَجِـمُ
وَلِلرُّبَـا مِنْـهُ عَـارِضٌ غَـدِقٌ وَقَـد تُغـاثُ الضِّرَابُ والأَكَـمُ[166]
بـالملِكِ النَّـاصِرِ انـتصرتُ عَلَـى دَهْـرٍ يلُـوكُ المُنَـى وَيَلْتَقِـمُ
طَاعَتُـهُ عِصْمَـةٌ وَدَوْلَتُـهُ أَمْـنٌ وَعُلْيَـا مَقَامِـهِ حَـرَمُ

وَرَفَعَ أيضا لِمقَامِه الكَرِيم أَسْمَاهُ اللَّه[167]

مَـدَدُ الْبَحْـرِ لِلْجَـدَاوِلِ فَـاضَا مَلأَ الصِّنْوُ مِنْ نَدَاكُـمْ حِيَـاضَا
إِنَّ أَرْضَ السُّرورِ كَـانَتْ مَوَاتـاً فَاسْتَقَامَتْ بِكُم وَعَـادَتْ رِيَـاضَا

مَـلِكٌ جَـدَّ فِـي مِـلاَكِ أَخِيـهِ فَتَنَاهَـى عَـلاَؤُهُ واسْتَفَـاضَا
إِنَّ يَوْمـاً تَـأَسَّسَ الْعَقْـدُ فِيـهِ مِنْـهُ يَسْتَنْبِـطُ النَّهَـارُ الْبَيَـاضَا

(163) الهيولى : المادة الأولى.
(164) بياض في الأصل.
(165) فَهينَم : أخفى كلامه، ولعلّ الصواب : فهيمن.
(166) الأكم جمع أكمة وهي التلّ والضراب والضّارب : الأرض المطمئنة.
(167) قيلت هذه القصيدة بمناسبة احتفال السلطان يوسف الثالث بإملاك أحد إخوته.

لَيْسَ بِدْعاً عَنْ يُوسُفٍ أَنْ تَرَاهُ قَادَ لِلإِخْوَةِ الأَمَانِي وَرَاضَا
هُوَ أَجْرَى لَهُمْ عُيُونَ التَّحَفِّي بَعْدَمَا كَانَ فَيْضُهَا قَدْ غَاضَا
رَحِمٌ ظَلَّ بِاتِّبَاعِ رِضَاهَا لِلرِّضَى مِنْ إِلاَهِهِ مُعْتَاضَا
لَيْسَ إِلاَّ بِصِحَّةِ الْقَصْدِ مِنْهُ زَارَتِ الصِّحَّةُ النُّفُوسَ الْمِرَاضَا
يَا إِمَامَ الزَّمَانِ إِنَّا افْتَرَضْنَا شُكْرَ ذَاكَ الصَّنِيعِ مِنْكَ افْتِرَاضَا
هَبْكَ أَنَّ الخُمُولَ عَنْهُ ثَنَانِي إِنَّ لِي بِالهَوَى إِلَيْهِ انْتِهَاضَا

وَرَفَعَ لِمَقَامِهِ العَلِيِّ أَسْمَاه اللَّه
الْفَقِيهُ العَدْلُ أَبُو جَعْفَر العُرَيْبي[168]

أَمِنْ بَارِقٍ قَدْ لاَحَ بَيْنَ النَّوَاسِمِ تَذَكَّرْتَ حُسْنَ الْعَاطِرَاتِ الْبَوَاسِمِ
فَأَبْدَيْتَ وَجْداً كُنْتَ تُخْفِيهِ مُدَّةً مَخَافَةَ وَاشٍ أَوْ مَلاَمَةَ لاَئِمِ
وَقَدْ كُنْتَ قَبْلَ الْبَيْنِ تَهْوَى وَتَدَّعِي بِأَنَّكَ سَالٍ عَنْ هَوَى أُمِّ سَالِمِ
نَعَمْ بَانَ لِلأَفْهَامِ أَنِّي هَائِمٌ وَجَفْنِيَ هَامٍ بِالدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ
حَنَنْتُ لإِلْفٍ مُصْعِدٍ[169] غَيْرِ مُسْعِدٍ وَهِمْتُ بِرَكْبٍ رَاحِلٍ غَيْرِ رَاحِمِ
مَضَى مُعْرِضاً واللَّيْلُ قَدْ مَدَّ ذَيْلَهُ عَلَى كُلِّ مَمْدُودِ الطُّلَى والْقَوَائِمِ
لِيَ اللَّهُ لا أَنْسَى عَلَى البَيْنِ مَوْقِفاً وَقَفْتُ بِه مَا بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ
مَعَالِمُ بَيْنَ الرَّقْمَتَيْنِ جَنَى بِهَا جَنَانِي عَذاباً مِنْ عِذَابِ الْمَبَاسِمِ
فَكَمْ لِي فِيهَا مِنْ حَنِينٍ مُبَرِّحٍ يُنَسِّي حَنِينَ العَاطِفَاتِ الرَّوَائِمِ
فَلِلَّهِ أَشْوَاقِي بِهَا حِينَ آذَنَتْ بِفُرْقَتِنَا أَيْدِي الْمَطِيِّ الرَّوَاسِمِ
وَمَا وَدَّعَتْ بَلْ أَوْدَعَتْ بِجَوَانِحِي جَوىً جَائِلاً بَيْنَ الْحَشَا والحَيَازِمِ[170]
فَأَمْسَيْتُ فِي بَحْرٍ مِنَ الدَّمْعِ سَاجِمٍ وأَضحيْتُ فِي جَمْرٍ من الشَّوْقِ جَاحِمِ

(168) ورد ذكره في ثبت البلوى الوادي آشي ووصف فيه بالخطيب النّحوي بينما نعت هنا بالفقيه العدل، ولم أجد له ذكراً في مكان آخر. انظر ثبت البلوي الوادي آشي : 216.
(169) في الأصل : مسعد، ولعلّ الصواب ما أثبتنا. والمصعد : الراحل.
(170) الحيازم والحيازيم جمع حيزوم، وهو وسط الصدر وما يضمّ عليه الحزام.

أُسَايِرُ فِي أَطْلاَلِهَا كُلَّ هَائِمٍ — وَأَسْأَلُ عَنْ أَظْعَانِهَا كُلَّ قَادِمِ
وَأُودِعُ شَكْوَايَ الصَّبَا كُلَّمَا صَبَا — عَلَى وَرَقِ الأَغْصَانِ وُرْقُ الحَمَائِمِ
وَلَمَّا خَلاَ رَبْعٌ وَأَقْفَرَ مَعْهَدٌ — قَضَيْنَا بِهِ عَهْدَ الصِّبَا الْمُتَقَادِمِ
إِذَا السَّعْدُ قَدْ أَضْحَى يُدِيرُ بِرَاحَةٍ — عَلَيْنَا مِنَ الرَّاحَاتِ كَأْسَ مُنَادِمِ
فَكَمْ مِنْ لَيَالٍ كَاللآلِي قَطَعْتُهَا — وِصَالاً عَلَى رَغْمِ الرَّقِيبِ الْمُلاَزِمِ
لَيَالٍ أُدِيلَتْ بِالنَّوَى وَلَطَالَمَا — جَنَيْتُ بِهَا وَرْدَ الخُدُودِ النَّوَاعِمِ
لَبِسْتُ رِدَاء مِنْ دُجَى اللَّيْلِ سَابِغاً — وَجُبْتُ الْفَيَافِي فِي ظُهُورِ الْغَرَائِمِ
إِلَى أَنْ تَخَطَّيْتُ الرِّحَالَ وَقَدْ غَفَتْ — رِجَالٌ سَعَتْ مَا بَيْنَنَا بِالنَّمَائِمِ
وَرُمْتُ الْمُنَى مِنْهَا وَمَنْ لِي بِنَيْلِهِ — وَلَحْظُ الْمَنَايَا دُونَهَا غَيْرُ نَائِمِ
وَغُرْبٌ حَوَامٍ مُحْدِقُونَ بِثَغْرِهَا — يَصُدُّونَ عَنْهُ كُلَّ صَادٍ وَحَائِمِ
وَبِالقُبَّةِ الْحَمْرَاءِ بَيْضَاءُ إِنْ بَدَتْ — أَرَتْكَ نَهَاراً فِي اللَّيَالِي الْعَوَاتِمِ
تَمُوجُ بِنَعْمَانٍ من الرِّدْفِ مُفْطِرٍ — وَتُزْهَى بِرَيَّانٍ مِن الخَصْرِ صَائِمِ
وَتَهْتَزُّ عَنْ غُصْنٍ مِن الْقَدِّ بَاسِقٍ — وَتَفْتَرُّ عَنْ زَهْرٍ مِنَ الثَّغْرِ بَاسِمِ
وَتَرْنُو بِفَتَّاكٍ مِنَ الجَفْنِ نَاعِسٍ — وَتَسْبِي بِفَتَّانٍ مِنَ الْخَدِّ نَاعِمِ
وَتَحْكِي بِرَيَّاهَا الذَّكِيِّ نَوَافِحاً — مِنَ الزَّهْرِ تَسْرِي بَيْنَ أَيْدِي النَّوَاسِمِ
وَإِلاَّ ثَنَاءَ النَّاصِرِ الْمَلِكِ الَّذِي — سَرَى بِنُجُودٍ جُودُهُ وَتَهَائِمِ
مَلِيكٌ عَزِيزُ الذَّاتِ سَامٍ مُرَوِّعٌ — بِهَيْبَتِهِ العُظْمَى قُلُوبَ الأَعَاظِمِ
إِذَا لاَحَ بَرْقُ البِشْرِ فِي صَفَحَاتِهِ — هَمَتْ رَاحُهُ بِالْوَابِلِ الْمُتَرَاكِمِ
وَمَهْمَا اعْتَرَى خطبٌ بدتْ منه أنجمٌ — مِنَ الرَّأْيِ تُزْرِي بِالنُّجُومِ الْعَوَاتِمِ
حَلِيمٌ وَفِيٌّ عَادِلٌ أَيُّ عَادِلٍ — تَقِيٌّ زَكِيٌّ عَالِمٌ أَيُّ عَالِمِ
وَحِيدُ الْعُلَى سَامٍ عَلَى شُهُبِ الدُّجَى — إِمَامُ الْهُدَى بَحْرُ النَّدَى الْمُتَرَاكِمِ
غِيَاثٌ لِمُرْتَاعٍ وَغَيْثٌ لِمُمْحِلٍ — وَظِلٌّ لِمُرْتَاحٍ وَوِرْدٌ لِحَائِمِ(171)
وَيُمْنٌ لِمُسْتَجْدٍ وَأَمْنٌ لِخَائِفٍ — وَنَجْمٌ لِمُسْتَهْدٍ وَبَدْرٌ لِوَاسِمِ
لَهُ الشَّرَفُ الوَضَّاحُ والشِّيَمُ الَّتِي — بَدَتْ أَنْجُماً زُهْراًبِأُفْقِ الْمَوَاسِمِ

(171) الحائم : العطشان.

لَهُ مِنْ نُعُوتِ الْبِرِّ أَزْكَى مَنَاقِبٍ ... يُؤَكِّدُهَا عَطْفاً بِرَفْعِ الْمَظَالِمِ
وَقَارٌ تُضَاهِيهِ الرَّوَاسِي وَهِمَّةٌ ... تَوَدُّ عُلاَهَا زَاهِرَاتُ النَّعَائِمِ (172)
وَعَزْمٌ يَوَدُّ الدَّهْرُ لَوْ كَانَ مِثْلَهُ ... مَضَاءً وَيَنْبُو دُونَهُ كُلُّ صَارِمِ
وَفَرْعُ كَمَالٍ أَصْلُهُ الْعِلْمُ وَالتُّقَى ... وَغَيْثُ نَدًى يُنْسَى بِهِ ذِكْرُ حَاتِمِ
وَعَرْفُ ثَنَاءٍ جَالَ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ ... أَنَمَّ مِنَ الْمِسْكِ الذَّكِيِّ لِنَاسِمِ
وَعُمْدَةُ عِلْمٍ قَدْ بَدَتْ بِبَيَانِهَا ... وُجُوهُ الْمَعَانِي بَيِّنَاتُ الْمَبَاسِمِ
فَنَظْمٌ كَزُهْرٍ أَوْ كَعِقْدِ لَئَالِىءٍ ... وَنَثْرٌ كَزَهْرٍ أَوْ كَحُلَّةِ رَاقِمِ
مَحَاسِنُ حَلَّتْ عَاطِلَ الدَّهْرِ فَاغْتَدَى ... يَرُوقُ بِأَسْلاَكٍ لَهُ وَخَوَاتِمِ
نَمَتْهُ إِلَى سَعْدٍ مُلُوكٌ أَكَارِمٌ ... لِعِزَّتِهِمْ ذَلَّتْ نَوَاصِي الأَكَارِمِ
بِهِ ارْتَفَعَ الأَقْيَالُ (173) مِنْ ءَالِ قَيْلَةٍ (174) ... كَمَا ارْتَفَعَتْ بِالْمُصْطَفَى ءَالُ هَاشِمِ
وَمَنْ كَبَنِي نَصْرٍ أُولِي الْبِرِّ وَالْهُدَى ... بُدُورٍ بِأُفْقِ الْمُلْكِ بِيضِ الْمَبَاسِمِ
إِذَا ضَنَّتِ الأَمْلاَكُ يَوْماً بِمَالِهَا ... رَأَوْا بَذْلَهُمْ لِلْمَالِ ضَرْبَةَ لاَزِمِ
وَإِنْ عَبَسَتْ حَرْبٌ مَحَوْا لَيْلَ رَوْعِهَا ... بِكُلِّ صَبَاحٍ بَاسِلِ الرَّوْعِ بَاسِمِ
يَرُدُّونَ عَنْ وِرْدِ الْمُنَى كُلَّ وَارِدٍ ... بِسُمْرِ الْعَوَالِي أَوْ بِبِيضِ الصَّوَارِمِ
صَوَارِمُ بُتْرٌ أَشْبَهَتْ فِي غُمُودِهَا ... أَزَاهِرَ رَوْضٍ فِي فُتُوقِ الْكَمَائِمِ
فَكَمْ لَهُمُ فِي الْحَرْبِ مِنْ وَقْفَةٍ وَكَمْ ... أَذَلُّوا لَدَيْهَا مِن نُفُوسٍ كَرَائِمِ
بِهَا فَرَّقُوا جَمْعَ الأَعَادِي وَأَعْمَلُوا ... مَوَاضِيَهُمْ بَيْنَ الطُّلَى وَالْجَمَاجِمِ
إِذَا انْتَصَبُوا لِلْحَرْبِ جَرَّتْ أَمَامَهُمْ ... جُيُوشُ أَعَادِيهِمْ ذُيُولَ الْهَزَائِمِ
هُمُ الْقَوْمُ قَدْ سَادُوا الوَرَى فِي مُهُودِهِمْ ... وَهَابَتْهُمُ مِنْ قَبْلِ حَلِّ التَّمَائِمِ
بِسَعْدِهِمُ عَزَّتْ كَتَائِبُ أَحْمَدٍ ... وَنَصْرِهِمْ ذَلَّتْ مُلُوكُ الأَعَاجِمِ
كَفَاهُمْ سُمُوّاً مِنْكَ أَنَّكَ كَافِلٌ ... بِنُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ مِنْ كُلِّ ظَالِمِ
وَأَنَّكَ قَدْ شَيَّدْتَ رَبْعَ ثَنَائِهِمْ ... بِرُكْنٍ مِنَ التَّقْوَى رَفِيعِ الدَّعَائِمِ

---

(172) النعائم : ثمانية أنجم، وهي من منازل القمر.

(173) الاقيال جمع قيل وهو الملك، وآل قيله هم الأوس والخزرج.

(174) البديع : بديع الزمان الهمداني وحازم : حازم القرطاجني.

وَأَنَّكَ قَدْ أَبْدَيْتَ لِلْعَدْلِ أَنْجُماً جَلَتْ كُلَّ مُسْوَدٍّ مِنَ الْجَوْرِ فَاحِمِ
أَنَاصِرَ دِينِ ٱللَّهِ خُذْهَا جَوَاهِراً مِنَ النَّظْمِ لَمْ تَظْفَرْ بِهَا كَفُّ نَاظِمِ
قَوَافٍ لَهُنَّ الزُّهْرُ أَضْحَتْ قَوَافِياً بَدَائِعُ أُزْرَتْ بِٱلْبَدِيعِ وَحَازِمِ
عَلَى أَنَّهَا تَرْجُو الْقَبُولَ وَتَبْتَغِي لَدَيْكَ مِنَ الإِحْسَانِ تُحْفَةَ قَادِمِ
بَقِيتَ بِأَوْصَافٍ عَوَالٍ كَوَامِلٍ تَقُدُّ بِهَا سُمْرَ العَوَالِي الْكَوَالِمِ

وَرَفَعَ كَذَلِكَ لِمَقَامِهِ الْكَرِيمِ أَعْلاَهُ ٱللَّه الْفَقِيهُ الأَعَز أَبُو زَكَرِيا يَحْيَى بْنُ أَحْمَد ابن السَّرَّاج مِنْ أَهْلِ رُنْدَة(175)

بُشْرَى تَجَلَّتْ لِلزَّمَانِ وَأَهْلِهِ نُوراً سَمَا بِرُبَى الأَمَانِ وَسَهْلِهِ
وَتَلأْلأَ الأُفُقُ الَّذِي مَا مِثْلُهُ أُفُقٌ لإِحْرَازِ الثَّوَابِ وَنَيْلِهِ
وَبَدَا عَلَيْهِ مِنْ خِلاَفَةِ يُوسُفٍ فَلَقٌ بِهِ ضَاءَتْ دُجُنَّةُ لَيْلِهِ
مَلِكٌ بِهِ الأَمْلاَكُ سَادَتْ وَاعْتَلَتْ أَقْدَارُهُمْ فَوْقَ السُّهَا وَمَحَلِّهِ
كَلِفٌ مِنَ الْعَلْيَاءِ بِالْقُصْوَى الَّتِي لاَ فَوْقَهَا وَمِنَ الْعَطَاءِ بِجَزْلِهِ
غَمَرَ الْبَرِيَّةَ بِالنَّوَالِ فَرِفْدُهُ يَهْمِي عَلَى الآبَادِ صَيِّبُ وَبْلِهِ
فَخَرَتْ بِهِ الأَيَّامُ وَاسْتَوْلَتْ عَلَى جِنْسِ الْعَلاَءِ عَلَى التَّمَامِ وَفَصْلِهِ
واسْتَوْثَقَ الإِسْلاَمُ مِنْهُ بِمَانِعٍ لِكَرِيمِ حَوْزَتِهِ وَجَامِعِ شَمْلِهِ
هَذَا وَإِنَّ الْمُلْكَ أَصْبَحَ سَابِقاً أَمَدَ الْفَخَارِ بِهِ وَمُحْرِزَ خَصْلِهِ
ذُعِرَ الْعَدُوُّ لَهُ وَأَيْقَنَ أَنَّهُ يَجْتَثُّ دِينَ صَلِيبِهِ مِنْ أَصْلِهِ
خَفَقَتْ بِمَيْدَانِ الْجِهَادِ بُنُودُهُ واسْتَرْسَلَتْ فِيهِ سَوَابِقُ خَيْلِهِ

---

(175) يقول ابن فركون في ديوانه: «وكانت بيني وبين الفقيه أبي زكرياء يحيى بن السرّاج من أهل رندة مكاتبات أيام القراءة إلى أن زلت به قدمه وخانته همه ونزع أيام فتنة الرئيس البائس الواصل إلى جبل الفتح إليه ثم استقر أخيرا بفاس وبها وافته منيته» ثم ساق قصيدة خاطب بها ابن السراج عام 808هـ ولا نعرف هل هو المحدّث صاحب الفهرسة المعروفة أم لا ؟ لأنّ هذا توفي عام 804هـ أو عام 805هـ كما في ترجمته.

رُمِيَ الضَّلاَلُ بِنَافِذٍ مِنْ عَزْمِهِ وَدَمُ الْعِدَى بِمُبِيحِهِ وَمُحِلِّهِ
فَالبَدْرُ يَقْصُرُ عَنْ ضِيَاءِ جَبِينِهِ وَالْبَحْرُ يَصْغُرُ عَنْ نَوَافِلِ بَذْلِهِ
والزَّهْرُ يَفْضَحُهُ تَأَرُّجُ ذِكْرِهِ وَالزُّهْرُ تَخْفِضُهَا مَوَاطِيءُ نَعْلِهِ
والأَرْضُ تُبْهِجُهَا مَحَاسِنُ حُسْنِهِ وَالرَّوْضُ تُخْجِلُهَا شَمَائِلُ فَضْلِهِ
وَلَقَدْ صَفَا لِلْخَلْقِ مَوْرِدُ رِفْقِهِ وَضَفَا عَلَى الآفَاقِ وَارِفُ ظِلِّهِ
وَأَنَارَ وَجْهَ الدَّهْرِ وَجْهُ سَنَائِهِ وَأُتِي بِحُكْمِ رَخَائِهِ لاَ أَزْلِهِ(175م)
وَتَحَقَّقَ الْحَقُّ الْمُنِيفُ بِهَدْيِهِ وَتَعَلَّقَ الدِّينُ الْحَنِيفُ بِحَبْلِهِ
وَلَسَوْفَ يُنْسِي عَصْرُهُ فِي سَعْدِهِ وَجَمَالِهِ مَا قَدْ مَضَى مِنْ قَبْلِهِ
وَلَسَوْفَ يَفْتَحُ وَاثِقاً مِنْ رَبِّهِ كُلَّ الْبِلاَدِ بِعَوْنِهِ وَبِحَوْلِهِ
وَيَبُتُّ شَمْلَ الْكُفْرِ سَيْفُ جِهَادِهِ حَسْماً لِكُثْرِ فَرِيقِهِ وَلِقُلِّهِ
وَيُجِيلُ خَيْلَ اللَّهِ تَمْرَحُ مِثْلَمَا غَرَضَ الْفُتُوحِ يُصِيبُ صَائِبُ نَبْلِهِ
فَهُبُوبُ رِيحِ النَّصْرِ آنَ أَوَانُهُ وَوُصُولُ وَقْتِ الْفَتْحِ دَانَ بِوَصْلِهِ
حَكَمَتْ مَيَامِنُهُ بِعِزِّ جُنُودِهِ وَقَضَتْ بِهُونِ عَدُوِّهِ وَبِذُلِّهِ
يَا صُقْعَ أَنْدَلُسٍ حُبِيتَ بِنَاصِرٍ لِلدِّينِ والدُّنْيَا مُجَرَّدُ نَصْلِهِ
مَطَلَ الزَّمَانُ بِوَعْدِ نَصْرٍ بُرْهَةً فَأَتَى بِهِ مُسْتَغْفِراً مِنْ مَطْلِهِ
لاَ غَرْوَ أَنَّ الشِّرْكَ أُنْذِرَ حِزْبُهُ بِمُبِيدِهِ وَمُبِيرِهِ وَمُذِلِّهِ
شِيَمٌ تَبَدَّتْ لِلْخَلِيقَةِ دُونَهَا نَظْمُ الْمُجِيدِ وَنَثْرُهُ مِنْ قَوْلِهِ
آبَاؤُهُ الأَعْلَوْنَ أَحْيَوْا لِلْعُلَى مَا كَانَ قَبْلَهُمُ عَفَا مِنْ سُبْلِهِ
نَصَرُوا الْخَلاَئِقَ نَصْرَ أَنْصَارِ الْهُدَى لِنَبِيِّ رَبِّهِمُ وَخَاتِمِ رُسْلِهِ
كَفُّوا عَنِ الشَّرْعِ الْقَوِيمِ أَكُفَّ مَنْ السَّيْفُ أَنْفَعُ لِلْعُلَى مِنْ عَذْلِهِ
حَمَلُوا الأَنَامَ عَلَى اجْتِنَابِ حَرَامِهِ حَمْلَ الرَّشَادِ وَالاِكْتِسَابِ لِحِلِّهِ
وَسَعَوْا لِمَرْضَاةِ الإِلاَهِ وَيَالَهُ سَعْياً تَأَلَّقَ نُورُهُ مِنْ أَجْلِهِ
مَا مِنْهُمُ إِلاَّ إِمَامُ هِدَايَةٍ سَرَتِ الرِّفَاقُ بِذِكْرِ ءَايَةِ طَوْلِهِ
مَنْ مِثْلُهُ مَوْلَى الْوَرَى وَهُوَ الَّذِي ضَاقَ الْوُجُودُ عَنِ الوُجُودِ لِمِثْلِهِ

(175م) أزل : شدة، يقال : هم في أزْلٍ أي في ضيق من العيش.

لَمَّا تَوَلَّى الأَمْرَ وَهْوَ حَقِيقَةٌ نِعْمَ الأَحَقُّ بِهِ وَأَكْرَمُ أَهْلِهِ
وَجَبَ الْهَنَاءُ عَلَى الْعِبَادِ بِمَن إِذَا بَخِلَ الْغَمَامُ أَتَى بِهِ فِي سَجْلِهِ
جَاءَ الْوُفُودُ مُبَايِعِينَ إِمَامَهُمْ مُسْتَمْسِكِينَ بِحِلْمِهِ وَبِعَدْلِهِ
وَأَتَى الْعَبِيدُ مُهَنِّئِينَ وَكُلُّهُمْ قَدْ فَازَ مِنْ حَظِّ السُّرُورِ بِكُلِّهِ
حَلُّوا بِسَاحَةِ بَابِهِ فَجَمِيعُهُمْ مَا عَاشَ يَحْمدُ حُسْنَ عُقْبَى حَلِّهِ
فَلْتَهْنَإِ الدُّنْيَا وَيَهْنَأْ أَهْلُهَا بِحُلُولِ مِيقَاتِ الظُّهُورِ وَفَصْلِهِ
صُنْعٌ مِنَ اللَّهِ الْعَظِيمِ تَبَلَّجَتْ صُبْحاً يَرُوقُ سَنَى عَجَائِبُ فِعْلِهِ
فَالْمُلْكُ مِلْكٌ وَالسَّنَا كَسَمِيِّهِ وَالنِّيلُ شِنِّيلٌ بِمُعْجِبِ شَكْلِهِ
مَا مِصْرُ إِلاَّ دُونَ حَضْرَةِ مُلْكِهِ حُسْناً مَضَى بِحِجَا الْفَتَى وَبِنُبْلِهِ
مَوْلاَيَ يَا مَوْلَى الْمُلُوكِ وَمَنْ لَهُ شَرَفٌ تَضَاءَلَ غَيْرُهُ مِنْ حَمْلِهِ
لاَزَالَ مُلْكُكَ مَظْهَرَ الْحَقِّ الَّذِي شُفِيَ الْهُدَى مِنْهُ بِمُذْهِبِ ثُكْلِهِ

وَقَالَ أَيْضاً يَمْدَحُ مَقَامَه الْكَرِيم أَعْلاَهُ اللَّه، وَعَرَّفَ الْوُجودَ عَوَارِفَ رُحْمَاه

قَدْ أَيْقَنَ الإِسْلاَمُ أَنَّكَ نَاصِرُهْ وَدَرَى الْعَدُوُّ بِأَنَّ جُنْدَكَ قَاهِرُهْ
يَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الَّذِي آثَارُهُ كَرُمَتْ وَجَلَّتْ فِي الْوُجُودِ مَآثِرُهْ
يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الهمامُ وَمَن غَدَتْ أَجْنَادُهُ مَنْصُورَةً وَعَسَاكِرُهْ
فَخَرَتْ بِكَ الأَيَّامُ وَالدِّينُ انْتَخَتْ بِجَمِيلِ ذِكْرِكَ فِي الأَنَامِ مَنَابِرُهْ
وَازْدَانَتِ الدُّنْيَا وَبَاهَتْ رِفْعَةً بِحُلاَكَ أَصْوِنَةُ الْعُلَى وَدَفَاتِرُهْ
إِنْ يَبْخَلِ الْغَيْثُ الْمُلِثُّ بِجَوْدِهِ عَمَّ الْوَرَى هَامِي نَدَاكَ وَهَامِرُهْ
أَوْ يُخْلِفِ الْجَوْدُ الْعَمِيمُ عِهَادُه غَمَرَ الْبَرِيَّةَ مِنْ نَوَالِكَ مَاطِرُهْ
فَالزَّهْرُ يُخْجِلُهُ وَإِنْ طَابَ الشَّذَى عَرْفٌ تَأَرَّجَ مِنْ ثَنَائِكَ عَاطِرُهْ
وَالزُّهْرُ يَعْلُوهَا وَإِنْ هِيَ قَدْ سَمَتْ مَرْقًى بَعِيداً مِنْ عُلاَكَ مَظَاهِرُهْ
لاَ بَذْلَ إِلاَّ مَا يَمِينُكَ خَوَّلَتْ لاَ فَضْلَ إِلاَّ مَا كَمَالُكَ نَاشِرُهْ
لاَ رِفْدَ إِلاَّ مِنْ جَلاَلِكَ مَنْحُهُ لاَ مَجْدَ إِلاَّ فِي خِلاَلِكَ نَاظِرُهْ

لاَ مُنْتَدَى لِلْفَضْلِ وَٱلْخُلُقِ الرِّضَى   إلاَّ وَفَخْرُكُـمُ ٱلْمُؤَثَّـلُ عَامِـرُهْ
لاَ سَاحَـةً لِـلشِّرْكِ إِلاَّ جَاسَهَـا   مِنْ جُنْدِكَ الأَرْضَى الْمُؤَيَّدِ وَافِرُهْ
فَٱلْـبِشْرُ طَلْـقٌ وَجْهُـهُ مُتَهَلِّـلٌ   تَبْدُو عَلَيْهِ مِـنْ سَنَـاكَ بَشَائِـرُهْ
وَالدَّهْـرُ مُؤْتَمِـرٌ لأَمْرِكُـمُ الَّـذِي   تَـمْضِي بِتَأْيِيـدِ الإِلاَهِ أَوَامِـرُهْ
وَالـعَصْرُ أُزْرَتْ بِٱلأَوَائِـلِ عِـزَّةً   بِسَعَادَةِ ٱلْمُلْكِ الْكَرِيمِ أَوَاخِـرُهْ
حَكَمَتْ بِنَصْرِ الدِّينِ حَقّاً سُمْرُهُ   وَقَضَتْ بِـذُلِّ الْكَافِرِيـنَ بَوَاتِـرُهْ
أَنَّى لِحِزْبِ الْكُفْرِ يَجْهَلُ قَـدْرَهُ   وَيَمُـدُّ أَطْمَاعاً وَحِـزْبُكَ كَـاسِرُهْ
أَنَّى لِجَيْشِ الشِّرْكِ يُبْصِرُ عَـدْوُهُ   يَوْماً يَطُولُ مَدىً وَسَيْفُكَ قَاصِرُهْ
مَوْلاَيَ يَا شَرَفَ الأَئِمَّةِ وَٱلَّـذِي   أَوْصَافُـهُ لاَ تَنْـحَصِي وَمَفَاخِـرُهْ
مَـوْلاَيَ يُـوسُفَ يَـا إِمَامَ هِدَايَـةٍ   كَـرُمَتْ لِمَـرْضَاةِ الإِلاَهِ سَرَائِـرُهْ
مَـا أَمَّ بَـابَكَ ذُو انْكِسَارٍ قَلْبُـهُ   إلاَّ وَفَضْلُكَ كُـلَّ حِيـنٍ جَابِـرُهْ
فَبَقِـيتَ مَوْلَـىً لِلْمُلُـوكِ وَمَالِكـاً   فَالدَّهْرُ مَأْمُـورٌ وَمُلْـكُكَ ءَامِـرُهْ
لاَزَالَ ظِلُّكَ فِـي ٱلْبَسِيطَةِ وَارِفـاً   يَضْفُو عَلَى كُـلِّ الْخَلِيقَةِ سَاتِـرُهْ

وَلَـهُ أَيْضاً فِـي مِثْـلِ ذَلِكَ

صَبَا النَّصْرِ قَدْ هَبَّتْ بِنَصْرِ بَنِي نَصْرِ   وَجَاءَتْ بِمَذْخُورِ الْفُتُوحِ لِذَا الْعَصْرِ
وَأَضْحَى جَبِينُ ٱلدَّهْرِ يُشْرِقُ يُمْنُهُ   وَأَمْسَى مُحَيًّا وَجْهِهِ رَائِقَ الْـبِشْرِ
أَئِمَّةُ فَضْلٍ جَـاءَ ذِكْـرُ عَلاَئِهِـمْ   بِأَشْرَفِ وَصْفِ الْمَدْحِ فِي مُحْكَمِ الذِّكْرِ
خَلاَئِفُ عَدْلٍ لِلْخَلِيقَةِ قَدْ حَمَـوْا   بِدَارِ جِهَادٍ وَاسْتَبَاحُوا حِمَى الْكُفْرِ
وَأَحْيَوْا بِهَا الدِّينَ الْحَنِيفَ وَطَالَمَا   غَزَوْا عُصْبَةَ الأَوْثَانِ وَالشِّرْكِ فِي الْعُقْرِ
فَمَا مَكَرَ الأَعْـدَاءُ إِلاَّ تَعَـزَّزُوا   وَرَدُّوا عَلَيْهِمْ سُوءَ ذَلِكُمُ الْمَكْـرِ
وَلِلَّهِ مِنْهُمْ نَـاصِرُ الدِّيـنِ يُـوسُفٌ   أَمِيرُ الْوَرَى الزَّاكِي الْمَحَاتِدِ وَالنَّجْرِ
هُوَ الشَّمْسُ فِي ٱلآفَاقِ حُسْناً وَأَيْنَ مِنْ   عُلاَهُ عُلاَهَا فِي ٱلْمَصَاعِدِ وَٱلْقَدْرِ
هُوَ ٱلْبَدْرُ عِنْدَ التَّمِّ نُوراً وَأَيْنَ مِنْ   سَنَى ذَلِكَ الْمَرْأَى الْوَسِيمِ سَنَى الْبَدْرِ
مَعَانٍ تَجَلَّتْ أَعْجَزَ الْقَوْلَ شَرْحُهَا   وَقَلَّ لَدَيْهَا مُنْتَهَى الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ

مفاخِرُ مُلْكٍ يُخْجِلُ الرَّوْضَ حُسْنُهَا ... وَيَفْضَحُ فِي طِيبِ الشَّذَى نَفْحَةَ الزَّهْرِ
شَمَائِلُ لاَ تُحْصَى وَإِنْ هِيَ عُدِّدَتْ ... فَضَائِلُ يُلْفَى دُونَهَا طَامِيُّ الْبَحْرِ
مَرَاقِبُ قَدْ فَاتَتْ عَلَى الشُّهْبِ مُرْتَقًى ... مَنَاقِبُ قَدْ جَازَتْ مَدَى العَدِّ وَٱلْحَصْرِ
هُوَ ٱلْوِتْرُ فِي ٱلْعَلْيَاءِ فَٱلْعَصْرُ لَمْ يَكُنْ ... يَجِيءُ بِتَشْفِيعٍ لِذَلِكُمُ الْوِتْرِ
فَكَعْبُ الْمَعَالِي وَٱلْمَكَارِمِ قَدْ عَلَتْ ... مَوَاطِئُ نَعْلَيْهِ عَلَى مَفْرِقِ النَّسْرِ
سَبِيلَ الْهُدَى أَحْيَيْتَ يَا مَلِكَ الْهُدَى ... وَجَدَّدْتَ آثَارَ الْمَآثِرِ وَٱلْفَخْرِ
مَعَالِيكَ أَزْرَتْ بِٱلْكَوَاكِبِ رِفْعَةً ... وَإِنْ سُرِدَتْ أَرْبَتْ عَلَى الأَنْجُمِ الزُّهْرِ
وَتَاهَتْ بِكَ ٱلأَيَّامُ فَضْلاً وَعِزَّةً ... كَمَا بَاهَتِ الدُّنْيَا بِأَيَّامِكَ الْغُرِّ
ثَنَاؤُكَ أَحْلَى لِلنُّفُوسِ مِنَ الْمُنَى ... وَأَعْذَبُ مِنْ وَصْلٍ أَتَى عَقِبَ الْهَجْرِ
سَرَى نَشْراً طُولَ الْمَدَى مُتَسَحِّباً ... بُرُودَ جَمَالٍ فَذَّةِ الطَّيِّ وَٱلنَّشْرِ
وَإِنَّكَ مَعْنَى الْمُلْكِ حَقّاً وَسِرُّهُ ... وَنَاهِيكَ مِنْ مَعْنًى كَرِيمٍ وَمِنْ سِرِّ
فَمَجْدُكَ أَسْمَى فِي ٱلْعُلُوِّ مِنَ السُّهَا ... وَفَخْرُكَ أَسْنَى فِي ٱلإِيَاةِ مِنَ الْفَجْرِ
وَسَعْدُكَ نُورٌ مُذْهِبٌ كُلَّ غَيْهَبٍ ... وَنَاسِخُ حُكْمِ الْعُسْرِ بِٱلْخَيْرِ وَٱلْيُسْرِ
وَرِفْدُكَ غَيْثٌ يُنْعِشُ النَّاسَ سَيْبُهُ ... بِهِ حَالُهُمْ نَامٍ وَبَائِسُهُمْ مُثْرِ
وَغُرَّتُكَ الْغَرَّاءُ قَدْ لاَحَ نُورُهَا ... مَلاَذاً لَدَى الْجُلَّى مَعَاذاً مِنَ ٱلذُّعْرِ
وَنَصْرُكَ مَمْدُودُ ٱللِّوَاءِ وَلَمْ يَكُنْ ... لِمَمْدُودِهِ الخَفَّاقِ بِٱلْعِزِّ مِنْ قَصْرِ
وَفَتْحُكَ مَرْدُودُ ٱلْقَضَاءِ إِلَى الَّذِي ... لِمُلْكِكَ مِنْ أَمْرٍ عَلَى وِفْقِهِ يَجْرِي
وَبَذْلُكَ مَنْحٌ بَخَّلَ الْجُودَ وَكْفُهُ ... وَأَخْجَلَ فِي صَوْبِ النَّدَى وَاكِفَ الْقَطْرِ
وَفَضْلُكَ صُبْحٌ سَاطِعُ الضَّوْءِ سَافِرٌ ... عَنِ الْخُلُقِ الْمَرْضِيِّ وَٱلْكَرَمِ الثَّرِّ
فَلَوْلاَهُ فِي يُمْنَاكَ لَمْ يَعْشُ آمِلٌ ... إِلَى ضَوْءِ نَارٍ قَدْ أُقِيمَ عَلَى بِرِّ
أَمَوْلاَيَ يَا أَعْلَى الْمُلُوكِ جَلاَلَةً ... وَأَزْكَاهُمُ جَرْياً عَلَى سَنَنِ الصَّدْرِ
أَتَتْ بَابَكَ الأَعْلَى الْكَرِيمِ خَدِيمَةٌ ... لَهَا سَمْحُكَ الْمَأْمُولُ مِنْ أَنْفَسِ الذُّخْرِ
تُؤَمِّلُ أَنْ تُحْصِي الثَّنَاءَ وَمَنْ لَنَا ... بِإِحْصَاءِ عُشْرِ الْعُشْرِ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ
فَعَفْواً عَنِ التَّقْصِيرِ فَٱلأَمْرُ بَيِّنٌ ... وَحِلْمُكَ يَا مَوْلَى الْوَرَى قَابِلُ الْعُذْرِ
فَقَدْ فُقْتَ كُلَّ ٱلنَّاسِ فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلنُّهَى ... وَسُدْتَ مُلُوكَ الأَرْضِ فِي كُلِّ مَا أَمْرِ

وَمَا أَمَّ ذَاكَ الْمَجْدَ فِي ٱلدَّهْرِ قَاصِدٌ   مِنَ ٱلنَّاسِ إِلاَّ فَازَ بِٱلْمَقْصَدِ ٱلْبَرِّ
بَقِيتَ إِمَامَ الْمُسْلِمِينَ مُؤَيَّداً   وَعِزُّكَ مَسْطُورٌ عَلَى صَفْحَةِ الدَّهْرِ
وَلاَزِلْتَ مَنْصُوراً وَلِلدِّينِ نَاصِراً   تُزَادُ مَدَى الأَيَّامِ نَصْراً إِلَى نَصْرِ

وَفِي مَدْحِهِ أَيَّدَهُ ٱللَّه، لِلشَّرِيف الْمُعَظَّمِ أَبِي ٱلْعَبَّاس الْحَسَنِي[176] وَصَلَ ٱللَّهُ عُلُوَّ شَرَفِه، وَنَفَعَ بِحُبِّ سَلَفِه

يَا نَاصِرَ الدِّينِ يَا مَنْ   أَرْبَى عَلَى كُلِّ نَاصِرْ
حُزْتَ الْمَدَى فِي المَعَالِي   فَمَنْ يُجَارِيكَ قَاصِرْ
خَلَفْتَ مَنْ قَدْ نَمَتْهُمْ   إِلَى النَّبِيِّ الأَوَاصِرْ
كِسْرَى وَخَاقَانَ أَفْنَتْ   فِي نَصْرِهِ وَٱلْقَيَاصِرْ
عَنَاصِرٌ بِكَ تَسْمُو   أَعْظِمْ بِهَا مِنْ عَنَاصِرْ
فُقْتَ الْمُلُوكَ جَمِيعاً   قَدِيمَهُمْ وَٱلْمُعَاصِرْ
لِلَّهِ مِنْكَ إِمَامٌ   كُلٌّ بِهِ مُتَنَاصِرْ
فَأَنْتَ أَشْرَفُ مَوْلًى   تُثْنَى عَلَيْهِ الْخَنَاصِرْ
فِي ٱلْحَرْبِ لَيْثٌ هَصُورٌ   فِي ٱلسِّلْمِ بَدْرُ الْمَقَاصِرْ
هَذَا وَهَذْيُكَ أَضْحَى   مِلْءَ الْعُيُونِ الْبَوَاصِرْ
وَرَوْضُ جُودِكَ مِنْهُ   أَنَا لِنُعْمَاكَ هَاصِرْ
عُوِّدْتُ رِفْدَكَ بَحْراً   أَيَحْصُرُ الْبَحْرَ حَاصِرْ
وَكُلُّ وَصْفٍ كَمَالٍ   عَلَيْكَ دَهْرُكَ قَاصِرْ
مَوْلاَيَ عُذْراً فَبَاعِي   وَإِنْ يَطُلْ مُتَقَاصِرْ
بَقِيتَ كَهْفاً مَنِيعاً   عَلَى تَوَالِي الأَعَاصِرْ

(176) تقدّم ذكره.

وَمِـــنْ مُـرْتَـجَـلاَتِـــــه

أَقُولُ وَقَدْ أَبْصَرْتُ مَوْلاَيَ جَالِساً بِكُرْسِيِّهِ وَٱلنُّورُ مِنْ وَجْهِهِ ائْتَلَقْ
تَبَارَكَ رَبِّي بَارِىءُ الْخَلْقِ كُلِّهِـمْ وَإِنَّ الَّذِي أَبْصَرْتُ أَحْسَنُ مَا خَلَقْ
فَعَـوَّذْتُ بِالسَّبْعِ الْمَثَانِـي كَمَالَـهُ وَزِدْتُ لَهَا الإِخْلاَصَ مَعْ سُورَةِ الْفَلَقْ(177)

وَمِـنْ مُرْتَـجَـلاَتِـهِ أَيْضـاً

مَظَاهِـرُ مَـوْلاَيَ الْخَلِيفَـةِ يُـوسُفٍ تُنِيفُ عَلَى أَوْجِ السِّمَاكِ بِأَضْعَافِ
فَكُـلُّ إِمَـامٍ أَوْ مُقِيـمٍ خِلاَفَـةٍ يَحُطُّ رِكَابَ الْعَجْزِ عَنْهُ بِإِنْصَافِ
فَوَٱللَّـهِ ثُـمَّ ٱللَّـهِ مَـا ثَـمَّ مُشْبِـهٌ لِمَا حَازَهُ فِي ٱلْمُلْكِ مِنْ غُرِّ أَوْصَافِ
أَفَادَ جَمِيعَ الْخَلْقِ جُـوداً وَنَائِـلاً وَعَرَّفَهُـمْ مِنْـهُ عَـوَارِفَ أَلْطَـافِ
وَخَصَّ ذَوِي الْقُرْبَى بِفَضْلٍ تَوَاصُلٍ يَعُودُ عَلَى عُلْيَاهُ بِالْعُمْـرِ الْوَافِـي
أَتَخْفَى عَنِ الأَبْصَارِ ءَايَاتُ مَجْدِهِ وَهَيْهَاتَ مَا نُورُ الظَّهِيرَةِ بِٱلْخَافِي

وَفِـــي مِـثْــــلِ ذَلِــــكَ

وَمِمَّـا شَجَانِـي أَنَّنِـي غَيْـرُ تَـارِكٍ هَوَاهَا وَلَوْ أَدْنَى ٱلْحَيَاةَ إِلَى الأَجَلْ
وَلاَ قَائِـلاً يَوْمـاً وَسَائِـلَ سَلْـوَةٍ وَلاَ جَاحِدَ النُّعْمَى وَلاَ مُنْكِرَ الأَمَلْ
وَلَكِنَّنِي فِي ظِلِّ مَوْلاَيَ يُـوسُفٍ أُعَدُّ بِدَارِ الْمُلْكِ مِنْ جُمْلَةِ الْخَوَلْ
فَأَنْسَى حَبِيبِي وَٱلَّذِي قَـدْ هَوَيْتُـهُ بِوَجْهِ إِمَامٍ شَرَّفَ الْمُلْكَ وَالدُّوَلْ
وَأَضْحَى بِهِ وَجْهُ ٱلْبَسِيطَةِ بَاسِمـاً يُنِيرُ عَلَى الآفَاقِ بَدْراً قَدِ اكْتَمَلْ
فَأَيُّ حَبِيبٍ يَذْهَبُ الْقَلْبُ نَحْـوَهُ وَسِيمَاكَ تَبْدُو بِـالسُّرُورِ وَبِٱلْجَـذَلْ
وَأَنْتَ الَّذِي لَمْ تُبْقِ مَطْلَبَ طَالِبٍ فَكُلٌّ عَلَى مَا شَاءَ مِنْكَ قَدِ اشْتَمَلْ

(177) علّق السلطان السعدي أحمد المنصور على هذه الأبيات بقوله : «لا ينبغي لعاقل أن يخلّد مثل هذا القول السفساف» وتحت هذه العبارة في المخطوط ما يلي : «التوقيف أعلاه بخط أمير المومنين أحمد الذهبي رحمه الله».

وَلاَشَيْءَ فِي الدُّنْيَا سِوَى ذَاتِكَ الَّتِي   بِهَا فِي ٱلْمَعَالِي دَائِماً يُضْرَبُ الْمَثَلْ
وَعُـذْراً لِمَـوْلاَيَ الْخَلِيفَـةِ إِنَّنِـي   عَجَزْتُ عَنِ الْمَقْصُودِ وَٱللَّهِ بِٱلْخَجَلْ

وَمِنْ مَرْفُوعَاتِ الْفَقِيهِ الْخَطِيرِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِي بْنِ هُذَيْلٍ(178) لِلْمَقَامِ الْكَرِيمِ أَسْمَاه ٱللَّه

أَلاَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَمَـنْ أَنَـا   بِذَيْـلِ عُـلاَهُ فِـي الدُّنَـا أَتَعَلَّـقُ
دَعَا ابْنُ هُذَيْلٍ مِنْكَ خَيْرَ خَلِيفَةٍ   وَرَأْيُكَ فِي أَمْرِي مُصِيبٌ مُوَفَّـقُ
فَعَبْـدُكَ يَـا مَوْلاَيَ أَقْصَاهُ دَهْـرُهُ   وَأَهْمَلَهُ إِذْ ظَلَّ بِـآلأَرْضِ يُـلْصَقُ
وَإِنْ أَنَا أَشْكُو ذَاكَ فَالْعُذْرُ بَيِّـنٌ   لَدَيْكَ وَإِنْ أَصْمُتْ فَحَالِيَ تَنْطِـقُ
تُحَمِّلُنِـي الأَيَّـامُ أَعْبَـاءَ صَرْفِهَـا   وَلاَ تَرْعَوِي عَمَّا بِهِ لِيَ تَطْـرُقُ
أَمَـا عَلِمَتْ أَنِّي بِعُلْيَـاكَ لاَئِـذٌ   فَأُفٍّ لَهَا إِذْ سَعْيُهَا فِيَّ مُخْفِـقُ
أَنَا الْعَبْدُ لاَ يَعْدُوكَ مَدْحِي مُرَدَّداً   وَلَسْتُ أَرَى إِلاَّ حُـلاَكَ أُنَمِّـقُ
وَحَسْبِي افْتِخَاراً أَنَّنِي لَكَ مَـادِحٌ   وَشَأْوِيَ فِيـهِ نَائِيـاً لَـيْسَ يُلْحَـقُ
وَسِيلَتِيَ الْكُبْرَى إِلَيْكَ بِكَ الَّـذِي   مَدَى الدَّهْرِ بِٱلْمَمْلُوكِ مَازِلْتَ تَرْفُقُ
فَنُعْمَـاكَ يَامَـوْلاَيَ يُـوسُفَ دَائِبـاً   عَلَى النَّاسِ تَمْحُو الْبُؤْسَ عَنْهُمْ وَتَمْحَقُ
وَذَاتُ يَدِي فِي الْوَقْتِ قَدْ نَفِدَتْ وَمَا   خَدِيمُكَ إِلاَّ مِـنْ نَـوَالِكَ يُـرْزَقُ
وَكَيْفَ أُعَانِي الْعُسْرَ يَوْماً وَلِلنَّدَى   بِكَـفِّكَ وَكْـفٌ دَائِـمٌ وَتَدَفُّـقُ
فَـلاَ خَلَـلٌ إِلاَّ وَمِـنْكَ مُسَدِّدٌ   وَلاَ أَمَـلٌ إِلاَّ وَمِـنْكَ مُعَلَّـقُ
وَحُرْمَتُكَ الْعُظْمَى عَلَى الْبُعْدِ لَمْ تَزَلْ   وَنُجْحُ الَّذِي يَرْجُوهُ مِنْكَ مُحَقَّقُ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الاشْتِغَالِ وِلاَيَةٌ   فَإِنِّي أَصِيلٌ فِي الْقِيَادَةِ مُعْـرِقُ(179)
وَمَازِلْت فِي هَـذَا وَذَاكَ مُسَخَّـراً   وَمُسْتَعْمَلاً فِي حَيْثُ أَسْمُو وَأَسْمُقُ
وَإِنْ ضَاقَ عَنِّي الْيَوْمَ بَابُ وِلاَيَةٍ   فَمَا هُوَ عَنِّي بَابُ جُودِكَ ضَيِّـقُ

---

(178) تقدّم التعريف به.
(179) مما يدلّ على كونه أصيلا في القيادة ومعرقا فيها كتابه حلية الفرسان وشعار الشجعان.

فَقَدْ عَمَّ يَا مَوْلاَيَ إِحْسَانُكَ الْوَرَى ... بِغَيْرِ سُؤَالٍ مِنْهُمُ لَكَ يَسْبِقُ
بذلتَ العَطَا لِلنَّاسِ غَيْرَ مُخَصِّصٍ ... فَأَخْصَبَ ذُو وَجْدٍ وَأَيْسَرَ مُمْلِقُ
وَحَسَّنَتِ الأَيَّامَ مِنْكَ صَنَائِعٌ ... فَمِنكَ عَلَى آلأَيَّامِ حُسْنٌ وَرَوْنَقُ
وَزِنْبِيلِيَ[180] الْمَثْقُوبُ مَا فِيهِ مُسْكَةٌ ... وَأَنَّى لَهُ الإِمْسَاكُ وَهْوَ مُمَزَّقُ
لَئِنْ رُوِيتْ عَنْكَ الْعَجَائِبُ فِي النَّدَى ... فَإِنَّكَ بِالفِعْلِ الجَمِيلِ تُصَدِّقُ
وَإِنْ نَفَعَتْ يَوْماً لَدَيْكَ وَسِيلَتِي ... فَإِنِّي فِيهَا عَنْ صَبُوحٍ أُرَقِّقُ[180م]
فَرَفِّعْ مَكَانَ الْعَبْدِ فِي النَّاسِ إِذْ غَدَا ... لَدَيْهِم ضَعِيفاً بِآلأَمَانِي يُلَفِّقُ
فَمَوْلاَيَ بِالطَّوْلِ الْجَزِيلِ مُعَوَّدٌ ... وَسُوقُ الْمُنَى دَأْباً بِمَثْوَاهُ تَنْفُقُ
ولاَ تَيْأَسِي يَا نَفْسِ مِنْ قَرْعِ بَابِهِ ... فَقَدْ تُفْتَحُ آلأَبْوَابُ مِنْ حَيْثُ تُغْلَقُ
بَقِيتَ وَلِلذِّكْرِ الجَمِيلِ تَخَلُّدٌ ... بِمَجْدِكَ مَا غَنَّى الْحَمَامُ الْمُطَوَّقُ

وَرَفَعَ لِمَقَامِهِ العَلِيِّ أَسْمَاهُ آللَّهُ
الْكَاتِبُ الأَبْرَعُ أَبُو عَبْدِ آللَّهِ الشَّرَّان[181]

قَضَى مُذْنِفِي أَنْ لاَ أُرَى عَنْهُ سَالِيَا ... وَإِنْ كَانَ فِي حُكْمِ الْهَوَى قَدْ أَسَالِيَا
مُطَاعُ هَوًى لَبَّيْتُ دَاعِيَ حُسْنِهِ ... فَمَازَالَ قَلْبِي مُذْ دَعَانِيَ عَانِيَا
هِلاَلُ دُجًى آنَسْتُ نُورَ جَمَالِهِ ... فَرُحْتُ لأَوْطَانِي وَنَاسِيَ نَاسِيَا
قَضِيبُ نَقًى أَسْقِيهِ دَمْعِي وَأَغْتَدِي ... بِهِ لِغَرَامٍ قَدْ شَجَانِيَ جَانِيَا
تَفَاءَلْتُ مِنْ أَعطافِهِ بِانْعِطَافِهِ ... عَلَيَّ وَلَكِنْ مَا وَفَا لِيَ فَالِيَا
وَهَلْ هُوَ إِلاَّ الظَّبْيُ طَوْعَ نِفَارِهِ ... فَكَيْفَ أُرَى مِنْهُ التَّدَانِيَ دَانِيَا
أَلاَ إِنَّ شَأْنِي حُبُّهُ شَطَّ أَوْ دَنَا ... وَإِنْ أَصْبَحَ اللاَّحِي لِشَانِيَ شَانِيَا
فَسَادِي صَلاَحٌ فِي هَوَاهُ وَقَلَّمَا ... تَرَانِي مُطِيعاً فِي صَلاَحِي لاَحِيَا
تَخِذْتُ الضَّنَا لُبْسِي وَصَيَّرْتُ نَاظِرِي ... عَنِ النَّوْمِ مِنْ فَرْطِ اسْتِعَارِيَ عَارِيَا

---

(180) الزنبيل : الجراب.

(180م) فيه تضمينٌ لمثل معروف.

(181) تقدم التعريف به وقد التزم في جميع أبيات القصيدة تجنيس التلفيق.

وَقَدْ كُنْتُ قبلَ اليومِ أحيى بِعَطْفِهِ فَـأَمْسَيْتُ لَمـا أَن جَفَانِـي فَانِيَــا
فَيَـا جَنَّـةً مَـازِلْتُ مُنْـذُ فِرَاقِهَـا بِنَارِ الأَسَى بَعْـدَ اتِّصَالِـي صَالِيَـا
أَلاَ عَطْفَةٌ تُرْجَى مِنَ الزَّمَنِ الَّذِي وَرَدْتُ بِهِ مِنْكَ التَّصَافِـي صَافِيَـا
بِحَيْثُ وِقَاءُ السَّعْدِ دُونِيَ قَدْ ثَنَى حُسَامَ التَّجَنِّي عَـنْ جَنَابِـي نَابِيَـا
وَإِذْ أَنْتَ مِنْ ذَاكَ الرُّضَابِ تَعُلُّنِي بِـرَاحٍ أَرَاحَتْ مِـنْ خَبَالِـيَ بَالِيَـا
تَقُولُ ارْتَشِفْ ثَغْرِي تُسَكِّنْ بِهِ الْجَوَى فَلَـيْسَ لَـهُ غَيْـرُ ارْتِشَافِـيَ شَافِيَـا
وَإِنْ خِفْتُ مِنْ لَحْظَيْكَ سُقْماً أَجَابَنِي عِـذَارُكَ قَـدْ وَافَـاكَ آسِيَ آسِيَــا
وَمَهْمَا رَعَى بَدْرَ السَّمَـاءِ مُسَهَّـدٌ ظَلِـلْتُ لِبَـدْرٍ فِـي ذِرَاعِـيَ رَاعِيَـا
هُوَ الْعَيْشُ لَوْ أَطْلَعْتَ لِي شَمْسَ أُنْسِهِ لأَخْمَدْتَ زَنْداً مِنْ أُوَارِي وَارِيَـا
عَلَى أَنَّنِي مَازِلْتُ فِي الْقُرْبِ وَالنَّوَى بِمَا يَقْتَضِي مِنْكَ التَّرَاضِيَ رَاضِيَا
فَعَـذِّبْ فُـؤَادِي أَوْ أَرِحْـهُ فَإِنَّمَـا غَدَا لَكَ مِلْكاً يَا هِلاَلِـيَ لاَلِيَـا
وَإِنْ عُدْتُ مِنْ لُقْيَاكَ صِفْراً فَلَمْ أَزَلْ لِفِكْـرِيَ إِنْ رُمْتُ التَّلاَقِـيَ لاَقِيَـا
وَمَا ضَرَّ أَنِّي [عَاطِلٌ] مِنْكَ إِذْ غَدَا بِجُودِ ابْنِ نَصْرٍ جِيدُ حَالِي حَالِيَا
هُوَ النَّاصِرُ الدِّينَ الَّذِي جَاءَ لِلْهُدَى وَقَدْ خَذَلَ الرُّعْبُ الْمُحَامِيَ حَامِيَا
أَعَدَّ لَـهُ الْجِـدَّ الْمُسَاعِـدَ سَاعِـداً وَمَدَّ لَـهُ اللَّحْـظَ الْمُرَاعِـيَ رَاعِيَـا
لَقَدْ حَلَّ مِنْ أُفْقِ الْخَلاَئِفِ بَدْرُهُ مَقَاماً قَدِ اسْتَوْفَى الْمَعَالِـيَ عَالِيَـا
سَنًى قَالَ لِلظَّلْمَاءِ لاَ تَثْبُتِي فَقَـدْ أَتَى لَكِ إِصْبَاحُ التَّمَاحِـيَ مَاحِيَـا
وَمَمْدُودُ عِزٍّ قَالَ لِلرَّوْعِ لاَ تَرُعْ جَنَابـاً لَـهُ أَمْسَى رِوَاقِـيَ وَاقِيَـا
وَكَفٌّ تُنَادِي الْعَافِيَ ادْنُ إِلَى النَّدَى فَلَـيْسَ عَـنِ الْعَافِي غِنَائِـيَ نَائِيَـا
وَبَأْسٌ يَقُولُ الْعَضْبُ عِنْـدَ عِيَانِـهِ أَمِنْ طَبْعِكَ الْمَاضِي اقْتِبَاسِيَ يَاسِيَا
وَعَدْلٌ يُنَادِي الْحَقَّ عُدْ مُتَجَـدِّداً فَقَدْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِ اقْتِبَالِيَ بَالِيَا
حُلَى قَوْمِهِ صَحْبِ النَّبِيِّ الأُلَى اكْتَفَى بِنَصْرِهُـمُ عَـنْ أَنْ يُنَـادِيَ نَادِيَـا
لَقَدْ أَنْجَبُوا لِلْمُلْكِ كُلَّ مَنِ اغْتَدَا بِحَيْثُ ارْتَضَى الْحَقُّ الْمَسَاعِيَ سَاعِيَا
وَلاَ مِثْلَ مَوْلاَنَا الْخَلِيفَـةِ يُـوسُفٍ إِمَـامَ هُـدًى فَـاقَ الْمَوَالِـيَ وَالِيَـا
فَغَيْثـاً إِذَا وَالَـى الْمَـوَاهِبَ وَاهِبـاً وَلَيْثـاً إِذَا لاَقَـى الأَعَـادِيَ عَادِيَـا

فَكَمْ هِبَةٍ تُنْسِي الْحَيَا عَمَّنَا بِهَا ... إِلَى هَيْبَةٍ تَحْمِي الْحِمَى هِيَ مَا هِيَا
أَيَا مَلِكاً مَازَالَ طَائِرُ سَعْدِهِ ... بِمَا شَاءَ قَدْ حَثَّ الْخَوَافِيَ وَافِيَا
عَدُوُّكَ خَوْفاًمِنْ صِيَالِكَ لَمْ يَزَلْ ... عَنِ الْحَرْبِ يَخْتَارُ التَّوَانِيَ وَانِيَا
سَيَغْشَاهُ يَوْمٌ مِنْ وَغَاكَ يَوَدُّ أَنْ ... يَرَى مِنْهُ لَوْ يُعْطَى التَّفَادِيَ فَادِيَا
وَوَيْلٌ لِمَنْ أَمْسَى لأَكْنَافِهِ ٱلَّتِي ... بِهَا سَخِطَ اللَّهُ الْمَسَاعِيَ سَاعِيَا
وَمَنْ لاَذَ بِٱلْكُفَّارِ أَصْبَحَ حَيْثُ قَدْ ... أَعَدَّ لَهُ الْمُلْكَ الْمَهَاوِيَ هَاوِيَا
وَهَلْ هُوَ إِلاَّ الْجَهْلُ عَمَّ عُقُولَهُمْ ... عَمًى لَمْ يَزَلْ يَغْشَى الْمُدَاجِيَ دَاجِيَا
لَقَدْ طُهِّرَتْ مِنْهُمْ مَنَازِلُكَ الَّتِي ... سَقَى وِرْدُ نُعْمَاهَا الْمُصَافِيَ صَافِيَا
وَمَا امْتَسَكَتْ إِلاَّ بِمَنْ جَدّ عَهْدُه ... فَلَيْسَ إِذَا لاَقَى الدَّوَاهِيَ وَاهِيَا
فَدُمْ أَيُّهَا الْمَوْلَى لِسَعْدٍ مُسَاعِدٍ ... أَتَى سَامِعاً مِنْكَ الدَّوَاعِيَ وَاعِيَا
وَدُونَكَ أَبْكَاراً مِنَ الْمَدْحِ قَدْ غَدا ... لَهُنَّ لِسَانِي مِنْ حِجَالِيَ جَالِيَا
هِيَ الشِّعْرُ إِلاَّ أَنَّهَا سَبَتِ النُّهَى ... وَمَا كَانَ شِعْرٌ فِي حِسَابِيَ سَابِيَا
شَدَوْتُ بِهَا أُثْنِي عَلَيْكُمْ وَإِنَّمَا ... غَدَوْتُ بِمَا فِيهِ رَشَادِيَ شَادِيَا
وَلاَ غَرْوَ أَنْ دَرَّتْ طِبَاعِي بِمِثْلِهَا ... فَتِلْكَ الْحُلَى رَدَّتْ جِهَامِيَ هَامِيَا
وَلَوْ سَهُلَ الإِلْزَامُ فِيهَا لَكُنْتُ قَدْ ... مَدَدْتُ بِمَيْدَانِ انْطِبَاعِيَ بَاعِيَا
عَلَى أَنَّنِي مَازِلْتُ عَنْ حَقِّ وَصْفِكُمْ ... وَلَوْ نَسَقَتْ كَفِّي اللآلِيَ ءَالِيَا
فَمَنْ لِيَ أَنْ أُلْفِي لدَيْنِ ثَنَائِكُمْ ... لِسَاناً إِذَا رُمْتُ التَّقَاضِيَ قَاضِيَا
لَقَدْ رُشْتُمُ فِي ٱلْجَاهِ سَهْمِيَ فَانْبَرَى ... لأَبعدِ نَهْجٍ مِنْ مَرَامِيَ رَامِيَا
وَإِنَّ أَبِي أَرْجُوكَ فِيهِ فَطَالَمَا ... وَصَلْتَ بِأَسْبَابِ اقْتِرَاحِيَ رَاجِيَا
يَقُولُ بَلَغْتُ الْقَصْدَ يَوْمَ غَدَوْتُ مِنْ ... مَقَامِ ابْنِ نَصْرٍ لِانْفِرَاجِيَ رَاجِيَا
فَدُمْتَ مَدَى الأَيَّامِ تَمْنَحُنَا نَدىً ... عَدِمْنَا لَهُ مِنَّا الْمُكَافِيَ كَافِيَا

وَمِنْ مَرْفُوعَاتِهِ

مَوْلاَيَ يَا ذَا الْكَرم الشَّامِلِ ... وَمُسْعِفَ الآمَالِ لِلآمِلِ
وَمَنْ بِحَلْيِ الدُّرِ مِنْ جُودِهِ ... حُلِّيَ جِيدُ الزَّمَنِ الْعَاطِلِ

عَبْدُكَ يَرْجُو أَنْ يُرَى نَائِلاً   بَعْضَ الَّذِي تَمْنَحُ مِنْ نَائِلِ
يَسْأَلُ مِنْكُمْ سَيْلَ إِنْعَامِكُمْ   فَقَابِلُوا السَّائِلَ بِٱلسَّائِلِ
دَامَتْ لَنَا مِنْ وَفْرِكُمْ أَبْحُرٌ   تُنْشَدُ فِي الْوَافِرِ وَٱلْكَامِلِ

وَمِنْ مُرْتَجَلاَتِ عَبْدِهِ
ٱلشَّيْخِ أَحْمَد بْنِ فُرْكُون القُرَشِي(182)

أَيَا مَطْلِعاً أَنْوَارُهُ تَتَوَسَّمُ   أَحَقّاً تَجَلَّى صُبْحُكَ الْمُتَبَسِّمُ
فَعَنْ أُفْقِكَ الأَعْلَى وَنَيِّر شُهْبِهِ   تُحَقِّقُ أَوْصَافُ الْكَمَالِ وَتُعْلَمُ
نَعَمْ إِنَّهُ الْمَوْلَى الْمُؤَيَّدُ يُوسُفٌ   عَلَى ٱلْعَبْدِ بِٱلرُّحْمَى يَجُودُ وَيُنْعِمُ
جَنَتْ يَدُهُ وَٱللَّهُ يُعْلِي مَقَامَهَا   بَدَائِعَ حُسْنٍ فَوْقَ مَا يُتَوَسَّمُ
وَقَدْ كُنْتُ فِي وَجْدٍ وَشِدَّةٍ وَحْشَةٍ   وَعَادَةُ مَوْلاَنَا يَرِقُّ وَيَرْحَمُ
إِلَى أَنْ أَتَى سِحْرٌ بَلِ الدُّرُّ دُونَهُ   زَوَاهِرُ شُهْبٍ عِقْدُهُنَّ مُنَظَّمُ
فَطَالَعْتُ مِنْ سِرِّ البَلاَغَةِ مُفْصِحاً   بِمَا يَكْتُبُ الْمُلْكُ الرَّفِيعُ وَيَكْتُمُ
وَأَنَّ صِيَامَ الشَّهْرِ يُلْغَى لأَجْلِهِ   وَإِنْ رَاقَهُ الْخَدُّ الْمُقبلُ وَٱلْفَمُ
سَيُقْبِلُ شَوَّالٌ بِأَيْمَنِ طَلْعَةٍ   يَرُوقُ بِهَا لِلْحُسْنِ جِيدٌ وَمِعْصَمُ
يَقُولُ لَكَ الْمُلْكُ الْمُهَنَّأُ هَذِهِ   مَوَاهِبُ مِنْ رَبِّ السَّمَاءِ وَأَنْعُمُ
وَتُطْلِعُ هَالاَتُ الْخِلاَفَةِ نَيِّراً   بِمِيلاَدِهِ تَقْضِي السُّعُودُ وَتَحْكُمُ
يُكَلِّمُهُ مَولاَيَ فِي مَهْدِ عِزِّهِ   فَيُنْشِدُهُ وَٱلْحَالُ عَنْهُ تُتَرْجِمُ:
«أَلَيْسَ عَجِيباً أَنْ نَكُونَ بِبَلْدَةٍ   كِلاَنَا بِهَا ثَاوٍ وَلاَ نَتَكَلَّمُ»(182م)
رِضَاكَ يُرَبِّينِي وَرَبُّكَ نَاصِرٌ   لِمُلْكِكَ وَٱلأَيَّامُ عِيدٌ وَمَوْسِمُ

---

(182) تقدم التعريف به.

(182م) البيت مضمّن، وهو لعمر بن أبي ربيعة.

وَلَهُ أَيْضاً وَهِيَ مِنْ مُقْتَرَحَاتِ الْمَقَام الكَرِيمِ أَعْلاَهُ ٱللَّهُ وَأَيَّدَه، وَوَصَلَ لَهُ مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ مَا عَوَّدَه، أَوَّلُهَا :

حجبُوهَا لَمَّا رَأَوْنِيَ أَفْنَى ثُمَّ قَالُوا قَدْ يَلْتَقِيهَا خَيَالاَ
كُلَّمَا لُحْتَ لِلْعُيُونِ هِلاَلاً رُمْتُ بِالصَّبْرِ مِنْكَ أَمْراً مُحَالاَ
كَيْفَ بِالصَّبْرِ وَٱلْفُؤَادُ رَهِينٌ حَلَّ بِٱلْخَيْفِ أَرْبُعاً وَحِلاَلاَ
لَكَ رِقِّي فَحَسْبِيَ الْيَوْمَ أَنِّي مِلْكُ مَنْ رَاقَ بَهْجَةً وَجَمَالاَ
طَالَمَا خُيِّلَتْ صِفَاتُكَ حُسْناً فَإِذَا الزُّهْرُ دُونَهُنَّ خِلاَلاَ
إِنْ تَكَلَّمْتَ فَٱلْعُقُودُ انْتِظَاماً أَوْ تَجَلَّيْتَ فَٱلْبُدُورُ اكْتِمَالاَ
إِذْ تُفِيدُ ٱلْهُدَى صَبَاحاً مُنِيراً وَتُعِيدُ الْكَلاَمَ سِحْراً حَلاَلاَ
أَيُّهَا السَّائِلُ الَّذِي خَبَّرَتْهُ زَفْرَتِي إِذْ أَطَالَ عَنِّي السُّؤَالاَ
وَرَأَى فَوْقَ أَضْلُعِي الْيَدَ مِنِّي تَتَوَقَّى تَوَقُّداً واشْتِعَالاَ
أَنَا مَنْ تَعْلَمُ الْحَمَائِمُ شَجْوِي حِينَ أَثْنِي غُصْنَ الأَرَاكِ مُمَالاَ
بِمُلِثٍّ مِنَ الدُّمُوعِ سَفُوحٍ إِذْ أَجَالُوا بِالسَّفْحِ خَيْلاً عِجَالاَ
وَالْمُثِيرِينَ لِلْكَتَائِبِ نَقْعاً دَاجِياً يَتْرُكُ الْحُرُوبَ سِجَالاَ
وَغَرَامِي بِٱلْمَالِكِيَّةِ يَقْضِي بِانْتِحَابِي شَرِيعَةً وَانْتِحَالاَ
حِينَ يَمَّمْتُهَا عَقِيلَةَ قَوْمٍ رُجُحٍ فِي الْوِزَانِ جَاهاً وَمَالاَ
وَرِكَابُ النُّجُومِ يَجْعَلُ شَأْنِي عَجَباً حَيْثُ يُزْمِعُ التَّرْحَالاَ
حَيْثُ نَادَيْتُ يَا خَلِيلَيَّ صِفْ لِي بَدْرَ حُسْنٍ فَاقَ الْبُدُورَ كَمَالاَ
وَأَفِضْ فِي حَدِيثِ يُوسُفَ مَوْلىً جَلَّ مِقْدَارُ وَصْفِهِ أَنْ يُنَالاَ
مَلِكٌ لاَ يُقَاسُ قَدْرُ عُلاَهُ بِمَدَى الشُّهْبِ مُسْتَوىً وَمَجَالاَ
مَلِكٌ لاَ يُرَامُ مِنْهُ جَنَابٌ فَلَهُ الْمُلْكُ عِزَّةً وَجَلاَلاَ
وَخِلاَلاً إِنِ اسْتُدِلَّ عَلَيْهَا حُجَّةُ الصِّدْقِ أَوْضَحُ اسْتِدْلاَلاَ
أَيُّ مُلْكٍ آبَاؤُهُ لِعَوَالٍ وَمَجَالٍ حُرُوبُهُ تَتَوَالَى
أَيُّ عَزْمٍ مُسْتَنْزِلٍ كُلَّ صَعْبٍ طَالَمَا أَنْزَلَ الْكُمَاةَ النِّزَالاَ

أَيُّ رِفْدٍ يَلْقَى بِهِ كُلَّ وَفْدٍ مُجْزِلاً كُلَّ مِنْحَةٍ إِجْزَالاَ
يُوسُفٌ يُوسِعُ الْبَرِيَّةَ عَدْلاً وَفُصُولَ الْفَضْلِ الْعَظِيمِ اعْتِدَالاَ
حُلَلُ الْفَخْرِ أَعْلَمَتْهَا حُلاَهُ فَانْثَنَى الدَّهْرُ زَاهِياً مُخْتَالاَ
وَتَبَاهَتْ مُلُوكُهُ وَتَنَاهَتْ وَاسْتَقَلَّتْ بِسَعْدِهِ اسْتِقْلاَلاَ
وَإِلَى رَاحَتَيْ نَدَاهُ أَرَاحَتْ بَعْدَ جَهْدِ النَّوَى فَعَمَّ نَوَالاَ
وَعَلَيْهِ السِّمَاتُ تُعْلِنُ صِدْقاً بِصِفَاتٍ سَمَا بِهِنَّ مَنَالاَ
وَهْوَ النَّاصِرِيُّ مِنْ ءَالِ نَصْرٍ فِئَةِ ٱلْمُصْطَفَى صِحَاباً وَءَالاَ
سَتَحْيَا يَا يُوسُفِيَّ الْمُحَيَّا بِمَآلٍ يُبَلِّغُ الآمَالاَ
إِثْرَ حَالٍ وَنُصْرَةٍ تَرْتَضِيهَا حَيْثُ سَالَمْتَ أَوْ قَصَدْتَ الْقِتَالاَ
وَبِآيِ الأَعْرَافِ يَعْصِمُكَه اللَّهُ إِمَاماً يُسَوِّغُ الأَنْفَالاَ

وَفِي مِثْلِ ذَلِكَ لِلْفَقِيهِ الْخَطِيبِ أَبِي ٱلْقَاسِمِ بْنِ سَالِمٍ(183)

أَمَّا سَبِيلُكَ فَهْوَ خَيْرُ سَبِيلِ وَدَلِيلُكَ الْوَضَّاحُ خَيْرُ دَلِيلِ
وَنَجَائِبُ الأَظْعَانِ مَشْرَعُهَا الصَّفَى وَسَلِيلُ ذِي الْعَلْيَاءِ خَيْرُ سَلِيلِ
وَٱلسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ هُمُ الأُلَى نَزَلُوا شِرَاعَ الصَّفْوِ خَيْرَ نُزُولِ
وَمَشَارِقُ الْبَرَكَاتِ فِيكَ مُبِينَةٌ وَٱلْبِشْرُ فِيكُمْ رَائِقُ التَّكْمِيلِ
وَجَمَالُ بِشْرِكُمُ دَلِيلٌ وَاضِحٌ وَمَحَاسِنُ الإِقْبَالِ أَعْظَمُ سُولِ
وَلَقَدْ سَرَتْ نَسَمَاتُ عَدْلِكَ فِي ٱلْوَرَى وَلَقَدْ رَفَعْتَ مَنَارَ كُلِّ جَمِيلِ
وَلَقَدْ غَدَتْ بِكَ رَيَّةٌ مُرْتَاحَةً مِنْ بَعْدِ طُولِ تَشَوُّقٍ وَغَلِيلِ
أَضْحَتْ بِكُمْ كَالرَّوْضِ بَاكَرَهُ الْحَيَا وَهَمَا عَلَيْهَا بَعْدَ فَرْطِ ذُبُولِ
إِيهِ أَخَا الْحُسْنِ الْغَرِيبِ جَمَالُهُ وَأَبَا الْمَكَارِمِ وَالنَّدَى الْمَبْذُولِ

---

(183) تقدّم التعريف به.

وَالْمُرْتَضَى فِي الْمَكْرُمَاتِ فِعَالُـهُ وَالْمُقْتَفِـي لِلْمَجْـدِ خَيْـرَ سَبِيـلِ
وَالصَّفْحُ شِيمَتُكُمْ وَشِيمَةُ فَضْلِكُـمْ وَدَخِيـلُ بَيْتِكُـمْ أَعَـزُّ دَخِيـلِ
وَنَزِيلُكُـمْ مَهْمَـا جَنَـى وَافَاكُـمُ وَمَقِيلُكُـمْ لِلصَّفْـحِ خَيْـرُ مَقِيـلِ
وَمَكِيـنُ ذَاتِكَ فِـي الْبَرِيَّـةِ كَعْبَـةٌ وَيَمِيـنُ رِفْـدِكَ مَـوْضِعُ التَّقْبِيـلِ

وَلِلْفَقِيهِ الْعَدْلِ أَبِي الْحَسَنِ الْغَافِقِي(184)

يَا غُرَّةً طَلَعَتْ كَالشَّمْسِ فِي الْحَمَلِ وَبُلِّـغَ الْمُلْكُ مِنْهَـا غَايَـةَ الأَمَـلِ
وَجُـدِّدَ السَّعْـدُ لَمَّـا عَزَّ مَطْلِعُهَـا بِدَارِ مُلْكٍ عَلِيِّ الْقَـدْرِ وَالْمَثَـلِ
وَأَمْتَعَ الدَّهْرُ مِنْهَا بِالسُّرُورِ كَمَـا قَدْ أَلْبَسَ الْمُلْكُ مِنْهَا أَكْرَمَ الْحُلَلِ
وَأَسْعَدَتْ عِنْدَمَا أَرْضَى الزَّمَانُ بِهَا نُفُوسَنَـا بِضُرُوبِ الأَمْـنِ وَالْجَـذَلِ
فَاهْنَـأْ بِهَـا دَوْلَـةً غَـرَّاءَ مُونِقَـةً تُرِيكَ قُـرَّةَ عَيْـنٍ لاَ إِلَـى أَجَـلِ
وَتُـوسِعُ الدِّيـنَ وَالدُّنْيَا وَسَاكِنَهَـا جُوداً عَلَى مَا تَرَى فِي عَيْشِكَ الْخَضِلِ
فَدُمْ لَنَا فِي مَعَالِي الْعِزِّ مُكْتَنِفـاً بِكُـلِّ فَضْلٍ وَعِـزٍّ غَيْـرِ مُنْتَقِـلِ
وَعُدْ عَلَى الدَّهْرِ بِالشُّكْرِ الْجَمِيلِ فَقَدْ أَوْلاَكَ مَا أَنْتَ تَهْوَاهُ عَلَى عَجَلِ
مِنْ عِزِّ مُلْكٍ بِدِينِ اللَّهِ مُعْتَصِمٍ وَبَذْلِ جُودٍ بِذِي الْحَاجَاتِ مُتَّصِلِ
وَاسْتَنْزِلِ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ الإِلاَهِ فَقَدْ أَوْلاَكَ مِنْـهُ مَقَامـاً غَيْـرَ مُنْتَقِـلِ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ فِي الدُّنْيَا لَنَا شَرَفٌ وَنَحْنُ فِي ظِلِّ عِزٍّ مِنْهُ مُنْسَدِلِ
وَاللَّهُ مَلَّكَكَ الدُّنْيَا بِمَـا رَحُبَـتْ فَقُمْتَ فِيهَا بِفَضْلٍ مِنْكَ مُشْتَمِـلِ
وَدِنْتَ لِلنَّـاسِ بِـالإِفْضَالِ مُجْتَهِـداً مُسْتَكْثِراً مِنْهُ لَمْ تَرْكَنْ إِلَى مَلَلِ
كُلٌّ عَلَى فَضْلِكَ الْمَبْذُولِ مُتَّفِـقٌ مَا إِنْ يُرَى أَحَدٌ يَرْمِيهِ بِالْجَـدَلِ
قَـدْ حَسَّنُـوا فِيكَ أَقْـوَالاً لأَنَّهُـمُ مِمَّا لَدَيْكَ مِنَ الإِحْسَانِ فِي ظُلَلِ
وَأَلْبِسُوا فِيكَ ثَوْبَ الْحُبِّ وَاتَّصَفُوا مِنْهُ بِحُسْنِ اعْتِقَادٍ غَيْرِ ذِي دَخَلِ
هَـذَا وَأَنْبَـاءُ دِيـنِ اللَّـهِ قَائِمَـةٌ عَلَى يَدَيْكَ وَأَهْلُ الشِّرْكِ فِي وَجَلِ

(184) لم نقف له على ترجمة أو ذكر.

وَالدَّهْرُ يَأْتِي بِهِمْ مُسْتَسْلِمِينَ إِلَى ... مَغْنَاكَ فِي ذِلَّةٍ مِنْ كَثْرَةِ الْوَهَلِ
لِيُعْظِمَ ٱللَّهُ مِنْكَ الأَجْرَ فِي سَبَبٍ ... تُحْيِي بِهِ ٱلْفِعْلَ مِنْ آبَائِكَ الأُوَلِ
مَقَامُ مُلْكِكَ أَعْلَى مَا افْتَتَحْتَ بِهِ ... أَرْضاً بِهَا ضَلَّ أَهْلُ الشِّرْكِ فِي سُبُلِ
قَدْ يُسِّرَتْ لَكَ أَسْبَابُ السَّعَادَةِ مِنْ ... فَتْحٍ لَهَا فَأَقِمْ عَنْهَا أَوِ ارْتَحِلِ
فَنَحْنُ طَوْعُ أَيَادٍ مِنْكَ سَابِقَةٍ ... قَدْ أُوجِبَتْ لاَ بِتَأْوِيلٍ وَلاَ عِلَلِ
نَصَرْتُ فِيكَ اعْتِقَادِي بِٱلْهَنَاءِ وَقَدْ ... رَأَيْتُهَا فِيكَ لِي مِنْ أَوْجَبِ النِّحَلِ
تَيَسَّرَتْ لِي سَرِيعاً عِنْدَمَا عَلِمَتْ ... بِأَنَّ قَصْدِي جَمِيلٌ فِيكَ لَمْ يَزَلِ
خُذْهَا إِلَيْكَ أُبَيَّاتٍ أَنَارَ بِهَا ... قَلْبِي وَأَبْدَيْتُ مَا أَخْفَاهُ مِنْ غُلَلِ
وَاهْنَأْ بِهَا دَوْلَةً بِالنَّصْرِ قَدْ قُرِنَتْ ... كَانَتْ لِمُلْكِكَ عِزّاً حَقَّ فِي الأَزَلِ
حَتَّى أَتَتْ وَهْيَ بِٱلأَفْرَاحِ مُعْلِنَةٌ ... تَهْوَى لِقَاءَكَ بِالإِقْبَالِ وَٱلْقَبَلِ
فَأَنْتَ صِدِّيقُ هَذَا الْعَصْرِ يُوسُفُهُ(184م) ... أُعْطِيتَ مُلْكَكَ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَهَلِ
لِكَيْ تَكُونَ كَمَا قَدْ شَاءَ مُتَّصِفاً ... بِكُلِّ فَضْلٍ بِحَالِ الْمُلْكِ مُحْتَمِلِ
وَتُنْزِلُ الدِّينَ وَالدُّنْيَا مَحَلَّهُمَا ... وَٱلْفَضْلُ مِنْكَ لَدَى الْحَالَيْنِ لَمْ يَحُلِ
فَالْمُلْكُ بِالدِّينِ تَرْعَاهُ وَتَحْفَظُهُ ... وَالدِّينُ تَنْصُرُهُ بِالسَّيْفِ وَٱلأَسَلِ
لاَزِلْتَ نَاصِرَ هَذَا الدِّينِ مُعْتَصِماً ... بِٱللَّهِ فِي كُلِّ قَوْلٍ مِنْكَ أَوْ عَمَلِ
أَمَدَّكَ ٱللَّهُ بِالنَّصْرِ الْعَزِيزِ كَمَا ... قَدْ أُلْبِسَتْ مِنْكَ نَصْراً خِيرَةُ الدُّوَلِ
وَمَهَّدَ ٱللَّهُ أَرْجَاءَ الْبِلاَدِ بِمَا ... حُفَّتْ بِهِ مِنْكَ مِنْ خَيْلٍ وَمِنْ خَوَلِ
وَلاَ تَعَدَّتْكَ ءَامَالٌ تَنَالُ بِهَا ... مَاشِئْتَهُ لِصَلاَحِ الدِّينِ مِنْ أَمَلِ

وَمِمَّا رَفَعَ لِمَقَامِهِ الْكَرِيمِ أَسْمَاهُ ٱللَّه الْفَقِيهُ الْمُرَفَّعُ الأَعَزّ أبو الْقَاسِمِ الْعَرَّادِي(185)

لِمَوْلاَيَ حِلْمٌ لاَ يُقَاسُ بِهِ حِلْمُ ... وَمُلْكٌ عَظِيمٌ زَانَهُ الدِّينُ وَٱلْعِلْمُ

(184م) مأخوذ من الآية الكريمة: ﴿يوسف أيها الصدّيق أفتنا...﴾.

(185) لم نقف على ترجمته أو ذكره، وإنّما وقفنا على ترجمة أحد أفراد هذا البيت الغرناطي، وهو محمد =

وَفَضْلٌ وَإِشْفَـاقٌ وَجُـودٌ وَرَأْفَـةٌ وَرِفْدٌ عَمِيمٌ سَابِغٌ شَائِعٌ جَـمُّ
وَمَاذَا عَسَى يُثْنِي عَلَيْكَ مُـقَصِّرٌ وَمِنْ دُونِ مَا أُوتِيتَهُ فِي ٱلْعُلَى النَّجْمُ
وَلَكِنَّنِي الْعَبْدُ الَّـذِي طَـلَّ فِكْـرُهُ وَلَوْلاَ هُدَى مَوْلاَيَ لَمْ يُمْكِنِ النَّظْمُ
فَهَـذَا هَنَائِـي يَـا امَـامَ عِبَـادِهِ وَيَا مَنْ بِهِ فِي ٱلْعَدْلِ والْفَضْلِ يُؤْتَمُّ
أَتَـاكَ رَسُولُ الْغَـرْبِ يَلْثُمُ رَاحَـةً لَهَا فِي مُلُوكِ الأَرْضِ يُسْتَوْجَبُ اللَّثْمُ
وَهَلْ فِي الْمُلُوكِ الأَعْظَمِينَ مُؤَمَّلٌ سِوَاكَ فَأَنْتَ الأَوْحَدُ الْبَاسِلُ الشَّهْمُ
وَفِيكَ أَدَامَ ٱللَّـهُ مُلْكَكَ رَحْمَـةٌ إِذَا مَا جَرَى فِي كُلِّ مُعْضِلَةٍ حُكْمُ
وَعَبْدُكَ يَا مَوْلاَيَ يَرْجُوكَ مُنْعِمـاً فَحَرْبُ زَمَانِي لاَ أَمَانٌ وَلاَ سَلْمُ
يُخَوِّفُنِـي دَهْـرِي وَأَنْتَ مُؤَمِّـنٌ عَسَى بِامْتِنَانٍ مِنْكَ يَحْيَى لِي الرَّسْمُ
وَيُلْحِفُنِـي مَـوْلاَيَ ظِـلَّ وِقَايَـةٍ فَتَنْسَحِبُ النُّعْمَـى وَيَرْتَفِعُ الضَّيْـمُ
وَقَصْدِي يَا مَوْلاَيَ رُؤْيَةُ وَجْهِكُمْ مَعَ الصَّحْبِ فِي يَوْمِ السَّلاَمِ لِكَيْ أَسْمُـو
وَيَذْهَبُ مَا بِي مِنْ عَنَاءٍ وَذِلَّـةٍ وَتُكْبَتُ حُسَّادِي لِـذَاكَ وَتَغْتَـمُّ

وَمِـنْ مَرْفُـوعَـاتِـهِ أَيْضَـاً

قَسَماً بِمَنْ أَوْلَى الْمَقَـامَ النَّـاصِرَا مُلْكـاً وَتَأْيِيـداً وَعِـزّاً قَاهِـرَا
فَعَلَى عُـدَاةِ الدِّيـنِ مِـن عَزَمَاتِـهِ بَـأْسٌ يَـرُوعُ بِـه الْعَـدُوَّ الْكَافِـرَا
وَإِذَا قَضَى بِالسِّلْمِ كَيْـفَ يُرِيـدُهُ كَـانَ الْكَفُـورُ يُطِيعُ مِنْـهُ أَوَامِـرَا
وَيُبَـادِرُ الْحُكْـمَ الْمُطَـاعَ مُؤَمِّـلاً مِـنْ رَاحَتَـيْكَ فَـوَاضِلاً وَمَآثِـرَا
هَـذَا وَأَمَّـا كُـلُّ عَبْـدٍ رَاغِبٍ مِنْكَ الرِّضَى فِيهِ عَفُـوّاً قَـادِرَا
يَكْفِي الْمُحَيَّا الْيُوسُفِيّ وَمَا عَسَى يُثْنِـي عَلَيْـهِ نَاظِمـاً أَوْ نَاثِـرَا
الْبَحْرُ لاَ تُـحْصَى صِفَـاتُ هِبَاتِـهِ لاَسِيَّمَـا إِنْ كَـانَ عَذْبـاً زَاخِـرَا

= ابن علي بن عبد الله بن علي القيسي العرّادي، عرّف به ابن الخطيب في الإحاطة، وذكر أنه وُلد عام 731هـ وتوفي عام 755هـ وهو دون العشرين، وكان أبوه أمين العطارين في غرناطة وقال إن فقده كان خسارة للشعر، وقد يكون أبو القاسم العرّادي أخاً للمذكور أو قريبا له، الإحاطة 2 : 286 ــ 287.

كَمَوَاهِبٍ مِنْ جُودِ مَوْلاَنَا الَّذِي ... يُرْجَى وَلِيّاً فِي الْخِلاَفَةِ نَاصِرَا
إنَّ الْمُلُوكَ وَإِنْ تَعَاظَمَ مُلْكُهُمْ ... فَبِهِ ارْتَقَوْا فَوْقَ السِّمَاكِ مَظَاهِرَا
وَإِذَا الْعَبِيدُ الْقَاصِدُونَ لِبَابِهِ ... نَظَرُوا إِلَيْهِ رَأَوْا مُحَيّاً بَاهِرَا
مَا طَلْعَةُ الصُّبْحِ الْمُنِيرِ كَوَجْهِهِ ... مَهْمَا تَجَلَّى النُّورُ مِنْهُ سَافِرَا
فَبِوَاجِبِ مَوْلاَيَ يَدْعُو عَبْدُكُمْ ... مُتَضَرِّعاً فِي كُلِّ حَالٍ شَاكِرَا
حَتَّى يُقَبِّلُ فِي ثَرَى أَقْدَامِكُمْ ... عَبْداً خَدِيماً وَارِداً أَوْ صَادِرَا
وَمَعَاذَ مَوْلاَنَا الرَّؤُوفِ بِعَبْدِهِ ... أَنْ يَتْرُكَ الدَّهْرَ الْمُرَوِّعَ جَائِرا
الْعَدْلُ أَنْتُمْ أَهْلُهُ وَمَحَلُّهُ ... فَلْتَرْحَمُوا عَبْداً كَسِيراً حَائِرَا

وَمِمَّا رَفَعَ لِمَقَامِهِ الكَرِيمِ أَسْمَاهُ ٱللَّه الشَّرِيفُ المُرَفَّع أَبُو عَامِرِ بْنُ أَبِي مَنْصُورٍ الْحُسَيْنِي المَكِّي[186]

ظَفِرْتَ بِٱلْيُمْنِ وَالإِقْبَالِ وَالأَمَلِ ... وَالنَّصْرِ وَالْفَتْحِ وَالإِنْسَاءِ فِي الأَجَلِ
وَدُمْتَ فِي نِعَمٍ تَتْرَى مُجَدَّدَةً ... عَلَى التَّعَاقُبِ فِي ٱلأَسْحَارِ وَالأُصُلِ
يَا خَيْرَ مَوْلًى تَوَلَّى الأَرْضَ قَاطِبَةً ... مَا لِلشَّرِيفِ سِوَاكُمْ فِي ٱلزَّمَانِ وَلِي
أَنْتَ الإِمَامُ الَّذِي تُرْجَى لِنُصْرَتِنَا ... بِالهُنْدُوَانِيِّ وَالعَسَّالَةِ الذُّبُلِ
إِذَا حَلَلْتَ بِأَرْضٍ لَمْ تَدَعْ سَقَماً ... فَأَنْتَ فِيهَا كَمِثْلِ الْعَارِضِ الهَطِلِ
لِلَّهُ يُوسُفُ الْمَوْلَى مَكَارِمُهُ ... جَلَّتْ عَنِ الْوَصْفِ وَالتَّشْبِيهِ وَٱلْمَثَلِ
مُقَدَّسُ الذِّكْرِ فِي حِلْمٍ وَفِي كَرَمٍ ... مُطَهَّرُ الذَّيْلِ مَحْفُوظٌ مِنَ الزَّلَلِ
أَبْدَى طَرِيقَ الْهُدَى وَٱلْحَقِّ فَاتَّضَحَتْ ... شُمُوسُه فَاهْتَدَيْنَا أَوْضَحَ السُّبُلِ
وَأَصْبَحَ الدِّينُ مَنْصُوراً بِنُصْرَتِهِ ... وَالسَّعْدُ سَاعَدَهُ وَالدَّهْرُ فِي جَذَلِ
دَلَّتْ عَلَى عَدْلِهِ فِينَا دِيَانَتُهُ ... وَالْمَجْدُ يَرْوِيهِ عَنْ أَسْلاَفِهِ الأُوَّلِ
أَحْيَى مَآثِرَهُمْ أَسْمَى مَنَاقِبَهُمْ ... أَبْدَى شَمَائِلَهُمْ كَالشَّمْسِ لَمْ تَحُلِ

---

(186) لم نقف على ترجمته.

رَوَّى الأَنَامَ بِغَيْثٍ جَادَ صَيِّبُهُ   بِوَاكِفٍ عَمَّ بَعْدَ النَّهْلِ بِالعَلَلِ
حُسْنَ الثَّنَا يَشْتَرِي إِنْ عَزَّ مَطْلَبُهُ   بِمَا حَوَى الْمُلْكُ مِنْ حَلْيٍ وَمِنْ حُلَلِ
لَهُ مَكَارِمُ أَخْلاَقٍ وَهِمَّتُهُ   كَمَا اقْتَضَتْهُ الْعُلَى تَعْلُو عَلَى زُحَلِ
يَسْتَخْدِمُ الشُّهْبَ عَنْ جُنْدٍ وَعَنْ حَشَمٍ   إِذَا بَدَا بَدْرُهُ لِلْخَيْلِ وَٱلْخَوَلِ
تَبَارَكَ ٱللَّهُ مَا أَسْمَاهُ مِنْ مَلِكٍ   وَمِنْ كَرِيمٍ وَمِنْ لَيْثٍ وَمِنْ بَطَلِ
أَيَّامُهُ أَقْبَلَتْ بِالسَّعْدِ مُشْرِقَةً   كَأَنَّهَا الشَّمْسُ حَلَّتْ مَنْزِلَ الْحَمَلِ
مَوْلاَيَ عَبْدُكَ قَدْ وَافَاكَ مُنْتَظِراً   مَا أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ فِي الْقَوْلِ وَالعَمَلِ
يَرْجُوكَ فِي الْوَعْدِ بِالإِنْجَازِ إِنَّ لَهُ   تَعَلُّقاً بِانْتِسَابٍ لِلإِمَامِ عَلِي
وَقَوْلُ مَوْلاَيَ مَهْلاً فِي تَلَطُّفِهِ   يُنْبِي بِأَنَّ الْمُنَى تَأْتِي عَلَى عَجَلِ
وَٱلأَمْرُ يُنْفِذُهُ وَٱلْوَعْدُ يُنْجِزُهُ   لَكِنَّهُ «خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلِ»
أَنْعِمْ عَلَيْهِ وَجُدْ وَاحْفَظْ تَوَسُّلَهُ   بِجَدِّهِ خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ وَالرُّسُلِ
لاَزِلْتَ يَانَاصِرَ الإِسْلاَمِ تَنْصُرُهُ   بِرَايَةِ النَّصْرِ بَيْنَ الْبِيضِ وَالأَسَلِ

وَمِنْ مَرْفُوعَاتِهِ أَيْضاً لِمَقَامِهِ الْكَرِيمِ أَسْمَاهُ ٱللَّهُ وَأَعْلاَه

أَمَوْلاَيَ إِنَّ الصَّيْفَ جَازَ وَلَمْ أَجِدْ   بِبَيْتِي دَلِيلاً مَّا يَدُلُّ عَلَى الصَّيْفِ
وَلَكِنْ رَأَيْتُ النَّاسَ ضَمُّوا حَصِيدَهُمْ   وَمَا ادَّخَرُوا مِنْ حَبِّهِ لِقِرى الضَّيْفِ
فَوَٱللَّهِ مَا جَادَ الزَّمَانُ بِحَبَّةٍ   وَمَهْمَا ذَكَرْتُ الصَّيْفَ طُرِّدْتُ بِالسَّيْفِ
فَوَلَّى زَمَانُ الصَّيْفِ عَنَّا كَأَنَّنَا   رَأَيْنَاهُ كَٱلأَحْلاَمِ فِي سِنَةِ الطَّيْفِ
أَمَوْلاَيَ أَمِّنِّي بِإِنْجَازِ مَوْعِدٍ   بِصَفْحٍ وَعَفْوٍ دُونَ ضَيْمٍ وَلاَ حَيْفِ
فَآمَنُ مِنْ فَقْرِي إِذَا تَمَّ مَطْلَبِي   أَمَانِيَ بَعْدَ الْحَجِّ فِي مَسْجِدِ الْخَيْفِ

وَمِنَ المَرْفُوعَاتِ لِلْمَقَامِ الكَرِيم

لَدَيْكَ هُوَ الإِحْسَانُ وَالْعَدْلُ وَالنَّدَى   وَأَنْتَ الَّذِي جَلَّتْ لَدَيْهِ الْمَعَارِفُ
خُصِصْتَ بِهَذَا الْمُلْكِ إِذْ أَنْتَ أَهْلُهُ   وَحُزْتَ كَمَالاً لَيْسَ فِيهِ مُخَالِفُ

وُقِيتَ الرَّدَى يَوْمَ الْحُرُوبِ مَعَ الْعِدَى   وَأُمِّنْتَ مِمَّا مِنْهُ قَدْ خَافَ خَائِفُ
فَيَسِّرْ لِيَ الْمَأْمُولَ فِيمَا طَلَبْتُهُ   فَشَأْنُكَ إِفضَالٌ بِهِ أَنَا عَارِفُ
فَهَذَا بِفَضْلِ ٱللَّهِ مَا مِنْهُ مَانِعٌ   وَذَاكَ بِحَوْلِ ٱللَّهِ مَا عَنْهُ صَارِفُ

وَلِمَمْلُوكِ نِعْمَتِهِ الْكَرِيمَةِ كَاتِبُ هَذَا بِأَمْرِهِ الْعَلِي أَبُو الحُسَيْن بْنُ أَحْمَدَ بْن فُرْكُونِ القُرَشي يَمْدَحُ مَقَامَهُ الكَرِيمَ

حَادِيهَا أَيْنَ بِهَا تَذْهَبُ   إِذْ لَيْسَ عَنْ وِرْدِ الْمُنَى مَذْهَبُ(187)
هَذَا هُوَ الرَّبْعُ بِهِ لِلظِّبَا   والأَنْجُمِ الْمَرْتَعُ وَالْمَرْقَبُ
إِنْ تَسْأَلِ الرِّفْدَ يَجُدْكَ الْحَيَا   أَوْ تَسْتَضِيءْ فَٱلنُّورُ لاَ يُحْجَبُ
لاَ يُظْمِىءُ الْوَجْدُ الْحُمُولَ ٱلَّتِي   سَرَتْ وَمِنْ دَمْعِي لَهَا مَشْرَبُ
شَامَتْ سَنَا بَارِقِهَا كُلَّمَا   يَجِيءُ فِي الظَّلْمَاءِ أَوْ يَذْهَبُ
إِنْ هُزَّ فَهْوَ ذَابِلٌ مُشْرَعٌ   أَوْ سُلَّ فَهْوَ صَارِمٌ مُذْهَبُ
وَأَدْهَمُ ٱللَّيْلِ يُجِدُّ السُّرَى   يَتْبَعُهُ مِنْ صُبْحِهِ أَشْهَبُ
قَدْ عُقِدَ الْفَجْرُ لَهُ رَايَةً   عِقْدُ ٱلدَّرَارِي تَحْتَهَا يُنْهَبُ
وَجِيرَةُ الْحَيِّ لَهُمْ أَوْجُهٌ   نُورُ الضُّحَى بِحُسْنِهَا مُعْجَبُ
يَشِبُّ وَجْدُ الْقَلْبِ مِنْ ذِكْرِهِمْ   مَهْمَا تَبَدَّى فَوْدُهُ الأَشْيَبُ
سَعَى بِيَ الْوَاشِي لَهُمْ عِنْدَمَا   قَدْ خَيَّمُوا وَالسَّعْيَ مَا خَيَّبُوا
مَا لِي وَلِلْعُذَّالِ مَا شَأْنُهُم   كُلُّ مُحِبٍّ بِهِم مُتْعَبُ
قَدْ عَلِمُوا بِأَنَّ أَهْلَ الْهَوَى   كُلُّ عَذَابٍ عِنْدَهُمْ يَعْذُبُ
هَلْ أَعْيُنٌ فُوِّقْنَ أَمْ أَسْهُمٌ   تُصْمِي بِهَا قُلُوبَنَا الرَّبْرَبُ
هَذَا وَكَمْ لِلدَّهْرِ مِنْ جَفْوَةٍ   لاَ تُبْلِغُ الآمِلَ مَا يَطْلُبُ
كَمْ قَلَّبَتْ قَلْبِيَ فِي جَمْرِهَا   وَإِنَّهُ لَحُوَّلٌ قُلَّبُ(188)

(187) توجد هذه القصيدة في ديوان ابن فركون 107 ـ 109.
(188) يقال : رجل قلّب حول : يقلب الأمور ويحتال الحيل.

دَهْرٌ جَهَامٌ سُحْبُهُ كُلَّمَا … يُرْجَى الْحَيَا وَبَرْقُهُ خُلَّبُ
فَأَيْنَ مِنْهُ يَا إِمَامَ الْهُدَى … إِلاَّ إِلَى عَلْيَائِكَ الْمَهْرَبُ
حَدَائِقُ الآدَابِ مُذْ أَمْحَلَتْ … مَا هَبَّ مِنْهَا نَفَسٌ طَيِّبُ
وَلَمْ يَجُدْ لِلْجُودِ غَيْثٌ بِهَا … فَلاَ جَنَابٌ عِنْدَهَا مُخْصِبُ
لَكِنَّ مَوْلاَيَ لَهُ رَاحَةٌ … دِيمَتُهَا الآنَ بِهَا تَسْكُبُ
لاَ عَجَبٌ مِمَّا جَفَا أَوْ جَنَى … فَكُلُّ دَهْرٍ شَأْنُهُ مُعْجِبُ
كَمْ مَنَعَ الْمَرْغُوبَ لِي مَانِحاً … مَا كُنْتُ عَنْهُ دَائِماً أَرْغَبُ
كَمْ صَدَّنِي عَنْ مَطْلَبِي ظَالِماً … وَسَدَّ لِي دُونَ الْمُنَى الْمَذْهَبُ
كَمْ حَمَّلَ الْمُغْرَمَ مَا لاَ يَفِي … بِحَمْلِهِ رَضْوَى وَلاَ غُرَّبُ[189]
كَمْ لَيْلَةٍ قَدْ بِتُّهَا سَاهِراً … تَكَادُ فِيهَا الشُّهْبُ لاَ تَغْرُبُ
وَبَدْرُهَا كَأَنَّهُ بَيْنَهَا … وَجْهُ ابْنِ نَصْرٍ حَفَّهُ الْمَوْكِبُ
يُوسُفُ الْمَوْلَى الَّذِي عِنْدَهُ … لِسَائِلِيهِ الأَهْلُ وَالْمَرْحَبُ
يُوسُفُ النَّاصِرُ بَحْرُ النَّدَى … وَمَنْ لَهُ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ[190] أَبُ
فَالْهَامِيَانِ رَحْمَةً لِلْوَرَى … نَوَالُهُ وَالْمَطَرُ الصَّيِّبُ
وَالنَّيِّرَانِ فِي ظَلاَمِ الدُّجَى … جَبِينُهُ الْمُشْرِقُ وَالْكَوْكَبُ
وَالطَّيِّعَانِ لِعُلَى مُلْكِهِ … بِعَدْلِهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ
وَالْمَاضِيَانِ مِنْهُ يَوْمَ الْوَغَى … عَزْمَتُهُ وَسَيْفُهُ الْمُرْهَبُ
وَالأَشْرَفَانِ بِحُلَى ذِكْرِهِ … مَدْحِي لِمَوْلاَيَ وَمَا أَكْتُبُ
وَالنَّاصِرَانِ مَنْ لِمَرْوَانِهَا … يُنْمَى وَمَنْ لِسَعْدِهَا يُنْسَبُ[191]
ذَلِكَ مَلْكٌ أَصْلُهُ مَكَّةٌ … وَذَا إِمَامٌ دَارُهُ يَثْرِبُ
أَنْصَارُ دِينِ اللَّهِ آبَاؤُهُ … لِلَّهِ مَوْلىً مِنْهُمُ أَنْجَبُ
مَوْلىً يُنِيلُ الخلقَ إِرْفَادَهُ … إِن سَأَلُوا وَالعَفْوَ إِنْ أَذْنَبُوا

---

(189) رضْوَى وغُرَّب : جبلان معروفان.

(190) هو قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي، وبحر النَّدى : في نسخة : بدر الهدى.

(191) الناصر المرواني هو عبد الرحمن الثالث، والناصر السعدي هو يوسف الثالث ونسبته إلى سعد بن عبادة.

مَكَارِمُ الأَخْلاَقِ تَقْضِي لَهُ ... أَنْ يَبْذُلَ العُتْبَى وَلاَ يَعْتُبُ
فَالْحِلْمُ وَالعِلْمُ لَهُ شِيمَةٌ ... وَالْحَزْمُ وَالْعَزْمُ الَّذِي يُرْهَبُ
مَآثِرٌ لَيْسَتْ لِمَلْكٍ مَضَى ... هَيْهَاتَ لاَ تُحْصَى وَلاَ تُحْسَبُ
لَوْ أَبْصَرَتْ مِنْهُ مُلُوكٌ مَضوا ... مَآثِراً عَنْ ذَاتِهِ تُعْرِبُ
بِالنَّصْرِ وَالْهَدْيِ وَبِالرُّشْدِ فِي ... آرَائِهِمْ وَالأَمْنِ مَا لُقِّبُوا
فِي حَرْبِهِ أَوْ سَلْمِهِ سَيْفُهُ ... وَسَيْبُهُ الْمُرْغِبُ وَالْمُرْهِبُ
إِنْ قَطَّبَ الْخَوْفُ وُجُوهَ الْعِدَى ... فَكُلُّ ثَغْرٍ ثَغْرُهُ أَشْنَبُ
سَوْفَ يُرَى يَفْتَحُ مِنْ أَرْضِهِمْ ... مَا هُوَ مُسْتَعْصٍ وَمُسْتَصْعَبُ
وَالْبِيضُ قَدْ قَامَتْ لَدَيْهِ عَلَى ... مَنَابِرٍ مِنْ هَامِهِمْ تَخْطُبُ
وَالسُّمْرُ تَرْتَاحُ إِذَا مَا غَدَا ... سِنَانُهَا مِنْ دَمِهِمْ يُخْضَبُ
يَا مَلِكَ الدُّنْيَا الَّذِي عَدْلُهُ ... بِهِ انْجَلَى عَنْ أُفْقِهَا الْغَيْهَبُ
بَلَغْتُ ءَامَالِي بِمَا نِلْتُهُ ... لَمْ يَبْقَ لِي مِنْ بَعْدِهَا مَطْلَبُ
فَلاَ يَخِيبُ لِي الْيَوْمَ مَقْصَدٌ ... وَلاَ مَرَامٌ رُمْتُهُ يَصْعُبُ
مَوْلاَيَ خُذْهَا مِدْحَةً فَذَّةً ... وَلَفْظُهَا عَنْ مَقْصَدِي مُعْرِبُ
قَبُولُكَ الْقَصْدُ فَمَنْ نَالَهُ ... فَوْقَ السَّحَابِ ذَيْلَهُ يَسْحَبُ
وَصْفُكَ لاَ يَأْتِي بِهِ شَاعِرٌ ... سِيَّانِ مَنْ يُطْنِبُ أَوْ يُسْهِبُ
فَدُمْتَ لِلإِسْلاَمِ مَا أَصْبَحَتْ ... شَمْسُ الضُّحَى أَنْوَارَهَا تَصْحَبُ

وَقُلْتُ أَمْدَحُ مَقَامَهُ الْكَرِيمِ أَسْمَاه آللَّه

أَمِنْ بَارِقٍ أَعْلاَمَ نَجْدٍ يُصَافِحُ ... تَذَكَّرْتَ عَهْداً بِالْحِمَى وَهْوَ نَازِحُ(192)
يَلُوحُ بِآفَاقِ الثَّنَايَا كَأَنَّهُ ... مُصَافِي وِدَادٍ بِالسَّلاَمِ مُصَافِحُ
كَلِفْتَ عَلَى بُعْدِ المَزَارِ بِجِيرَةٍ ... جَوانِحُهَا وَجْداً إِلَيْهِمْ جَوَانِحُ

(192) توجد في الديوان : 110 — 112 وجاء في مقدمتها هناك ما يلي : «وقلت في مدحه أيده الله في أول محرم عام أحد عشر وثمانمائة حسبما يظهر منها».

لَقَدْ قَيَّدَ الأَبْصَارَ حُسْنُ أَوَانِسٍ   لَهُنَّ قُلُوبُ الْهَائِمِينَ مَسَارِحُ
وَمَا هِمْتَ حَالَ الْبُعْدِ إِلاَّ لأَنَّهَا   قُلُوبٌ تَلاَقَتْ وَالْجُسُومُ نَوَازِحُ
وَمَا ارْتَاحَتِ الرُّكْبَانُ إِلاَّ لأَنَّهَا   يَمُرُّ بِهَا لِلشَّوْقِ غَادٍ وَرَائِحُ
وَمَا صَدَحَتْ وَرْقَاءُ إِلاَّ لأَنَّهَا   تُطَارِحُنَا بَثَّ الْهَوَى وَنُطَارِحُ
وَمَا انْعَطَفَتْ إِلاَّ غُصُونٌ نَوَاعِمٌ   وَمَا الْتَفَتَتْ إِلاَّ ظِبَاءٌ سَوَانِحُ
وَمَا حَلَّتِ الْقَلْبَ الْمَشُوقَ سِوَى حُلًى   بِهَا الجَفْنُ فِي رَوْضِ المَحَاسِنِ سَارِحُ
وَمَا سَالَ دَمْعُ الْعَيْنِ إِلاَّ مُصَرِّحاً   بِمَا ضُمِّنَتْ مِنْ حُبِّهِنَّ الْجَوَانِحُ
وَمَا ضُمِّنَتْ إِلاَّ أَحَادِيثَ خُلَّةٍ   أُتِيحَ لَهَا مِنْ صَاحِبِ الْعَيْنِ شَارِحُ[192م]
وَمَا طَابَ عَرْفُ الزَّهْرِ إِلاَّ لأَنَّهُ   تُمَازِحُهُ مِنْ ذِكْرِهِنَّ نَوَافِحُ
وَمَا رَاقَ نَظْمُ الشِّعْرِ إِلاَّ لأَنْ غَدَتْ   لِنَاصِرِ دِينِ ٱللَّهِ فِيهِ الْمَدَائِحُ
وَمَا أَشْرَقَ الإِصْبَاحُ إِلاَّ لأَنْ بَدَتْ   عَلَى الشَّمْسِ مِنْ وَجْهِ ابْنِ نَصْرٍ مَلاَمِحُ
وَمَا رَاعَ نَسْرَ الشُّهْبِ إِلاَّ جَمَالُهُ   فَحُتَّ جَنَاحٌ مِنْهُ لِلْغَرْبِ جَانِحُ
وَمَا ارْتَاعَتِ الشُّهْبَانُ إِلاَّ لأَنَّهُ   تَعَالَى لَهُ قَدْرٌ عَلَى الشُّهْبِ طَامِحُ
وَمَا رَعِشَتْ إِلاَّ لِتَأْخُذَ حِذْرَهَا   وَقَدْ رَاقَ صُبْحٌ مِنْ مُحَيَّاهُ لاَئِحُ
وَمَا اعْتَزَّ دِينُ ٱللَّهِ إِلاَّ لأَنَّهُ   يُدَافِعُ أَحْزَابَ الْعِدَى وَيُكَافِحُ
وَمَا سَيْفُهُ إِلاَّ دَمَ الْكُفْرِ سَافِحٌ   وَمَا حِلْمُهُ إِلاَّ عَنِ الذَّنْبِ صَافِحُ
هُوَ الْمَلِكُ ٱلأَعْلَى الْهُمَامُ ٱلَّذِي بِهِ   تَجَلَّتْ مِنَ الدَّهْرِ الْخُطُوبُ الْفَوَادِحُ
وَهَلْ يُوسُفٌ إِلاَّ إِمَامٌ مُؤَيَّدٌ   لَهُ تَخْضَعُ الصِّيدُ الْمُلُوكُ الْجَحَاجِحُ
وَهَلْ يُوسُفٌ إِلاَّ إِمَامٌ لِعَزْمِهِ   تَلِينُ صُرُوفُ الْخَطْبِ وَهْيَ جَوَانِحُ
يُعَوِّذُ بالسَّبْعِ الْمَثَانِي كَمَالُهُ   وَتُتْلَى عَلَيْهِ الْمُحْكَمَاتُ الْفَوَاتِحُ
تَوَاضَعَ لِلَّهِ الْعَظِيمِ وَقَدْرُهُ   لَهُ فَوْقَ آفَاقِ النُّجُومِ مَطَامِحُ
يَنِمُّ مِنَ الأَمْدَاحِ طِيبُ ثَنَائِهِ   فَتَسْرِي بِرَيَّاهُ الرِّيَاحُ اللَّوَاقِحُ
يَفِيضُ عَلَى العَافِينَ جُودُ يَمِينِهِ   فَتَرْوِي النَّدَى عَنْهُ السَّحَابُ الدَّوَالِحُ
لَقَدْ أَمَّلَ الْقُصَّادُ مِنْهُ مَثَابَةً   لَهَا الْقَصْدُ مَبْرُورٌ بِهَا السَّعْيُ نَاجِحُ

(192م) فيه تورية بالخليل وكتابه العين.

كَأَنَّ عَطَايَا يُوسُفٍ وَاهِبِ النَّدَى غَــوَادٍ غَــوَادٍ بِٱلنَّــوَالِ رَوَائِــحُ
كَأَنَّ سَجَايَا يُوسُفٍ مَلِكِ الْهُــدَى كَوَاكِبُ فِي أُفْقِ السَّمَــاءِ لَوَائِــحُ
كَأَنَّ مَذَاكِي يُوسُفٍ يَــوْمَ حَرْبِــهِ سَفَائِنُ فِي بَحْرِ النَّجِيعِ سَوَائِــحُ
كَأَنَّ عَوَالِي يُوسُفٍ قُضْبُ دَوْحَةٍ تُظِــلُّ وَمَشْبُــوبُ الْهَوَاجِــرِ لاَفِــحُ
سَتَغْزُو الأَعَــادِي وَالْبُــرُوقُ صَوَارِمٌ يَخُفُّ بِهَا لِلشُّهْبِ رَامٍ وَرَامِــحُ
وَتَمْلِكُ أَرْضَ ٱللَّهِ غَرْباً وَمَشْرِقــاً وَهَلْ مَانِعٌ مِنْ ذَاكَ وَٱللَّهُ مَانِــحُ
حُسَامُكَ مَسْلُولٌ وَسَهْـمُكَ صَائِبٌ وَجُنْـدُكَ مَنْصُورٌ وَسَعْــدُكَ فَاتِــحُ
وَرِفْـدُكَ مَمْنُــوحٌ وَعَفْــوُكَ شَامِــلٌ وَبِشْرُكَ مَبْــذُولٌ وَفَضْلُكَ وَاضِحُ
وَهَا أَنَا يَا مَوْلاَيَ قَصْدِي مُبَلَّغٌ بِمَا كُنْتُ أَرْجُوهُ وَتَجْرِيَ رَابِــحُ
وَرَبْعِــيَ مَعْمُــورٌ وَأُفْقِــيَ نَيِّــرٌ وَرَوْضِيَ مَمْطُورٌ وَزَهْـرِيَ نَافِــحُ
فَخُذْهَـا كَمَـا شَاءَ الْبَيَـانُ عَقِيلَـةً إِلَيْكَ بِهَا طِـرْفُ الْبَلاَغَـةِ جَامِـحُ
وَمَا أَنَا فِي نَظْمِي مُجِيدٌ وَإِنَّمَــا قَبُـولُكَ زَنْـدَ الْفِكْـرِ مِنِّـي قَـادِحُ
وَهَلْ طَائِرُ الْفِكْرِ الَّذِي أَمَّلَ النَّدَى إِلَى الوِرْدِ صَادٍ وَهْوَ بِٱلْمَدْحِ صَادِحُ
وَكَيْفَ تُضَاهَى فِي النِّظَامِ مَكَانَتِي لَدَيْكَ وَلَمْ يَمْدَحْكَ قَبْلِيَ مَــادِحُ

وَقُلْتُ أَمْدَحُهُ أَيَّدَهُ ٱللَّهُ وَخَلَّدَ مُلْكَه

مَقَـامُكَ لِلْقُصَّادِ كَهْــفٌ وَمَلْجَــأُ وَلِلآمِـالِ الْمُحْتَـاجِ وِرْدٌ مُهَنَّــأُ(193)
وَجُودُكَ بَحْرٌ لِلْعُفَاةِ فَـإِنْ جَـرَتْ بِهِمْ سُفُنُ الأَطْمَاعِ بَـابُكَ مَرْفَـأُ
وَوَٱللَّهِ مَا أَدْرِي وَوَجْـهُكَ لاَئِــحٌ أَنُورُ الضُّحَـى أَمْ نُـورُهُ يَتَــلأْلأُ
إِذَا اسْتَفْتَحَ الْمُدَّاحُ يَوْماً كَلاَمَهُـمْ فَكُــلٌّ بِمَـا تُبْدِي سُعُـودُكَ يَبْـدَأُ
وَلاَحَتْ لِدِينِ ٱللَّهِ مِنْكَ مَخَايِــلٌ تَدُلُّ عَلَى النَّصْرِ الْعَزِيـزِ وَتُنْبِـىءُ
كَذَلِكَ سُحْبُ الأُفْقِ يُرْجَى انْسِكَابُهَا إِذَا مَا اسْتَنَـارَ الْبَـارِقُ الْمُتَلأْلِـىءُ

(193) توجد في الديوان : 124 ــ 125 وقد جاء في مقدمتها : «وقبل ذلك أمر لي أيده الله بتنفيذ الغزاة بحضرته العلية وسائر البلاد النصرية وأبطأ الظهير الكريم بذلك في العلامة فقلت في منتصف ربيع الآخر عام أحد عشر وثماني مائة».

إِذَا لَمْ يَلُحْ بَدْرُ الدُّجُنَّةِ مُشْرِقاً   فَوَجْهُكَ أَهْدَى مِنْهُ نُوراً وَأَضْوَأُ
وَإِنْ بَخِلَ الْغَيْثُ الْمُلِثُّ بِجَوْدِهِ   فَجُودُكَ آفَاقَ الْبَسِيطَةِ يَمْلأُ
فَلاَ قُطْرَ إِلاَّ وَهْوَ يَبْغِيكَ مَالِكاً   وَلاَ قَطْرَ إِلاَّ عَنْ سَحَابِكَ يَنْشَأُ
فَنُورُ الْهُدَى لِلْمُجْتَرِي غَيْرُ آفِلٍ   وَنَارُ الْقِرَى لِلْمُجْتَدِي لَيْسَ تَخْبَأُ
إِذَا ذُكِرَ الْمَوْلَى الْخَلِيفَةُ يُوسُفٌ   بِهِ يُخْتَمُ الذِّكْرُ الْجَمِيلُ وَيُبْدَأُ
وَحَسْبُ مُجِيدِ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ أَنَّهُ   يُقَصِّرُ فِيمَا يَسْتَجِيدُ وَيُنْشِىءُ
لأَنَّ أَبَا الْحَجَّاجِ مَوْلاَيَ حُجَّةٌ   إِذَا عُدِّدَ الأَعْلاَمُ فَهْوَ الْمُبَدَّأُ
إِذَا احْتَفَلَتْ هَالاَتُ أُفْقٍ فَإِنَّهَا   لِمَجْلِسِهِ مِنْهَا الْمِهَادُ الْمُوَطَّأُ
وَمَنْ ذَا يُبَالِي بِالْهَوَاجِرِ تَلْتَظِي   وَنَائِلُهُ يُرْوِي إِذَا هِيَ تُظْمِىءُ
يُنَادِي نَدَاهُ وَالظِّلاَلُ مُرِيحَةٌ   أَلاَ أَوْرِدُوا مَاشِئْتُمُ وَتَهَنَّؤُوا
وَمَنْ أَنْحَلَتْهُ «صَحَّ هَذَا» بِوَعْدِهَا   فَبِالنَّاصِرِ الْمَوْلَى يَصِحُّ وَيَبْرَأُ
تَخُطُّ الْيَدُ الْغَرَّاءُ مِنْهَا عَلاَمَةً   يُقَبِّلُهَا وَهْوَ الْوَجِيهُ الْمُهَنَّأُ
هُوَ الْمَلِكُ الأَرْضَى الَّذِي عَزَمَاتُهُ   بِهَا كُلُّ قَصْدٍ نَاجِحٍ يَتَهَيَّأُ
يَصُولُ وَمَشْحُوذُ النِّصَالِ كَأَنَّهَا   تَذُودُ عَنِ الأَرْجَاءِ مَنْ يَتَجَرَّأُ
وَبِالسَّعْدِ قَبْلَ السَّيْفِ إِنْ شَهِدَ الْوَغَى   يَكُفُّ عَنِ الدِّينِ الْحَنِيفِ وَيَدْرَأُ
فَيَرْتَاحُ فِيهَا الرُّمْحُ وَالرَّوْعُ عَابِسٌ   وَيَخْطُبُ فِيهَا السَّيْفُ وَالْخَطْبُ يَفْجَأُ
بِهِ فِي ثَبَاتِ الْعَزْمِ وَالْحَزْمِ يُقْتَدَى   إِذَا تَخْفِقُ الرَّايَاتُ حِيناً وَتَهْدَأُ
مُجَاهَدَةُ الأَنْصَارِ قَامَ بِعِبْئِهَا   هُمَامٌ بِأَمْلاَكِ الْعِدَى لَيْسَ يَعْبَأُ
رَأَى الْمُصْطَفَى مِنْ سَعْدِهِمْ أَنَّ نَجْلَهُ   بِمَكَّةَ يُغْنِي عَنْ كَثِيرٍ وَيُجْزِىءُ
كَفَى بِكِتَابِ اللَّهِ مَدْحاً لأُسْرَةٍ   بِطَيْبَةَ مِنْهُمْ طَابَ أَصْلٌ وَمَنْشَأُ
وَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ جَلَّ جَلاَلُهُ   لَهُ قَوْلُ صِدْقٍ مِنْ مُحَالٍ مُبَرَّأُ
إِذَا الْخَزْرَجُ الأَعْلَوْنَ عُدِّدَ فَضْلُهُمْ   فَمَنْ عَامِرٌ أَوْ مَنْ سُلَيْمٌ وَطَيِّىءُ
أَمَوْلاَيَ لاَ يَأْتِي بِوَصْفِكَ شَاعِرٌ   وَلَوْ أَنَّهُ الطَّائِيُّ وَالْمُتَنَبِّىءُ
وَكَيْفَ يَرُومُ الْمَدْحَ وَالْحَمْدَ كَاتِبٌ   وَذِكْرُكَ يُتْلَى فِي الْكِتَابِ وَيُقْرَأُ
وَلَكِنَّ يَا مَوْلاَيَ أَمْرُكَ نَافِذٌ   فَمَا بَالُهُ فِي مَطْلَبِ الْعَبْدِ يُبْطِىءُ

إِذَا لَمْ يُؤَمِّلْ مِنْ جَنَابِكَ مَلْجَئاً ... إِلَى أَيْنَ يَا مَوْلَى الخَلاَئِفِ يَلْجأُ
وَلَمْ يَجْنِ مِنْ رَوْضِ الْمُنَى زَهْرَ رِفْدِهِ ... فَــأَيَّ ظِــلاَلٍ لِلنَّــدَى يَتَفَيَّـــأُ
وَسَهْمُ رَجَاءِي صَائِبٌ كُلَّمَا رَمَى ... بِهِ الْمَدْحُ فَاعْجَبْ كَيْفَ يَرْمِي وَيُخْطِىءُ
نَوَالُكَ عَذْبٌ لِلْوُرُودِ وَكُــلُّ مَــنْ ... يُؤَمِّلُــهُ عَــنْ وِرْدِهِ لاَ يُحَـــلأُ
وَمَا رَاقَ مِنِّـي النَّظْـمُ إِلاَّ لأَنَّــهُ ... بِبَحْـرِ نَـوَالٍ مِـنْ يَمِيـنِكَ لُؤْلُــؤُ
بَقِيتَ لِدِيـنِ آللَّهِ تَـنْصُرُ أَهْلَــهُ ... وَتَحْفَظُهُمْ مِنْ كُلِّ خَطْبٍ وَتَكْلأُ

وَقُلْتُ كَذَلِكَ فِي مَدْحِهِ أَيَّدَهُ آللَّهُ وَشُكْرِ نِعَمِهِ، وَتَقْرِيرِ مَا أَسْدَى مِنْ مَوَاهِبِ كَرَمِه

أَلاَ يَا مَشُوقاً يَمَّمَ الرَّبْعَ وَالْمَغْنَى ... هَنِيئاً فَوَجْهُ الْحُسْنِ حَيَّاكَ بِآلْحُسْنَى(194)
عَطَفْتَ عَلَى سَلْمَى الرِّكَابَ مُسَلِّماً ... فَأَهْدَتْ جَوَاباً رَائِقَ اللَّفْظِ وَآلْمَعْنَى
وَكُـنْتَ كَمَـا شَاءَ التَّثَنِّي بِقَدِّهَــا ... تَرَاهَا عَلَى تَعْذِيبِهَا عَذْبَةَ الْمَجْنَـى
وَيَا طَالَمَا صَدَّتْ وَلَمْ يَثْنِ مَعْطِفاً ... وَلَدَّتْ وَقَدْ جَاذَبْتُهَا غُصُناً لَدْنَـا
وَأَمَّـا وَقَـدْ لاَحَ الْمُحَيَّـا وَحُسْنُــهُ ... فَمِنْ طَلْعَةٍ تُجْلَى وَمِنْ دَوْحَةٍ تُجْنَى
وَقِدْمـاً سَرَيْنَـا بِآلرَّكَـائِبِ مَوْهِنــاً ... وَنَجْمُ الدُّجَى بِآلأُفْقِ لَمْ يَعْرِفِ الْوَهْنَا
تَخُوضُ بِنَا بَحْرَ السَّرَابِ ظَعَائِــنٌ ... فَلِلَّهِ عَيْنا مَنْ رَأَى الْبَحْرَ وَالسُّفْنَا
وَلَمْ أَنْسَ بِآلْحَيِّ الْحِلاَلِ وُقُوفَهَـا ... وَسُكَّانُهُ الْمَغْنَى فَمَا لِي وَلِلْمَغْنَـى
وَهَــلْ شَغَفِــي بِالْبَـانِ إِلاَّ لأَنَّــهُ ... بِهِ شَبَهٌ مِمَّنْ كَلِفْتُ بِهَا مَعْنَــى
هِيَ الظَّبْيُ جِيداً وَآلْقَضِيبُ تَـأَوُّداً ... تَنْثَنِي مِلْكاً دُونَ شَرْطٍ وَلاَ اسْتِثْنَا
بِنَيِّــرِ مَرْآهَـــا وَحُسْنِ قَوَامِهَـــا ... إِذَا مَا تَبَدَّتْ تُخْجِلُ الْبَدْرَ وَالْغُصْنَا
فَيَالَيْتَ مِنْهَا الطَّيْفُ قد زَارَ فِي الدُّجَى ... وَمَنْ لِي بِهِ والسُّهْدُ قَدْ أَلِفَ الْجَفْنَا
أَطَارَ فُؤَادِي الشَّوْقُ بَعْـدَ بِعَادِهَــا ... فَلَمْ يَتَّخِذْ فِي الصَّدْرِ وَكْراً وَلاَ وَكْنَا
عَجِبْتُ لَهَـا إِذْ أَتْلَفَتْـهُ بِبُعْدِهَــا ... وَمَا اتَّخَذَتْ لَمَّا نَأَتْ غَيْرَهُ سُكْنَا

(194) توجد كذلك في الديوان : 126 ــ 127 وقدّم لها بما يلي : «ولمّا وجّه إلى الظهير الكريم قلت أشكر نعمته في اليوم العشرين من ربيع المذكور».

لَقَدْ عَذَرَتْنِي ثُمَّ ضَنَّتْ بِوَصْلِهَا | وَأَعْجَبُ شَيْءٍ عَاذِرٌ بِالْمُنَى ضَنَّا
وَقَدْ رَجَمَ الْوَاشِي ظُنُوناً كَوَاذِباً | فَمِنْ عَاذِرٍ قَدْ ضَنَّ أَوْ عَاذِلٍ ظَنَّا
وَأَبْدَعُ شَيْءٍ طَائِرُ الدَّوْحِ صَادِحاً | يُذَكِّرُ بِالْمَغْنَى وَيُبْدِعُ إِنْ غَنَّى
أَذِنْتُ لَهُ وَالسَّمْعُ بَابٌ لِسَجْعِهِ | فَتَابَ وَلَمْ يَعْرِفْ حِجَاباً وَلاَ إِذْنَا
وَطُوِّقَ بِالأَنْدَاءِ جِيداً كَأَنَّهُ | حَبَا يُوسُفاً مَوْلاَيَ بِالْمَدْحِ فَاسْتَغْنَى
هُوَ الْمَلِكُ الأَعْلَى هُوَ النَّاصِرُ الَّذِي | مَعَالِي عَوَالِيهِ مُؤَسَّسَةَ الْمَبْنَى
فَحَسْبُ مُلُوكِ الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ أَنَّهُ | يُؤَمِّلُهُ الأَقْصَى مِنَ الْخَلْقِ وَالأَدْنَى
إِذَا مَا تَبَدَّى الْبَدْرُ نُوراً وَرِفْعَةً | أَرَى قَدْرَهُ أَسْمَى وَطَلْعَتَهُ أَسْنَى
تُيَسِّرُ يُسْرَاهُ لِسَائِلِهِ الْمُنَى | وَتَبْسُطُ يُمْنَاهُ لآمِلِهِ الأَمْنَا
فَيُرْدِي أَعَادِيهِ وَيُحْيِي عُفَاتَهُ | بِمَكْرُمَةٍ قَدْ سَنَّ أَوْ غَارَةٍ شَنَّا
حَبَانِيَ بِالآمَالِ وَالْمَالِ رِفْدُهُ | فَأَغْنَى وَعَنْ تَسْآلِ مَنْ دُونَهُ أَغْنَى
مَدَائِحُهُ كَانَتْ وَسَائِلَ لِلْغِنَى | فَلِلَّهِ مَا أَغْنَى وَلِلَّهِ مَا أَغْنَى
أَمَوْلاَيَ قَدْ بَلَّغْتَنِي كُلَّ مَطْلَبٍ | بِفَيْضِ نَوَالٍ جُودُهُ يُخْجِلُ الْمُزْنَا
وَلِمْ لاَ وَقَدْ وَافَتْ عَلاَمَتُكَ الَّتِي | لَهَا الْحُسْنُ فِي شَفْعِ الزِّيَادَةِ بِالْحُسْنَى
وَجُدْتَ بِمَا قَدْ أَمَّلَ الْعَبْدُ مُنْعِماً | فَشُكْراً لِمَا أَوْلَيْتَ مِنْ مَقْصَدٍ أَسْنَى
وَشَرَّفْتَ عَبْداً قَدْ أَتَاكَ مُسَلِّماً | يَرَى الْيُمْنَ فِي تَقْبِيلِ رَاحَتِكَ الْيُمْنَى
نَوَالُكَ كَافٍ كَافِلٌ كُلَّ سَائِلٍ | لَهُ فِي الْوَرَى مَعْنًى تَنَاسَوْا بِهِ مَعْنَا(194م)
يَمِيناً بِمَنْ حَثَّ الرَّكَائِبَ فِي مِنًى | وَمَنْ حَجَّ بَيْتَ اللَّهِ وَالْحِجْرَ وَالرُّكْنَا
وَمَنْ قَدْ سَرَى لَيْلاً لِتَكْلِيمِ رَبِّهِ | إِلَى أَنْ تَدَلَّى قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى
لَمَا سَاجَلَ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ وَلاَ الْحَيَا | يَلُوحُ وَيَهْمِي مِنْهُ حُسْناً وَلاَ مَنَّا
وَدُونَكَهَا بِالْحَمْدِ رَاقَ جَمَالُهَا | وَبِالْمَدْحِ فَاقَتْ كُلَّ غَانِيَةٍ حُسْنَا
فَأَثْنَى عَلَيْكَ الْعَبْدُ بَدْءاً وَعَوْدَةً | إِلَى أَنْ ثَنَى صَرْفَ الزَّمَانِ بِمَا أَثْنَى

(194م) هو معن بن زائدة.

وَقُلْتُ أَمْدَحُهُ مُخَمِّساً أَبْيَاتاً لِلْوَزِيرِ أَبِي عَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ الْخَطِيبِ(195)

لَئِنْ رَحَلُوا عَنِّي صَبَاحاً وَوَدَّعُوا فَنَارُ ٱلْجَوَى طَيَّ الْجَوَانِحِ أُوْدِعُوا
فَقُلْتُ وَمَا لِي فِي التَّصَبُّرِ مَطْمَعُ
نَوَوْا سَفَراً عَنِّي الْغَدَاةَ وَأَزْمَعُوا
فَيَالَيْتَ شِعْرِي بَعْدَهُمْ كَيْفَ أَصْنَعُ

لِذِكْرِهِمُ عُدْ وَالْحَدِيثَ بِهِمْ أَعِدْ فَلَوْمُ وُشَاتِي فِي الصَّبَابَةِ لَمْ يُفِدْ
فَيَا عَاذِلِي مَنْ جَدَّ فِي العَتْبِ لَمْ يُجِدْ
وَيَا لاَئِمِي أَكْثَرْتَ فِي ٱللَّوْمِ فَاتَّئِدْ
فَهَاذِي رُقًى فِي عِلَّتِي لَيْسَ تَنْفَعُ

مِنَ الشَّوْقِ أُهْدِيهَا إِلَيْكُمْ رَسَائِلاَ وَأُبْدِي لَدَيْهِمْ مِنْ غَرَامِي وَسَائِلاَ
وَدَمْعِي لَمْ يَبْرَحْ عَلَى الخَدِّ سَائِلاَ
لِغَيْرِ جُفُونِي قُلْ إِذَا كُنْتَ قَائِلاَ
سَحَابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَرِيبٍ تَقَشَّعُ

سَرَوْا بِرِكَابٍ لِلظِّلاَلِ مُرِيحَةٍ وَكَمْ مِنْ نُصُوصٍ فِي هَوَاهُمْ صَرِيحَةٍ
وَأَلْسُنُ دَمْعٍ مِنْ جُفُونِي فَصِيحَةٍ
وَمَا لِيَ لاَ أَبْكِي بِعَيْنٍ قَرِيحَةٍ
عَلَى فُرْقَةِ الأَحْبَابِ تَهْمِي وَتَهْمَعُ

أَيَا عَاذِلِي كُنْ فِي الْمَحَاسِنِ عَاذِرِي فَقَلْبِي مِنْهَا بَيْنَ نَاهٍ وَآمِرِ
فَهَا أَنَا صَابٍ فِي ٱلْهَوَى غَيْرُ صَابِرِ
فُؤَادِي أَعْيَى صَدْعُهُ كُلَّ جَابِرِ
وَهَلْ جُبِرَتْ يَاقُوتَةٌ تَتَصَدَّعُ

(195) لا توجد قصيدة ابن الخطيب المخمّسة إلاّ في هذا المجموع، وعنه نشرها الدكتور محمد مفتاح في ديوان ابن الخطيب 2 : 665 ــ 666.

ذَكَرْتُ رُبُوعاً بِاْلحِمَى وَمَعَاهِـدَا وَأَتْلَـفْتُ قَلْبـاً بِالصَّبَابَـةِ جَاهِــدَا
فَأَصْبَحَ عَنْ نَهْجِ التَّصَبُّرِ حَائِـدا
لَضَيَّعْتُ قَلْبِي ثُمَّ أَصْبَحْتُ نَـاشِداً
وَقَدْ قِيلَ أَوْلَى بِاْلخَسَارِ الْمُضَيِّـعُ
لَعَــلَّ هُيَامِـــي للأَحِبَّــةِ شَافِعِــــي فَمَا كُنْتُ لَمَّا فِيهِ خَانَتْ مَطَامِعِي
لأَكْتُـمَ وَجْـداً أَظْهَرَتْـهُ مَدَامِعِــي
أَبُوحُ بِمَـا أُخْفِـي وَلَـيْسَ بِنَافِعِــي
وَلَكِنَّهَا شَكْـوَى إِلَـى اللَّـهِ تُرْفَـعُ
لَقَدْ أَتْلَفَتْ قَلْبِي الْمَشُوقَ يَدُ النَّوَى فَأَصْبَحَ يُذْكَى فِي جَوَانِحِهِ الْجَوَى
هَوَاكَ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ بِهِ ثَـوَى
أَمَالِكَ رِقِّي كَمْ أَرَانِيَ فِي الْهَوَى
أَذِلُّ كَمَـا شَاءَ الْغَـرَامُ وَأَخْضَعُ
لِقَلْبِيَ فِـي أَيْـدِي الْغَرَامِ تَقَـلُّبُ يُذَادُ عَنِ الْعُقْبَى وَإِنْ كَانَ يُعْتَبُ
فَهَا أَنَا ذَا أَرْجُو رِضَاكَ وَأَطْلُبُ
وَهَبْ أَنَّنِي أَذْنَبْتُ وَالْعَبْدُ مُـذْنِبُ
فَلِي حَسَنَاتٌ فِـي ذُنُوبِـيَ تَشْفَـعُ
عَلَى الْبُعْدِ كَمْ أَهْدَيْتُهَا لَكَ مِدْحَةً عَسَاكَ تُسَنِّـي بِالتَّقَــرُّبِ مِنْحَــةً
وَإِنِّـي إِذَا أَذْكَـى بِعَـادُكَ لَفْحَـةً
وِدَادِي كَمِثْلِ الْعَنْبَرِ الْوَرْدِ نَفْحَـةً
إِذَا أَحْرَقَتْــهُ جَفْــوَةٌ يَــتَضَوَّعُ
بِقُـرْبِكَ ظَـلَّ العِزُّ فَوْقِـيَ وَارِفٌ وَبُعْدُكَ فِيـهِ دَمْعُ عَيْنَـيَ وَاكِـفُ
فَهَا أَنَا رَاجٍ فِي هَوَاكَ وَخَائِفُ
وَرَأْيُكَ بَيْنَ الْحِلْمِ وَالْحُكْمِ وَاقِفُ
عَلَى أَنَّ بَابَ الْحِلْمِ عِنْدَكَ أَوْسَعُ
أَبِيتُ عَلَى حُكْمِ الصَّبَابَةِ مُغْرَمـا وَأَقْطَعُ دَهْرِي فِـي عَسَى وَلَعَلَّمَـا

مَشُوقـاً مُعَنّـى مُسْتَهامـاً مُتَيَّمَـــا
أُعَـاتِبُ دَهْـرِي أَمْ أَكُـفُّ فَإِنَّمَــا
هُوَ ٱللَّهُ يُعْطِي مَـا يَشَاءُ وَيَمْنَــعُ

مُنِعْتُ الْمُنَى حَتَّى الْخَيَالَ لِحَالِمِ   وَنَيْلَ الْمَعَالِي بَيْنَ تِـلْكَ الْمَعَالِـمِ
وَإِنْ لَمْ يَكُنْ صَرْفُ الزَّمَانِ مُسَالِمِي
أُسَلِّمُ أَمْرِي فِـي الْوُجُـودِ لِعَالِـمِ
أَحَاطَ بِأَمْرِي مِنْهُ مَرْأًى وَمَسْمَـعُ

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي حُكْمِهِ الدَّهْرُ مُنْصِفِي   وَلَمْ أُلْفِهِ فِيمَا رَجَـوْتُ بِمُسْعِـفِ
وَلَمْ يُدْنِ أَيَّامَ الـرِّضَى وَالتَّعَطُّـفِ
سَأَرْفَـعُ أَمْـرِي لِلْخَلِيفَـةِ يُـوسُفِ
فَيَحْكُـمُ بِٱلْحَـقِّ الْمُبِيـنِ وَيَصْدَعُ

هُوَ الظِّلُّ ظِلُّ ٱللَّهِ تَضْفُو سُتُورُهُ   وَيُغْنِي عَنِ الصُّبْحِ الْمُبِينِ ظُهُورُهُ
سَحَابُ نَدًى بِٱلْجُودِ مَاجَتْ بُحُورُهُ
شِهَابُ هُدًى يَجْلُو الدُّجُنَّةَ نُـورُهُ
وَلُجَّـةُ جُـودٍ مَـوْجُهَـا يَتَـدَفَّـعُ

هُوَ الْبَدْرُ فِي أُفْقِ الْخِلاَفَةِ مُعْتَلِ   هوَ ٱلرَّوْضُ كَمْ مِنْ مُجْتَنٍ إِثْرَ مُجْتَلِ
فَلِلَّـهِ مِـنْ بَحْـرٍ وَبَـدْرٍ مُكَمَّــلِ
وَلِلَّـهِ مِـنْ غَيْـثٍ وَلَـيْثٍ وَمَعْقِـلِ
لِمَنْ يَجْتَدِي أَوْ يَعْتَدِي أَوْ يُرَوَّعُ

ضَفَا فَوْقَ أَمْلاَكِ الْبَسِيطَةِ ظِلُّـهُ   وَأُفْـقُ النُّجُـومِ النَّيِّـرَاتِ مَحَلُّــهُ
فَهَاهُـوَ غَيْـثٌ قَـدْ تَتَابَـعَ وَبْلُــهُ
وَدِيـوَانُ مَجْـدٍ قَـدْ تَـوَاتَـرَ نَقْلُــهُ
حَدِيث المَعَالِي عَنْهُ يرْوى وَيسْمَع

وَحِيدٌ لَهُ فِي الرَّوْعِ تَعْنُو أُلُوفُـهُ   هُوَ الـدَّوْحُ تَدْنُـو لِلْعُفَـاةِ قُطُوفُـهُ
هُوَ الدَّهْرُ تَقْضِي فِي الْعُدَاةِ صُرُوفُهُ
إِذَا اسْـــتُضِيَتْ آرَاؤُهُ وَسُيُوفُـــهُ
لِحَرْبٍ فَقُلْ أَيُّ الْحُسَامَيْنِ أَقْطَـعُ

إِمَـامٌ تَعُـمُّ الْقَاصِدِيـنَ هِبَاتُـهُ بِهِ الْخَطُّ وَالْخَطِّيُّ رَاقَتْ صِفَاتُـهُ
فَقَـدْ أَبْـدَعَتْ يُمْنَـاهُ أَوْ كَلِمَاتُـهُ
وَإِنْ وَقَعَتْ فِـي حَـادِثٍ عَزَمَاتُـهُ
فَقَـدْ أَمِـنَ الإِسْلاَمُ مَـا يَتَوَقَّـعُ
أَنَـاصِرَ دِيـنِ اللَّـهِ دُمْتَ مُؤَيِّـدَا لِعَهْدِ الصِّحَابِ الأَكْرَمِيـنَ مُجَـدِّدَا
فَمَنْ ذَا يُضَاهِي مِنْكَ ذَاتاً وَمَحْتِدَا
سَبَقْتَ كَمَا اسْتَوْلَى الْجَوَادُ عَلَى الْمَدَى
فَلاَ سَابِقٌ فِي شَأْوِ مَجْدِكَ يَطْمَعُ
رَمَـيْتُ بِسَهْـمٍ لِلْبَلاَغَـةِ مُنْفِـذِ فَرَوْضُ نِظَامِي مِنْ سَحَابِكَ قَدْ غُذِي
أَنَابِكَ مِـنْ رَيْبِ الزَّمَـانِ تَعَـوُّذِي
وَأَنْتَ حُسَامُ الْمُلْكِ نَاصِرُهُ الَّذِي
تَذُودُ الْعِدَى عَـنْ جَانِبَيْـهِ وَتَمْنَـعُ
بِجُودِكَ حَاشَى أَنْ أَرَى الدَّهْرَ مُعْرِضَا وَسَيْفُ نِظَامِي فِي يَمِينِيَ مُنْـتَضَا
وَلَفْظِيَ تَشْرِيفِي بِمَدْحِكَ قَدْ قَضَى
وَمِثْـلُكَ يُرْجَـى لِلْقَبُـولِ لِلـرِّضَى
وَعَبْـدُكَ أَيْضاً لِلصَّنِيعَـةِ مَـوْضِعُ

وَشَـفَعْتُهَـا بِهَـذِهِ الْمُوَشَّحَـةِ
فِي مُعَـارَضَـةِ مُوَشَّحَـةٍ قَدِيمَـة

لِلْحَيَـا فِـي رِيَـاضِهِ الْبَـاسِمْ
سَـالَ دَمْـعٌ سَفُـوحْ
فَانْثَنَـى فِيـهِ وَهْـوَ نَشْـوَانْ
كُـلُّ غُـصْـنٍ مَـرُوحْ
مَـا لَـهُ فِيـهِ تَـبْسِمُ الزَّهْـرُ مِـنْ دُمُـوعِ الْغَمَـامْ
حِيـنَ تَبْـدُو كَـأَنَّهَـا الزُّهْـرُ فِـي سَمَـاءِ الْكِمَـامْ

فَلَنَا الظِّلُّ فِيهِ وَالنَّهْرُ   نَافِعاً لِلأُوَامْ
عَجَباً فَهْوَ مَوْرِدُ الْحَائِمْ
يَغْتَدِي أَوْ يَرُوحْ
وَفُؤَادِي لِلْوِرْدِ ظَمْآنُ
بَعْدَ طُولِ النُّزُوحْ
عَجَباً لاَ يُنِيلُنِي قَصْدِي   زَمَنِي إِذْ حَكَمْ
وَانْتِصَارِي بِمُنْجِزِ الْوَعْدِ   وَغِيَاثِ الأُمَمْ
وَبِمَثْوَى الإِنْعَامِ وَالرِّفْدِ   وَمَحَلِّ الْكَرَمْ
وَبِمَوْلىً ثَنَاهُ لِلنَّاسِمْ
كَرِيَاضٍ تَفُوحْ
وَنَدَى رَاحَتَيْهِ هَتَّانُ
فَإِلَيْهِ الْجُنُوحْ
مَطْلَبِي الْيَوْمَ لِي يُوَفِّيهِ   يُوسُفِيُّ الْجَمَالْ
وَيُنِيلُ الَّذِي أُرَجِّيهِ   مِنْ بَعِيدِ الْمَنَالْ
مَلِكُ الدَّهْرِ مَنْ غَدَا فِيهِ   مُحْرِزاً لِلْكَمَالْ
فَبِهِ الْمُلْكُ جِسْمُهُ نَاعِمْ
كَوْنُهُ فِيهِ رُوحْ
وَلِعَيْنِ الْكَمَالِ إِنْسَانُ
هُوَ مَهْمَا يَلُوحْ
كَفَّ عَنِّي حَوَادِثَ الدَّهْرِ   بِنَدَى كَفِّهِ
وَأَزَالَ الْخُطُوبَ بِالْقَهْرِ   وَاعْتِدَا صَرْفِهِ
فَلِسَانِي بِالنَّظْمِ وَالنَّثْرِ   كَلَّ عَنْ وَصْفِهِ
هُوَ نَجْمٌ بِأُفْقِهِ غَاتِمْ
لِسَنَاهُ وُضُوحْ
وَلَدَيْهِ لِلدَّهْرِ إِذْعَانُ
وَهْوَ طِرْفٌ جَمُوحْ

أَسْهَرُ اللَّيْلَ أَنْظِمُ الْمَدْحَا ... فِي نَدَاكَ الْجَسِيمْ
كَحَمَامٍ يُرَدِّدُ الصَّدْحَا ... فِي رِيَاضٍ وَسِيمْ
أَوْ مَشُوقٍ يُرَاقِبُ الصُّبْحَا(196) ... قَائِلاً لِلنَّدِيمْ
نَبَّهَ الصُّبْحُ رَقْدَةَ النَّائِمْ
فَانْتَبِهْ لِلصَّبُوحْ
وَأَدِرْ قَهْوَةً لَهَا شَانُ
ذَاتَ عَرْفٍ تَفُوحْ

وَقُلْتُ وَقَدْ شَرَّفَ مَمْلُوكَهُ بِالْوُقُوفِ عَلَى النَّظْمِ الْمُتَقَدِّمِ فِي السِّفْرِ الأَوَّلِ عَلَى هَذَا الرَّوِي لِمَوْلاَنَا نَصَرَهُ اللَّهُ وَأَيَّدَهُ

بَدْرٌ بِقُبَّتِكَ الْغَرَّاءِ مَطْلِعُهُ ... تَبَارَكَ اللَّهُ مُبْدِيهِ وَمُطْلِعُهُ(197)
حَمْرَاؤُهُ هَالَةٌ تَبْدُو أَشِعَّتُهَا ... لأُفْقِهَا مَرْقَبٌ بِالْعِزِّ تَفْرَعُهُ
فَأَنْتَ يَا مَلِكَ الإِسْلاَمِ نَاصِرُهُ ... مِنْ كُلِّ حَادِثَةٍ فِي الدَّهْرِ تَمْنَعُهُ
وَأَنْتَ فَوْقَ الْمُلُوكِ الصِّيدِ مَنْزِلَةً ... وَتَحْتَ طَوْعِكَ مُلْكُ الأَرْضِ أَجْمَعُهُ
فَإِنْ دَجَا لَيْلُ رَوْعٍ أَنْتَ مَلْجَؤُهُ ... وَإِنْ تَفَاقَمَ أَمْرٌ أَنْتَ مَفْزَعُهُ
لِلْجُودِ تَمْنَحُهُ لِلدِّينِ تَمْنَعُهُ ... لِلسَّيْفِ تُسْرِعُهُ لِلرُّمْحِ تَشْرَعُهُ
لِلسَّعْدِ تُحْرِزُهُ لِلْوَعْدِ تُنْجِزُهُ ... لِلصَّدْرِ تَشْرَحُهُ لِلْقَدْرِ تَرْفَعُهُ
يَا طَالِباً مَعْهَداً لِلرِّفْدِ تَنْزِلُهُ ... إِرْبَعْ قَلِيلاً فَقَدْ حَيَّتْكَ أَرْبُعُهُ

(196) هكذا في الطرة، وفي المتن : أو مشوقٍ يردّد الصّدحا.

(197) توجد في الديوان : 152 ــ 153 مع المقدمة التالية : «وقلت وقد وجّه إلي أبياتا من نظمه أيده الله على هذا الروي والعروض، وإذا وقعت لليد تثبت على وجه التشريف إن شاء الله في عشي يوم الخميس الثامن لربيع الآخر عام أحد عشر وثماني مائة». والسفر الأول المشار إليه مفقود أما قصيدة يوسف الثالث التي نظم ابن فركون قصيدته على رويّها فهي التي أولها (الديوان : 137) :
يا آل يوسفَ لي في قصْرِكُمْ قمرٌ ... قد طلّ منْ فلَكِ الأزْرار مَطْلَعُهُ
والقصيدتان معاً على روي قصيدة ابن زريق المشهورة.

بِنَاصِرِ الدِّينِ قَدْ لاَحَتْ مَعَالِمُهُ   وَرَاقَ فِي أُفُقِ الْعَلْيَاءِ مَصْنَعُهُ
وَيُوسُفٌ شُرِّفَ الْمُلْكُ الْعَزِيزُ بِهِ   فَأَيْنَ قَيْصَرُهُ صِيتاً وَتُبَّعُهُ
فَقَيْصَرٌ قَاصِرٌ عَنْ جُودِ رَاحَتِهِ   وَتُبَّعٌ فِي مَضَاءِ الْعَزْمِ يَتْبَعُهُ
كَلَّمْتَ يَا مَلِكَ الأَمْلاَكِ مِنْ كَثَبٍ   عَبْداً يُنَادِيكَ مِنْ بُعْدٍ فَتَسْمَعُهُ
فَمَا اعْتِذَارِي لِمَوْلًى لَمْ يُحِطْ خَجَلاً   سَمْعِي بِلَفْظٍ غَدَا فِي القَلْبِ مَوْقِعُهُ
كَمْ حَلَّ فِي كَبِدِ الْمَمْلُوكِ مِنْ ظَمَإٍ   إِذْ لَمْ يُمَتَّعْ بِعَذْبِ اللَّفْظِ مِسْمَعُهُ
أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كَمْ رَاقَتْ حَدِيقَتُهُ   وَكَمْ عَلَى ظَمَإٍ رَوَّاهُ مَشْرَعُهُ
هَذِي صَلاَةُ صِلاَتٍ وَالنِّدَاءُ لَهَا   إِنْ كَانَ وِتْراً فَمَوْلَى الخَلْقِ يَشْفَعُهُ
وَكَمْ عَجَائِبَ أَبْدَاهَا النِّظَامُ بِهَا   قَدْ رَاقَ مِنْ زَهَرِ الآدَابِ أَيْنَعُهُ
وَلاَ كَعَذْرَاءَ مِنْ مَوْلَى الْمُلُوكِ أَتَتْ   بَابَ الْقَبُولِ أَمَامَ العَبْدِ تَشْرَعُهُ
إِذَا بَدَا طِرْسُهَا لِلَّهِ كَمْ حِكَمٍ   وَكَمْ بَدَائِعَ مِلْءَ الْعَيْنِ تُودِعُهُ
بَحْرُ الْمَكَارِمِ أَبْدَى مِنْ بَدَائِعِهِ   دُرّاً يَرُوقُ بِجِيدِ الْمُلْكِ أَنْصَعُهُ
فَلَفْظُهَا الدُّرُّ وَالزَّهْرُ الأَنِيقُ إِذَا   مَارَاقَ أَضْوَأُهُ أَوْ رَقَّ أَضْوَعُهُ
مَالَتْ بِنَا طَرَباً أَوْ لَوْعَةً فَحَكَتْ   كَأْسَ الْمُدَامِ أَمَامَ القَوْمِ مُتْرَعُهُ
لَهَا النَّسِيبُ إِذَا مَرَّ الْخَلِيُّ بِهِ   يَعُودُ وَهْوَ شَجِيُّ الْقَلْبِ مُولَعُهُ
يُبْدِي الَّذِي قَدْ أَكَنَّتْهُ جَوَانِحُهُ   وَضُمِّنَتْهُ مِنَ الأَشْوَاقِ أَضْلُعُهُ
مَاذَا يَقُولُ بَلِيغٌ فِي مَحَاسِنِهَا   وَأَبْلَغُ الْقَوْلِ فيها لَيْسَ يُقْنِعُهُ
لَكِنَّ يَأْتِي بِمَا تُبْدِيهِ فِكْرَتُهُ   وَفَضْلُ مَوْلاَيَ فِي الإِغْضَاءِ يُطْمِعُهُ
لاَ تُنْكِرُوا نَفَحَاتِ الزَّهْرِ مِنْ مِدَحِي   فَرَوْضُ فِكْرِي نَدَى كَفَّيْكَ يُمْرِعُهُ
مَدْحٌ يَرُوقُ ذَوِي الأَلْبَابِ نَاظِمُهُ   يُذِيعُهُ فِي إِمَامٍ لاَ يُضَيِّعُهُ
قَدْ سَالَمَتْهُ اللَّيَالِي إِذْ عِنَايَتُهُ   قَدْ أَمَّنَتْهُ فَلاَ دَهْرٌ يُرَوِّعُهُ
بَقِيتَ لِلْمَدْحِ أَوْ لِلْحَمْدِ مُنْفَرِداً   بِهِ وَدُمْتَ لِشَمْلِ الدِّينِ تَجْمَعُهُ

وَارْتَجَلْتُ مَعَ هَذِهِ وَقَدْ شَرَّفَ عَبْدَهُ بِالوُقُوفِ عَلَى البَيْتَيْنِ الْمَكْتُوبَيْنِ أَيْضاً فِي السِّفْرِ الأَوَّلِ قَبْلَ هَذَا

أَمِنْهَا سَرَى طَيْفٌ إِلَيَّ حَبِيبُ   وَلَيْسَ سِوَى نَجْمِ السَّمَاءِ رَقِيبُ(198)
أَتَى وَظَلاَمُ اللَّيْلِ يَسْحَبُ ذَيْلَهُ   وَلِلْبَرقِ ثَغْرٌ فِي دُجَاهُ شَنِيبُ(198م)
وَهَيْهَاتَ يَشْفِي الْقَلْبَ طَيْفُ خَيَالِهَا   وَقَدْ عَلِمَتْ أَنَّ الْخَيَالَ كَذُوبُ
إِذَا قَرُبَ الإِصْبَاحُ غَادَرَ بَعْدَهُ   فُؤَادِيَ يَصْبُو وَالدُّمُوعَ تَصُوبُ
أَبَانَ غَرَامِي يَوْمَ بَانَ عَنِ الْحِمَى   وَقَدْ بَانَ مِن فَوْدِ الظَّلاَمِ مَشِيبُ
فَأَذْهَبَ صَبْرِي وَالفُؤَادَ وَسَلْوَتِي   فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ مَدْمَعٌ وَنَحِيبُ
أَلاَ فِي سَبِيلِ الحُبِّ قَلْبٌ مُقَلَّبٌ   مَشُوقٌ لِتِذْكَارِ الْعُهُودِ طَرُوبُ
أَلاَ إِنَّهَا الذِّكْرَى وَإِنْ بَعُدَ الْحِمَى   تُجِدُّ لَدَيَّ الْوَجْدَ حِينَ تَثُوبُ
وَإِنَّ الَّتِي قَدْ هِمْتُ وَجْداً بِحُسْنِهَا   وَبِالْقَلْبِ مِنْهَا لَوْعَةٌ وَوَجِيبُ
لَتُخْجِلُ بَدْرَ الأُفْقِ وَهْوَ مُتَمَّمٌ   وَتُزْرِي بِغُصْنِ الْبَانِ وَهْوَ رَطِيبُ
فَلَوْلاَكِ يَا أُخْتَ الغَزَالَةِ لَمْ أَهِمْ   وَلاَ رَابَ قَلْبِي مِنْ هَوَاكِ مُرِيبُ
إِذَا أَلَّمَ الْمُشْتَاقَ وَجْدا عَلَى النَّوَى   فَلَيْسَ سِوَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ طَبِيبُ
عَجِبْتُ لِمِثْلِي كَيْفَ أُصْبِحُ بِالحِمَى   يُنَادِي وَمَا بِالْحَيِّ مِنْكَ مُجِيبُ
عَلَى أَنَّ لَفْظِي لُؤْلُؤٌ مُتَنَاسِقٌ   لَدَى النَّظْمِ عَذْبٌ لِلْوُرُودِ شَرُوبُ
إِذَا أَعْمَلْتُهُ فِي الطُّرُوسِ يَرَاعَتِي   يَرُوقُ مَدِيحٌ أَوْ يَرِقُّ نَسِيبُ
نَسِيبِي مَدِيدٌ غَيْرَ أَنِّي قَصَرْتُهُ   عَلَى مَنْ لَهَا الْبَدْرُ الْمُنِيرُ نَسِيبُ

(198) هذه القصيدة موجودة أيضا في الديوان : 154 ــ 155 وهي مسبوقة فيه بالتقديم التالي : «ووجّه إلي أيده الله بيتي شعر أولهما : وكم عائد، وأمرني بالتصدير لهما والتذييل عليهما فقلت بحسب الغرض في الانحطاط عن الجزالة وفي قريب من التاريخ» أما البيتان المشار إليهما فهما :

وكَم عائِدٍ زادت عيادتُه الأَسَى   ولو عُدْتِ قرّت أعينٌ وقلوبُ
فذِكرك حظّ النفس في كلّ خَطْرة   فياليت حظّ العَين منكِ قريبُ

وهما في الديوان : 11 وقبلهما ما يلي : «كذلك في التزاور من المرتجل».

(198م) بعد هذا البيت بيت ممحو وهو موجود في الديوان.

وَمَدْحِي عَلَى مَنْ جَادَ قَبْلَ سُؤَالِهِ ... وَمَنْ أَرْكَبَ الآمَالَ وَهْيَ رَكُوبُ
فَيَهْمِي نَدَاهُ كُلَّمَا بَخِلَ الْحَيَا ... وَإِنْ مَطَلَ الإِصْبَاحُ عَنْهُ يَنُوبُ
فَتُسْعَفُ قُصَّادٌ وَتُقْضَى مَآرِبٌ ... وَيَمْرَعُ مِنْ رَوْضِ العُفَاةِ جَدِيبُ
يَنِمُّ مِنَ الأَمْدَاحِ طِيبُ ثَنَائِهِ ... فَتَنْعَمُ أَسْمَاعٌ بِهِ وَقُلُوبُ
أَمَوْلاَيَ عُذْراً إِنَّ وَصْفَكَ مُعْجِزٌ ... وَلَوْ جَاءَ بَشَّارٌ بِهِ وَحَبِيبُ
وَلَكِنَّنِي أَرْجُوكَ فِي كُلِّ حَالَةٍ ... عَلَى أَنَّ مَنْ يَرْجُوكَ لَيْسَ يَخِيبُ
فَكُلُّ مَرَامٍ أَبْتَغِيهِ مُبَلَّغٌ ... وَكُلُّ بَعِيدٍ أَرْتَجِيهِ قَرِيبُ

وَقُلْتُ أُهَنِّىء مَقَامَهُ الْكَرِيمَ بِعِيدِ الفِطْرِ
مِن عَامِ أَحَدَ عَشَرَ وَثَمَانِي مِائَةً

أَمِنْ بَارِقٍ فِي الدُّجَا أَوْمَضَا ... حَنَنْتَ إِلَى ذِكْرِ عَهْدٍ مَضَى[199]
كَأَنَّ تَأَلُّقَهُ مَوْهِناً[200] ... شِهَابٌ إِلَى الرَّجْمِ قَدْ قُيِّضَا
كَأَنَّ الدُّجَى سَلَّ زِنْجِيُّهُ ... حُسَاماً عَلَى أُفْقِهِ وانْتَضَا
كَأَنَّ سَنَى الزُّهْرِ أَزْهَارُ رَوْضٍ ... مِنَ النُّورِ بِالنَّوْرِ قَدْ عُوِّضَا
كَأَن طَوَالِعَ شُهْبَانِهَا ... طَلاَئِعُ شُهْبٍ مَلأْنَ الْفَضَا
كَأَنَّ بِهَا الْقَلْبَ قَلْبٌ مَشُوقٌ ... تَقَلَّبَ فِي جَمَرَاتِ الْغَضَا
كَأَنَّ بِهَا النَّسْرَ قُصَّ الْجَنَاحُ ... لَهُ عِنْدَمَا رَامَ أَنْ يَنْهَضَا
كَأَنَّ أَخَاهُ أَخُو لَوْعَةٍ ... فَلاَ هُوَ أَغْفَى وَلاَ غَمَّضَا
كَأَنَّ السُّهَى خَبَرٌ هَاجِسٌ ... بِصَدْرٍ أَبَى السَّمْعُ أَنْ يُرْفَضَا
كَأَنَّ الْهِلاَلَ عَلَى أَدْهَمٍ ... مِنَ اللَّيْلِ سَرْجٌ وَقَدْ فُضِّضَا
كَأَنَّ ثُرَيَّاهُ رَاحَةُ خَوْدٍ ... تُعَوِّذُهُ خَمْسُهَا إِذْ أَضَا
كَأَنَّ الظَّلاَمَ غَدَا رَاحِلاً ... أَمَامَ الضُّحَى رَحْلُهُ قُوِّضَا
كَأَنَّ سَنَى الصُّبْحِ وَجْهُ ابْنِ نَصْرٍ ... إِمَامِ الْهُدَى الْمَلِكِ الْمُرْتَضَى

(199) وردت في الديوان : 190 ـ 192.
(200) موهنا أي في نحو نصف الليل.

إِمَامٌ يَكُفُّ صُرُوفَ الْخُطُوبِ — وَيَقْضِي الزَّمَانُ بِمَا قَدْ قَضَى
مَظَاهِرُهُ فِي العُلَى تُجْتَلَى — مَقَاصِدُهُ فِي النَّدَى تُرْتَضَى
فَأَعْلَى بِهِ اللَّهُ دِينَ الْهُدَى — وَكَمْ حُجَّةٍ لِلْعِدَى أَدْحَضَا
وَإِنَّ مُحَيَّاهُ مَهْمَا بَدَا — أَعَادَ ظَلاَمَ الدُّجَى أَبْيَضَا
فَيُوسُفُ شَيَّدَ مَغْنَى الْعُلَى — وَيُوسُفُ مَبْنَى الْعِدَى قَوَّضَا
أَنَاصِرَ دِينِ الْهُدَى أَشْبَهَتْ — عَزَائِمُ مِنْكَ الظُّبَا فِي المَضَا
فَقُمْتَ بِمَا قَعَدَ الدَّهْرُ عَنْهُ — وَدَاوَيْتَ بِالجُودِ مَا أَمْرَضَا
تجُود إِذا ضَنَّ صَوْبُ الْحَيَا — وَتُقْبِلُ والدَّهْرُ قَدْ أَعْرَضَا
وَتُعْرِضُ عَنَّا دَيَاجِي الْخُطُوبِ — بِنُورِ هُدىً مِنْكَ قَدْ أَعْرَضَا
وَضَلَّتْ عُدَاتُكَ لَمَّا غَدَا — بِكَفِّكَ سَيْفُ الْهُدَى مُنْتَضَا
فَتَرْجُوكَ لِلسِّلْمِ أَمْلاَكُهَا — وَتَخْشَاكَ فِي الرَّوْعِ أُسْدُ الْغَضَا
لَكَ الصِّدْقُ فَادْعُ وَلِيَّ الْهُدَى — إِلَى مَا ابْتَغَى وَإِلَى مَا ارْتَضَا
وَأَعْرِضْ عَنِ الكُفْرِ أَوْ قُلْ لَهُ — أَصَرَّحَ سَعْيُكَ أَمْ عَرَّضَا
صِفَاحِيَ لِلصَّفْحِ إِرْجَاؤُهَا — وَعَزْمِيَ لِلْبَاسِ قَدْ قُيِّضَا
وَمَا لِحُلُومِيَ أَنْ تُسْتَخَفَّ — وَمَا لِقَبُولِيَ أَنْ يُعْرِضَا
هُوَ الْحَقُّ مَوْلاَيَ فَاصْدَعْ بِهِ — مَرَاماً تَسَنَّى وَحُكْماً مَضَى
وَنَاصِرُهَا وَابْنُ أَنْصَارِهَا — مَقَامُكَ مُسْتَنْفِراً مُنْهَضَا
فَمَا فَوَّقَ السَّهْمَ إِلاَّ رَمَى — وَلاَ قَلَّدَ السَّيْفَ إِلاَّ نَضَا
لَكَ انْعَطَفَتْ جَامِحَاتُ الأَمَانِي — كَمَا تَعْطِفُ السَّابِقَ الرَّيِّضَا
وَأَدْرَاعُ حَرْبِكَ عَنْ نَقْعِهَا — يَرُوقُ اجْتِلاَءُ الْوُجُوهِ الْوِضَا
وَرِيحُ الصَّبَا نُشُراً بَيْنَهَا — تُثِيرُ جَدَاوِلَهَا الفُيَّضَا
سَتُفضِي إِلَى الْهُلْكِ أَعْدَاءُ مَنْ — إِلَى رَبِّهِ أَمْرَهُ فَوَّضَا
نَبَا سَيْفُهُمْ وَكَبَا طِرْفُهُمْ — وَمَنْ لِلْمُقَيَّدِ أَنْ يَنْهَضَا
فَهَا أُفْقُ أَنْجُمِهِمْ لاِنْقِضَاضٍ — وَغَايَةُ آمَادِهِمْ لاِنْقِضَا
لأَعْجَزْتَ مَنْ هُوَ آتٍ كَمَا — بِعَدْلِكَ أَنْسَيْتَ مَنْ قَدْ مَضَى

وَهُنِّئْتَ عِيداً أَتَى بِالْمُنَى ... دُيُونُ الْمَعَالِي بِهِ تُقْتَضَى
وَوَدَّعَ شَهْرُ الصِّيَامِ الَّذِي ... إِلَيْكَ الْمَوَدَّةَ قَدْ أَمْحَضَا
وَوَدَّ الْمُقَامَ بِمَثْوَى الْعُلَى ... كَمَا شَاءَ إِخْلاَصُهُ وَاقْتَضَى
وَلَكِنَّهُ عَائِدٌ عِيدُهُ ... بِمُقْتَبَلِ النَّصْرِ لَمَّا انْقَضَى
بَقِيتَ لأَمْثَالِهِ سَالِماً ... وَجَفْنُ الرَّدَى عَنْكَ قَدْ أَغْمَضَا
أَمَوْلاَيَ لِي أَدَبٌ رَوْضُهُ ... نَدَاكَ مَتَى جَادَهُ رَوَّضَا
مَعَاذَ قِدَاحِي بِهِ أَنْ تَخِيبَ ... وَحَاشَى عُهُودَكَ أَنْ تُنْقَضَا
وَمَا الْعَهْدُ إِلاَّ الَّذِي لاَ انْتِقَاضَ ... لِمَا أَحْكَمَتْ مِنْهُ أَيْدِي الْقَضَا
وَلَيْسَ جُنَاحٌ عَلَى الدَّهْرِ إِذْ ... أَبَى لِجُنَاحِيَ أَنْ يُخْفَضَا
فَإِنِّي مَمْلُوكُكَ الْمُرْتَجِي ... نَدَاكَ الْمُؤَمَّلُ مِنْكَ الرِّضَا
أَأَخْضَعُ يَوْماً وَمِنِّي لَدَى ... سِوَاكَ الْوَسَائِلُ لَنْ تُعْرَضَا
فَدُمْ لِلزَّمَانِ الَّذِي لاَ يُرَى ... لأَيَّامِ مُلْكِكَ فِيهِ انْقِضَا

وَقُلْتُ أُهَنِّئُهُ أَيَّدَهُ اللَّهُ فِي عِيدِ الأَضْحَى
مِنْ عَامِ أَحَدَ عَشَرَ وَثَمَانِي مِائَةٍ(201)

أَثَارَ هَوَاهَا(202) نُزَّعاً تَشْتَكِي الْوَجَا ... سَنَا بَارِقٍ يَهْدِي الرَّكَائِبَ فِي الدُّجَا
تَأَلَّقَ خَفَّاقَ الْجَنَاحِ كَأَنَّمَا ... غَدَا مُزْجِياً رَكْبَ السَّحَائِبِ مُزْعِجَا
أَنَارَ وَقَدْ أَخْفَى الظَّلاَمُ سَبِيلَهَا ... فَأَسْرَعَ لِلتَّأْوِيبِ مَنْ بَاتَ مُدْلِجَا
تَقُولُ حُدَاةُ الْعِيسِ إِذْ غَالَهَا السُّرَى ... أَلَمْ يَانِ لِلإِصْبَاحِ أَنْ يَتَبَلَّجَا
أَلاَ يَا خَلِيلَيَّ انْزِلاَهَا مَعَاهِداً ... وَمُرَّا عَلَيْهَا بِالرِّكَابِ وَعَرِّجَا
فَعَهْدِي بِهَا وَالْحَيُّ فِي عَرَصَاتِهَا ... يُحَيَّا بِمَا يُهْدِي جَنًى وَتَأَرُّجَا
وَصَوْبُ الْحَيَا حَلَّ الْحُبَا فِي بِطَاحِهَا ... فَلِلَّهِ مَا أَبْهَى حُلاَهَا وَأَبْهَجَا

---

(201) توجد أيضا في الديوان : 193 ــ 195.

(202) في النطرة : أي الإبل الغريبة التي تجلب إلى بلاد غيرها، ونزّعا جمع نازع أي نجيبة، وتشتكي الوجا=

كَأَنَّ سَقِيطَ الطَّلِّ مِنْ قُضْبِ دَوْحِهَا مُرَدَّدُ لَفْظٍ مِنْ لِسَانٍ تَلَجْلَجَا
مَعَاهِدُ لاَ تُخْفِي الصَّبَابَةَ إِذْ غَدَا نَسِيمُ صَبَاهَا لِلْغَرَامِ مُهَيِّجَا
وَلِلْوَجْدِ طِرْفٌ مَا كَفَفْنَا جِمَاحَهُ فَجَالَ بِمَيْدَانِ التَّصَابِي وَهَمْلَجَا
وَمَائِلَةِ الأَعْطَافِ لَمْ نَدْرِ قَبْلَهَا بِأَنَّ شُمُوسَ الأُفْقِ يَحْلُلْنَ هَوْدَجَا
هِيَ الشَّمْسُ يُسْتَجْلَى سَنَاهَا وَقَدْ غَدَا لَهَا الْبَدْرُ وَالجَوْزَاءُ قُرْطاً وَدُمْلُجَا
فَمَنْ لَمْ يُشَاهِدْ وَجْهَهَا وَقَوَامَهَا فَمَا الْبَدْرُ مُلْتَاحاً وَلاَ الْغُصْنُ رَجْرَجَا
وَمَنْ هَامَ بِالْحَسْنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَيِّهَا فَمَا القَدُّ مُرْتَاحاً وَلاَ اللَّحْظُ أَدْعَجَا(203)
وَمَنْ أَمَّ بَحْرَ الْجُودِ وَالعِلْمِ لاَ يُرَى عَلَى غَيْرِ مَوْلاَنَا ابْنِ نَصْرٍ مُعَرِّجَا(204)
هُوَ الْيُوسُفِيُّ النَّاصِرُ الْمَلِكُ الَّذِي عَزَائِمُهُ تُخْشَى وَرُحْمَاهُ تُرْتَجَى
هُوَ الْيُوسُفِيُّ الْعَالِمُ الْعَلَمُ الَّذِي عَوَامِلُهُ شُهْبٌ مِن النَّقْعِ فِي دُجَا
أَلاَ عَدِّ عَنْ ذِكْرِ الْقَيَاصِرَةِ الأُلَى لَدَيْهِ وَدَعْ كِسْرَى الْمُلُوكِ مُتَوَّجَا
فَهَذَا إِمَامٌ تَابِعٌ جَدَّهُ الَّذِي غَدَا سَيِّدَ الأَنْصَارِ أَوْساً وَخَزْرَجَا
وَهَذَا الَّذِي مَازَالَ فِي الأَرْضِ أَمْنُهُ عَلَى الْخَلْقِ ظِلاً فِي الْهَوَاجِرِ سَجْسَجَا(205)

وَهَذَا الَّذِي مَازَالَ فِي اللَّهِ سَالِكاً سَبِيلاً إِلَى النَّصْرِ الْعَزِيزِ وَمَنْهَجَا
شَمَائِلُهُ تَحْكِي الشَّمَائِلَ رِقَّةً وَأَمْدَاحُهُ زَهْرَ الرِّيَاضِ تَأَرُّجَا
رَجَوْنَا بِهِ نَيْلَ الْمَكَارِمِ وَالعُلَى فَلَمَّا رَأَيْنَا وَجْهَهُ صَدَقَ الرَّجَا
فَمِنْ عَزْمَةٍ تَكْفِي الْعِدَى وَتَكُفُّهَا وَمِنْ جُودِ كَفٍّ لاَ تُخَيِّبُ مَنْ رَجَا
إِذَا مَاجَ بَحْرُ الرَّوْعِ خَاضَتْ غِمَارَهُ صَوَافِنُهُ تَحْكِي السَّفِينَ الْمُلَجِّجَا
وَمَهْمَا دَجَا لَيْلُ الْعَجَاجِ أَرَاكَ مِنْ مُحَيَّاهُ صُبْحاً لِلْهُدَى مُتَبَلِّجَا
وَقَدْ أَسْمَعَتْ غُرُّ الْجِيَادِ صَهِيلَهَا وَرَاقَتْ حَوَالَيْهَا الْعَوَالِي تَوَشُّجَا
فَتَحْسِبُ أَنَّ الْحَرْبَ أَبْدَتْ حَدِيقَةً بِهَا الْقُضْبُ مُلْداً وَالْحَمَائِمُ هُزَّجَا

= أي الحفا لكثرة السير وقوله سنا فاعل أثار، وباقي البيت ظاهر، والمعنى أن هذا البرق الذي لمع هيّج هذه الإبل على ما بها من الغربة والحفا إلى مربعها ومقرها.

(203) في الطرة : فما القلبُ مرتاحا ولا اللحظ مرتجى.

(204) في الطرة : في هذا التخلّص خفاء وبعد عن الانسجام والمناسبة.

(205) يقال : يوم سجسج لا حر ولا قر، وفي الحديث في صفة الجنّة : وهواؤها السجسج.

أَمَوْلاَيَ إِنَّ اللَّهَ مَازَالَ مُلْهِماً ... لأَجْمَلِ صُنْعٍ جَاءَ بِالنَّصْرِ مُلْهِجَا

تَعُوجُ الأَعَادِي عَنْ لِقَائِكَ كُلَّمَا ... تُقَوِّمُهُ رُمْحاً وَتَعْلُوهُ أَعْوَجَا(206)

فَأَسْمَرُكَ الخَطِّيُّ يَلْتَاحُ نَصْلُهُ ... شِهَابَ هُدىً لَيْلَ الْعَجَاجَةِ مُفْرِجَا

فَكَفُّكَ لِلْعَافِينَ تَنْدَى غَمَامَةً ... وَسَيْفُكَ يُذْكَى جَاحِماً مُتَأَجِّجَا

كَذَلِكَ مِنْ شَأْنِ الْغَمَامِ انْسِكَابُهَا ... إِذَا مَا تُرِيكَ الْبَارِقَ الْمُتَوَهِّجَا

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ لَيْلٌ وَفَجْرُهُ ... حُسَامُكَ يَبْدُو خَاضِباً مُتَضَرِّجَا

كَأَنَّ مَيَادِينَ الطِّرَادِ صَحِيفَةٌ ... يُرِيكَ بِهَا الخَطِّيُّ خَطّاً مُثَبَّجَا

وَلَكِنَّهُ مَعْنَى سُعُودِكَ مُوضِحٌ ... وُضُوحَ النُّجُومِ الزُّهْرِ وَاللَّيْلُ قَدْ سَجَا

لَكَ الْعِلْمُ يَهْدِي كُلَّ مَن ضَلَّ رُشْدَهُ ... وَعَاجَ عَنِ النَّهْجِ الْقَوِيمِ وَعَرَّجَا

لَكَ الْعَزْمُ إِذْ أَمْضَيْتَ أَحْكَامَهُ فَفِي ... نُحُورِ عُدَاةِ الدِّينِ قَدْ أَصْبَحَتْ شَجَا

وَقَدْ عَادَ عِيدٌ كَانَ مِنْ قَبْلُ مُطْلِعاً ... مُحَيَّاكَ وَضَّاحَ الأَسِرَّةِ أَبْلَجَا

لَقَدْ حَلَّ يَوْمٌ قَدْ أَرَانَا حَقِيقَةً ... مِنَ الطَّلْعَةِ الغَرَّاءِ صُبْحاً تَبَلَّجَا

مَدَدْتَ لِتَقْبِيلِ الْخَلاَئِقِ رَاحَةً ... يَفُوقُ نَدَاهَا الزَّاخِرَ الْمُتَمَوِّجَا

وَهَلْ بَعْدَ أَنْ قَبَّلْتُ كَفَّكَ آمِلاً ... أَكُونُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الدَّهْرِ مُحْوَجَا

رَدَدْتَ . سِهَامَ الدَّهْرِ حَتَّى تَقَصَّدَتْ ... وَقَدْ كَانَ بَابُ الْقَصْدِ دُونَهُ مُرْتَجَا

فَدُونَكَ يَا مَوْلَى الْوَرَى مِنْ مَدَائِحِي ... ثَنَاءً كَأَزْهَارِ الرِّيَاضِ مُؤَرَّجَا

أَتَيْتُ بِهَا كَالزُّهْرِ وَالزَّهْرِ فِي الرُّبَى ... فَرَاقَتْ وَرَقَّتْ بَهْجَةً وَتَأَرُّجَا

حَيَاءً مِنَ التَّقْصِيرِ بِالطِّرْسِ حُجِّبَتْ ... عَلَى أَنَّهَا حَسْنَاءُ تُبْدِي التَّبَرُّجَا

فَهُنِّئْتَهُ عِيداً كَرِيماً وَمَوْسِماً ... جَمِيلَ الْمُحَيَّا رَائِقَ الْحُسْنِ مُبْهِجَا

فَبُلِّغْتَ مَا تَرْجُوهُ بَدْءاً وَعَوْدَةً ... وَلاَزِلْتَ فِي الأَمْلاَكِ أَكْرَمَ مُرْتَجَى

---

(206) في الطرة : أعوج : ذكر أنه فحل كريم كان لبني هلال بن عامر وأنه قيل لصاحبه : ما رأيت من شدة عدوه، فقال : حللت في بادية وأنا راكبه فرأيت سرب قطاً يقصد الماء فتبعته وأنا أعضّ من لجامه حتى توافينا الماء دفعة واحدة وهذا أغرب شيء يكون، وإن القطا لشديد الطيران وإذا قصد الماء اشتد طيرانه أكثر من غير قصد الماء ثمّ ما كفى حتى قال كنت أعض من لجامه ولولا ذلك لكان يسبق القطا، وإنما قيل له أعوج لأنهم أصابتهم غارة فهربوا منها وكان صغيرا فطرحوه في خرج وحملوه معهم لعدم قدرته على متابعتهم لصغره فاعوجّ ظهره من أجل ذلك، وإليه تنسب الخيل الأعوجية، ويقال هو أعوج بن لاحق بن داحس بن ذي العقال والله أعلم.

فهارس

فهرس الأعلام

فهـرس الأمـاكـن

فهرس القوافي

صدر القصيدة	القافية	البحر	الصفحات
بشرى تجلت للزمان وأهْلِهِ	وسهْلِهِ	الكامل	81
أما سبيلُكَ فهْو خير سبيلِ	دليلِ	الكامل	94
ومما شجاني أنني غيرُ تاركٍ	الأجَلْ	الطويل	87
لقد بَلغ المُلْكُ أقصَى الأمَلْ	وآعْتَدَلْ	المتقارب	39
والله ما آعتلَّتِ النواسِمْ	أصيلْ	مخلع البسيط	66
بدا في سَمَاءِ المُلْكِ بدرٌ متمَّمُ	وأنْجُمُ	الطويل	42
أيا مُطْلعاً أنوارُهُ تُتوسَّمُ	المتبسِّمُ	الطويل	92
أهلًا بدراً فالدَّهرُ مُبْتَسِمُ	مُحتشِمُ	المنسرح	75
رضيتُ بما يقضي الجملُ ويحكم	يتحكمُ	الطويل	16
لمولاي حلمٌ لا يُقاسُ به حِلْمُ	والعِلْمُ	الطويل	96
عُجْ بالمطيّ على المحَلِّ السَّامِ	غرامِ	الكامل	69
أمِن بارقٍ قَد لاحَ بَيْنَ النواسِمِ	البواسِمِ	الطويل	78
أسْهَرني الوَجْدُ وطُولُ الغَرَامْ	لِمَامْ	مخلع البسيط	71
إذا نحنُ بالوادي المقدسِ خيمنا	أمْنَا	الطويل	59
ألا يَا مشوقا يَمِّمَ الرَّبْعَ والمغنَى	بالحُسْنَى	الطويل	106
مَنْ للخلافة واقتبَالِ زمَانِهَا	شانِهَا	الكامل	35
ألاَ بأبي عَرْفُ النسيم الذي حَيَّا	الرَّيَا	الطويل	61
عبيدُك يَا مولايَ يَا مَلِكَ الدُّنْيَا	العُلْيَا	الطويل	62
مَددُ البحرِ للجداوِلِ فَاضَا	حياضَا	الخفيف	77
امِنْ بَارقٍ في الدجَا أومضَا	مضَى	المتقارب	116